مكتبة التاريخ الوسيط
-٥-
العلاقات بين الشرق والغرب

تاريخ العلاقات
بين الشرق والغرب
فى العصور الوسطى

دكتور
فايز نجيب إسكندر
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
ورئيس قسم التاريخ
كلية الآداب - جامعة بنها

توزيع المكتبة العلمية
شارع الثانوية -المنصورة

مكتبة التاريخ الوسيط
-٥-
العلاقات بين الشرق والغرب

تاريخ العلاقات
بين الشرق والغرب
في العصور الوسطى

دكتور
فايز نجيب إسكندر
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
ورئيس قسم التاريخ
كلية الآداب - جامعة بنها

توزيع المكتبة العلمية
شارع الثانوية -المنصورة

فهرس المحتويات

رقم الصفحة

الموضوع الأول
بطرس الناسك والحملة الشعبية سنة ١٠٩٦م(*)

أفرزت دعوة أوربان الثانى (١٠٨٨-١٠٩٩م) Urbain II لحملة صليبية ضد المشرق الإسلامى إنطلاق حملة شعبية ارتبطت باسم «بطرس الناسك»[(١)] Pierre L'Ermite . وكان لفصاحة تلك الشخصية أثرها الفعال والعميق علي جموع العامة ، فكانت خير جاذب ومعبأ لهم في تلك الحرب المرتقبة ضد المسلمين ، فاستعدوا للإنطلاق في اتجاه القسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطية دون انتظار قيام البابا والبارونات بإعداد التنظيمات السياسية والعسكرية الجادة لانجاح تلك الحرب الاستعمارية التي اتخذت من الدين ستاراً لإخفاء أطماعها الاستعمارية والدين منها ومنهم براء.

وتدّعى المصادر الصليبية المعاصرة ومنها «تاريخ الحرب المقدسة» Historia Belli Sacri لمؤلف مجهول والمنشور في «مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية» الجزء الثالث الخاص بالمؤرخين الغربيين أن بطرس الناسك توجه إلي الأراضى المقدسة لزيارة الضريح المقدس ، إلا أنه لم يتمكن من ذلك بسبب مضايقات الأتراك السلاجقة حسب زعمه ؛ وبعد فشله في رحلة الحج سالفة الذكر، حثه الله في المنام علي المثول أمام البابا ليخبره بضرورة التبشير بحملة صليبية لاستعادة الأراضى المقدسة من المسلمين. تلك الرواية المختلقة أوردها المؤلف المجهول لمصنف تاريخ الحرب المقدسة.

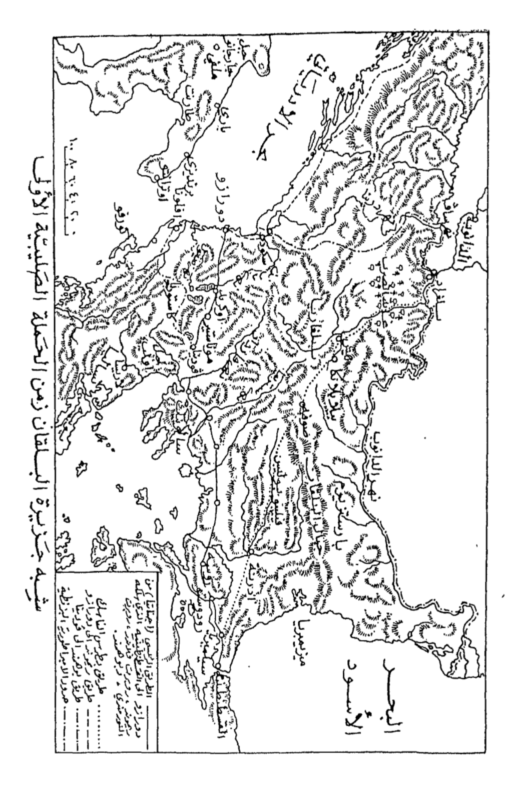
علي أية حال ، إنطلق بطرس الناسك بالتبشير بين صفوف العامة بحرب صليبية ضد المشرق الإسلامي. بدأ دعوته من مقاطعة بيري Berri ، فاجتاز أورليانيه Orleanais وشامينى Champagne واللورين Lorraine وريناني Rhenanie . وترك فرنسا بعد أن انضم إليه خمسة عشر ألف مقاتل علي وجه

(*) بحث شارك به الباحث في سمنار قسم التاريخ بكلية الآداب ، جامعة صنعاء ، باليمن ، وذلك يوم ٩ من مايو ١٩٩٦م.

التقريب ، ساروا بصحبته إلي كولونيا Cologne حيث وصلوا إليها في ١٢ ابريل سنة ١٠٩٦م. وضمت تلك الجموع عامة الناس وبعض صغار الفرسان والمجرمين واللصوص وقطاع الطرق بحثاً عن التكفير عن ذنوبهم ظاهريا ، والوصول إلي الثراء السريع واقعيا ، مع نسيان تعاليم عقيدتهم التي تحول دون تحقيق ذلك. فالوصول لتلك الغاية الدنيئة تجعل الدين آنذاك في أجازة.

وفي نفس لحظة انطلاق بطرس الناسك، انسلخ عنه مروض آخر للصوص وقطاع الطرق والمجرمين وخريجى السجون يدعى «جوتييه المعدم» -Gautier Sans-Avoir سبقه علي رأس العصابة التي حشدها وانطلق في اتجاه أراضى الامبراطورية البيزنطية فاجتاز بلاد المجر Hongrie بعد أن حصل علي اذن من ملكها «كولومان» Coloman بعبور أراضيه ؛ وبعدها تمكن جوتييه من الوصول إلى الأراضي البيزنطية حيث استقبله الحاكم البيزنطى نيكيتاس Niketas - حاكم صربيا Serbie - التي كانت تضم آنذاك بلجراد Belgrade ونيش Nish- بحفاوة بالغة هو وعصابته المسلحة تسليحاً سيئاً للغاية. بعدها اجتاز جوتييه وعصابته مدن صوفيا Sofia وفيليبوبولى Philippopoli وأدرنة Andrinople ووصلوا أخيراً إلي القسطنطينية، كان ذلك في ٢٠ يوليو سنة ١٠٩٦. حينئذ أمرهم الامبراطور البيزنطي الكسيس كومنين (١٠٨١-١١١٨م) بالبقاء خارج أسوار العاصمة البيزنطية في انتظار وصول بطرس الناسك وعصابته. وقد أمّن لهم العاهل البيزنطي كل وسائل الإمداد والتموين في كل مكان حلّوا به، وبالتالى جنبهم شر مواجهة المجاعة أى شر الفناء[٢].

أما بطرس الناسك، فقد رحل عن كولونيا Cologne في ١٩ ابريل سنة ١٠٩٦م -علي رأس عصابة لا تقل خطورة عن عصابة جوتييه المعدم- فاجتاز ألمانيا والمجر حيث تكفل الأمراء الألمان بتزويده بكافة احتياجاته من مؤن ؛ وفى المجر تولي ذلك الملك كولومان Coloman . وبوصول عصابة بطرس الناسك إلى



شبه جزيرة البلقان زمن الحملة الصليبية الأولى

مدينة «سملين» Semlin ، آخر حدود الأراضى المجرية ، والواقعة في مواجهة مدينة بلجراد Belgrade الخاضعة للسيادة البيزنطية آنذاك، دب نزاع ضارٍ بين المجريين وجماعة بطرس الناسك بسبب امتناع المجريين عن بيع الميرة للصليبيين ، وانقلب هذا النزاع إلي اقتتال بين الطرفين قتل علي أثره أربعة آلاف من المجريين[٣]. ولم يفلت بطرس الناسك وعصابته من انتقام الملك المجرى «كولومان» إلا بعد إسراع أتباعه بالتسلل إلي الأراضى البيزنطية. لكن مذبحة سملين كان لها انعكاساً سيئاً علي سياسة بيزنطة تجاه هؤلاء الرعاع، فاتخذ الامبراطور البيزنطي «الكسيس» تجاههم سياسة الريبة والحذر البالغ، إذ أدرك أنه أمام عصابات غير منظمة يسودها الفوضى وحب ارتكاب الأعمال الإجرامية بدلا من تعشمه في وصول جيش منظم يضم مقاتلين متمرسين علي فنون الحرب والقتال لكبح جماح الأتراك السلاجقة. لذا، سعي الامبراطور البيزنطي علي تحجيمهم ومراقبتهم ووضعهم تحت الملاحظة حتي يحول بينهم وبين ارتكاب أعمال السلب والنهب والقتل، بل سعي حثيثاً علي نقلهم بأسرع وقت ممكن إلي الشاطئ الأسيوي للبسفور ليستخدمهم في قتال الأتراك السلاجقة[٤].

علي أية حال، فإن القائد البيزنطي «نيكيتاس» Nicketas حاول بفضل حلفائه من الكومان Comans والبشناك Petchenegues تحديد خط سير هؤلاء الرعاع حتي لا ينساقوا بعيداً، إلا أنه فشل ، فعصابات بطرس الناسك قاموا في الحال بنهب بلجراد ، فكان من الطبيعي أن تزداد مخاوف بيزنطة وتنعدم ثقتها في هؤلاء الحلفاء. لذا طالب «نيكيتاس» Niketas أن يسلمه بطرس رهائن حتي يزود المشاركين في الحملة الشعبية بالمؤن اللازمة لهم، حدث ذلك عندما وصل «بطرس الناسك» أمام مدينة نيش Nish حوالي يوم الثالث من يوليو سنة ١٠٩٦م. ورغم كل التدابير التي اتخذتها السلطات البيزنطية، فإن عصابات «بطرس الناسك» - بعد مغادرتها نيش - انقضت علي ضواحيها لتنهبها. فما

كان من نيكيتاس أن انقض علي الصليبيين ولقنهم درساً قاسياً. وفقد «بطرس» في تلك المواجهة عدة آلاف من أتباعه، وعانى الأمرين حتي يتمكن من اعادة تجميع صفوفه، ليواصل طريقه إلي الأراضي المقدسة.

وبوصول «بطرس الناسك» إلي صوفيا Sofia ، التقي بمبعوثي الامبراطور البيزنطي «الكسيس كومنين» الذين عرضوا عليه شروطهم : وهي أن الحكومة البيزنطية ستعاود تزويد الجيش الصليبي بالمؤن بشرط أن لا يمكث أكثر من ثلاثة أيام في أي مدينة. وقد التزم بطرس بهذه الشروط حين وصل إلي فيليبوبولي وأدرنة. وأخيراً، وفي أول أغسطس سنة ١٠٩٦م، وصل بطرس الناسك إلي القسطنطينية حيث وجد فيما وراء أسوارها عصابات جوتييه المعدم.

ورغم المشاكل التي اعترضت طريق عصابات «بطرس الناسك»، وكذا الأعمال الاجرامية العديدة التي ارتكبوها أثناء توجههم إلي العاصمة البيزنطية، فإن الامبراطور «الكسيس كومنين» (١٠٨١-١١١٨م) Alexius Comnene استقبل بطرس الناسك استقبالا حافلاً ، ورحب بقدومه حين اجتمع به ، وأصدر أوامره بتزويد مرافقيه بالمؤن، ونصحهم بالانتظار تحت أسوار القسطنطينية لحين وصول جيوش الأمراء الصليبيين. وقال لهم الامبراطور البيزنطي : «لا تعبروا البسفور Bosphore قبل وصول بقية الجيوش الصليبية النظامية، لقلة عددكم وبالتالي سوف لا تقوون علي قتال الأتراك»[٥]. وكانت نصيحته سديدة بحق[٦] حسب رأي «فردينان شالندون» Fredinand Chalandon، لكون عصابات بطرس غير نظامية وسيئة التسليح، تضم فلاحين ورهبان هراطقة وخطاة وكذا نساء وأطفال ؛ كل هؤلاء ليس باستطاعتهم مواجهة السلاجقة. ومع ذلك، رغم عدم كفائتهم القتالية لم يكن باستطاعتهم الكف عن أعمال السلب والنهب ؛ إذ بمجرد إقامة معسكرهم خلف أسوار القسطنطينية حتي انطلقوا ينهبون الضواحي والقصور، بل لم يخجلوا من مهاجمة الكنائس البيزنطية[٧].

فى مواجهة تلك الجرائم، وخوفاً علي عاصمته القسطنطينية، قرر الامبراطور البيزنطي نقل عصابات بطرس الناسك إلي آسيا الصغري. وفي السابع من أغسطس سنة ١٠٩٦م، تكفلت السفن البيزنطية بنقلهم إلي الشاطئ الآسيوي للبسفور، نحو خريسوبوليس Chrysopolis وخلقيدونية Chalcedoine . وهناك لم يكفوا عن القيام بأعمال السلب، وقد أشار إلي ذلك المؤلف المجهول «لأعمال الفرنجة» Gesta حين قال : «بعد أن اجتازوا الشاطئ الآسيوي للبسفور، لم يكفوا عن ارتكاب السيئات، إذ قاموا بإحراق وتدمير المنازل بل والكنائس».حينئذ خصص لهم الكسيس كومنين للإقامة قلعة كيبوتس Kibotos أو سيفيتوت Civitot الواقعة علي الشاطئ الجنوبي لخليج نيقوميديا، بالقرب من الخليج. وكان الأسطول البيزنطي يتولي بانتظام تزويدهم بالمؤن، وكان علي الصليبيين انتظار قدوم البارونات. إلا أن الحدود التركية كانت علي مقربة منهم، فعلي مسافة تقترب من ٣٥ كم جنوب شرق قلعة «سيفيتوت» كانت نيقية Nicee عاصمة السلطان السلجوقي قلج أرسلان Qilij Arslan بن سليمان سلطان سلاجقة الأناضول. ولم تمتنع عصابات بطرس الناسك من ارتكاب أعمال السلب التي اعتادوا عليها حتي في أراضي السلاجقة. ففى حوالي منتصف سبتمبر واصلوا أعمال النهب حتي أبواب نيقية، وحظوا بغنائم طائلة رغم تدخل الأتراك الذين منيوا بهزيمة علي يد هؤلاء الرعاع.

بعد ذلك ، تشجع أتباع «بطرس الناسك» وارتفعت روحهم المعنوية بعد هذا النصر الذي أحرزوه علي الأعداء، وتمكن أحد قادتهم ويدعي رينو Renaud من أن يقتطع من السلاجقة قلعة كزيريجوردون Xerigordon ، الواقعة في ضواحي نيقية ؛ إلا أنه سرعان ما أحيط إحاطة الدائرة بالمعصم من قبل الأتراك. كان ذلك في ٢٩ سبتمبر سنة ١٠٩٦م ، وقطع عنه السلاجقة الماء وأحكم حصاره وعاني واتباعه كافة ألوان العذاب(٨) ، وانتهي أمرهم بمأساة، ففي ١٧ أكتوبر ١٠٩٦م، إستعاد الأتراك كزيريجوردون وقتلوا وأسروا كل من بداخلها(٩).

عقب تلك الكارثة ، كان ينبغي علي تلك العصابات أن تتعقل. إلا أنه علي نقيض ذلك إنتابهم التهور المؤسف. فبطرس الناسك بعد أن فشل في السيطرة علي أتباعه خاصة بعد أن فقد السيطرة علي تصرفاتهم وأفعالهم[١٠]، اضطر إلي العودة إلي القسطنطينية للمثول أمام الكسيس كومنين. حينئذ انتهز هؤلاء الرعاع غيابه لمواصلة تصرفاتهم المشينة. ورغم قلة الفرسان المنخرطين في تلك الحملة الشعبية - مثل جوتييه المعدم، والكونت تيبنجن Tubingen وجوتييه دوتيك Gautier de Teck - إلا أنهم زحفوا في اتجاه نيقية، ففي ٢١ أكتوبر سنة ١٠٩٦م، إنطلق العامة في عدد يناهز خمس وعشرين ألف مقاتل تقريبا من بينهم خمسة آلاف فارس علي الأكثر، إنطلقوا في فوضى عارمة، وقبل وصولهم إلي كيز درفند Kiz Dervend بأقل من ثلاثة كيلومترات جنوب سيفيتوت Civitot ، باغتهم السلاجقة وأقاموا لهم مذبحة مفزعة. وقاتل الفرسان بشجاعة بالغة، بينما لم تقو الجموع الغفيرة من الرعاع علي الصمود أمام الأتراك، وراح ضحية هذه المعركة كل من جوتييه المعدم والكونت تيبنجن وجوتييه دوتيك. ولم يفلت من تلك المذبحة سوي ثلاثة آلاف من أتباع بطرس الناسك تمكنوا من العودة ثانية إلي سيفيتوت والتي حرص السلاجقة علي حصارها.

عقب تلك المذبحة، أسرع الكسيس كومنين بإرسال سفنه الحربية إلي خليج نيقوميديا ، بعد أن عبأها بالامدادات والمؤن وأسند قيادة الأسطول إلي إيفوربينوس كتاكالون Euphorbenos Katakalon فبإقتراب الأسطول البيزنطي اضطر الأتراك إلي رفع الحصار عن سيفيتوت Civitot. أما الباقون علي قيد الحياة من اتباع بطرس الناسك، فقد أبحروا ثانية إلي القسطنطينية حيث أسكنهم الامبراطور البيزنطي في الضواحي، وأوصاهم بانتظار حملة الأمراء النظامية ؛ ولم يفته تجريدهم من أسلحتهم[١١].

هكذا فشلت الحملة الشعبية بقيادة بطرس الناسك بسبب جنوحها إلي الأعمال

الاجرامية رغم الغطاء الديني الذي كان يغلفها؛ إلا أن الأطماع الدنيوية قضت عليها وعلي من شاركوا فيها. وخرج الصليبيون من تلك المذبحة بموعظة غالية مفادها أن الايمان وحده لن يفتح لهم أبواب بيت المقدس ، بل لابد من ترتيب صفوفهم بنظام والتحلي بالحكمة والتروي.

علي أية حال، لم تكن حملات فولكمار Volkmar وجوتشالك Gottschalk وإميخ Emich[١٢] بأحسن حال من حملة بطرس الناسك، إذ فشلت فشلا ذريعاً حتي اعتقد الصليبيون الأتقياء أن ما حل بالجيوش الصليبية ليس إلا عقاباً إلهياً. ووصل الأمر بالمؤرخ الصليبي إكيهارد Ekkehard إلي القول في مصدره أن الكثير من المسيحيين اعتبر الحروب الصليبية عديمة الجدوي وتعد من الحماقات[١٣].

الحواشى

(١) هناك بلورة كاملة للحمة بطرس الناسك في: Historia Belli Sacri, In R.H.C., H. Occid., III, pp. 106 SQQ; Gruillaume De Tyr, in R.H.C., H. Occid., I, pp. 34 SQQ.

(٢) Chalandon, F., Histoire De La Premiere Croisade, Paris, 1925, pp. 61-62; Grousset, R., Histoire Des Croisades, Paris, 1934, I, pp. 5-6.

(٣) عن تفاصيل تلك المذبحة أنظر : Albert D'Aix, Historia Hierosolymitana, In R.H.C., H. Occid., Paris, 1897, IV, pp. 276 SQQ.

(٤) للتفاصيل أنظر: Chalandon, pp. 68-78 .

(٥) Historie Anonyme De La Premiere Croisade, Trad. Louis Brehier, Paris, 1924, p.7.

(٦) Chalandon, Premiere Croisade, pp. 76-77.

(٧) Histoire Anonyme, pp. 6-7.

(٨) Histoire Anoyme, p.9; Anne Comnene, Alexiade, X, 6, p.77.

(٩) أطلقت المؤرخة البيزنطية آن كومنين - إبنة الامبراطور البيزنطي الكسيس كومنين (١٠٨١ - ١١١٨م) علي قائد جيش السلاجقة الذي ألحق الهزيمة بالجيش الصليبي في كزيربجوردون Xerigordon اسم «الخانيس» Elkhanes (أنظر: Alexiade, I, II, 8 A.). ويبدو أنها تقصد «إلخان» السلاجقة.

(١٠) Histoire Anonyme, p.11.

(١١) Albert D'Aix, I, 22, p.289; Histoire Anonyme, p.13.
والجدير بالملاحظة أن ابن الجوزي يعد المصدر الإسلامى الوحيد الذي أشار في مصدره إلي مذبحة نيقية. أنظر : ابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ/ ١٢٠٠م) : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم - حيدر أباد الدكن ١٣٠٩ هـ- جـ٩ ، ص ١١٤٠.

(١٢) عن تفاصيل الحملات الألمانية السالفة الذكر أنظر :
Chalandon, pp.96-107; Grousset, I, pp. 9-11.

(١٣) Ekkehard, Hierosolymitana, In R.H.C., H. Occid., V, p.I, p.21.

الموضوع الثانى
متى الرهـاوى
و
الحملة الصليبية الأولى (*)
(١٠٩٥-١٠٩٩م/٤٨٨-٤٩٢ هـ)

أ.د. فايز نجيب إسكندر
أستاذ تاريخ العصور الوسطي
ورئيس قسم التاريخ
كلية الآداب - جامعة بنها

تحتل المصادر التاريخية الأرمنية مكانة بالغة الأهمية لدارسى تاريخ الحروب الصليبية، إذ تعكس وجهة نظر الأرمن إزاء تلك الحروب، وتظهر موقفهم منها، وتبرر سبب مناصرتهم للصليبيين.

ويعد مصنف متي الرُهَاوي Matthiu D'Edesse وعنوانه «حولية تاريخية» Chronique أهم تلك المصادر علي الإطلاق، بل أعظمها قيمة تاريخية، خاصة الجزء المتعلق منه بأحداث الحملة الصليبية، لكونه المصدر الوحيد الذى حرص علي تسليط الأضواء علي دور الأرمن آنذاك فى إنجاح قادة الحملة الصليبية الأولي فى تأسيس مستعمراتهم الصليبية ؛ فقد كان الأرمن خير عون للصليبيين في تحقيق أطماعهم وأحلامهم. ومع ذلك، لم يجن الأرمن ثمار تلك المساعدات الفعالة.

وتكادَ تكون معلوماتنا شحيحة عن حياة متي الرُهَاوي، مما اضطرنا إلي جمع نتف متفرقة من هنا وهناك، لكنها لا تشفى غليل الباحث. فكل ما نعرفه عنه، هو ما زودنا به عن نفسه في مستهل القسمين الثانى والثالث من حوليته ؛ فقد لقب نفسه بـ «الرُهَاوى» Our'Haietsi أي أنه من سكان مدينة الرُها Edesse (Our'Ha) ؛ وعقب ذلك مباشرة

(*) بحث شارك به الباحث في «سمنار التاريخ الإسلامي والوسيط» الذى أقامته كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، قسم التاريخ وذلك يوم الخميس ٢ مارس سنة ٢٠٠٠م ، وسينشر نشراً علمياً بالهوامش التحليلية في الكتاب التذكاري الذي سيصدر قريبا علي شرف المرحوم الأستاذ الدكتور/رأفت عبد الحميد- عميد كلية الآداب - جامعة عين شمس.

ذلك مباشرة أورد أنه ولد في تلك المدينة. وبعد بضعة أسطر ، ذكر أنه «فانيريتس» Vanérèts ، أي «رئيس دير». كذلك فإننا لجهل تماما تاريخ ميلاده أو حتي سنة وفاته. لكن من المؤكد أنه كان علي قيد الحياة بعد عام ١١٣٦م، وهو العام الذي أنهي فيه كتابة حوليته التاريخية. ولم يحالف الصواب المؤرخ الأرمني المحدث الأب ميشال تشاميتشيان Michel Tchamitchian حين افترض أن متي الرهاوي لقي حتفه أثناء استيلاء عماد الدين زنكي علي الرها سنة ١١٤٤م وكان طاعنا في السن آنذاك. ففي هذا القول مخالفة واضحة.

ومن المعتقد أن متي الرهاوي أمضي الجزء الأكبر من حياته في مدينة الرها ، حيث أكد أنه في تلك المدينة جمع وكتب مادة حوليته التي تناولت تاريخ عديد من الأمم والملوك والبطاركة والأمراء ؛ وذكر أنه أمضى خمسة عشر عاماً من الأبحاث المتواصلة وتمحيص كافة المصادر التاريخية وروايات شهود العيان حتي يخرج إلي النور القسمين الأول والثانى من حوليته التاريخية.

كذلك نستخلص من الفصل الأخير من مصنفة أنه -قبيل وفاته- ترك الرها إلي كيسوم K'ecoun الواقعة شمال كوماجين Commagene ، والخاصة آنذاك هي ومرعش للأمير الصليبي بدوان دوماريه Baudouin De Mares. وذكر أيضا أنه شهد حصار أمير قبادوقيا غازي الداتشمندي لكبسوم وذلك سنة ١١٣٦م. وعند حديثه عن بدوان دو ماريه لقبه بـ «كونتنا » Notre Conte ليخبرنا أنه من رعاياه، إذ كان بدوان دو ماريه آنذاك سيد مرعش وكيسوم.

أما الرُها ، موطن رأسه ورئيس ديرها ، فكانت مركز إشعاع لعلم التاريخ. فتلك المدينة العتيقة في بلاد ما بين النهرين Mesopotamie تمتعت بموقع استراتيجى هام، لوقوعها وسط كبري الامبراطوريات المزدهرة في غربى آسيا ؛ إذ تقع علي حدود العالمين البيزنطي والإسلامى. ففي شرقها بلاد فارس، وفي شمالها أرمينية الصغري، وفى جنوبها الخلافة العباسية، وفي غربها بلاد الشام وفلسطين والأراضى الشاسعة

الخاضعة للسيادة البيزنطية. كذلك شهدت مدينة الرُهَا العديد من الانتفاضات التي اندلعت حولها، وشهدت أيضا حركات قمعها.

كذلك كانت الرُهَا مركزاً أدبياً وحضارياً رفيع المستوى. ففي عهد مبكر من تاريخها، أصبحت موطناً نشطاً للدراسات السريانية واليونانية والأرمنية. وحظيت بمديح «هيرودوت الأرمن» موييس الخوريني Moyse De Khoren إذ أشار في مصدره «تاريخ أرمينية» إلي أهمية أرشيفاتها التي حُفِظَ فيها تاريخ ملوك أسرة أرشاغونيك Arsacides الأرمنية. أما في ظل السيادة الرومانية، فقد شهدت الرُهَا عملية إعادة تجديد وتعمير وتجميل لم تشهدها من قبل. وأقام الرومان بها مدرستين: الأولى لتعليم اللغة السريانية؛ والثانية لتعليم الأدب اليوناني. كذلك جعلوها مركزاً لتجميع الوثائق التي أمكنهم العثور عليها؛ وبذلك شهدت نهضة ثقافية هائلة. إلا أن التقلبات السياسية أثرت علي نهضتها تأثيراً بالغاً. ففي أوائل القرن الثاني عشر الميلادي -أي في عهد متي الرُهَاوي- كانت النهضة الأدبية التي شهدتها الرُهَا تمر بمرحلة ضعف.

أما عن مصادر متي الرُهَاوي التي استقى منها مادة حوليته، فقد أشار مرات عديدة إلي تسجيل بعض الروايات الشفوية الموثوق فيها؛ وأشار أيضا إلي استخدامه مصنفات المؤرخين القدامى دون ذكر عناوين تلك المصادر أو حتي أسماء مؤلفيها. وبالتالي يصعب علينا تحديد المصادر التي استقى منها مادته التاريخية، ويدفعنا ذلك إلي محاولة عقد دراسة مقارنة حتي نستخلص عن من نقل.

هذا عن المؤرخين القدامى؛ أما المؤرخين المتأخرين، فبدراسة تحليلية نقدية مقارنة نستخلص أن المؤرخ الأرمني «سمباد» Smbat، الذي عاش في القرن الرابع عشر الميلادي، لخص في القسم الأول من مصنفه المعنون «حولية ملوك أرمينية الصغري» Chroniqe Du Royaume De La Petite Armeme لخص حولية متي الرُهَاوى دون الاشارة إليه. مما يؤكد أن مصدره موضع ثقة سمباد.

ولقد استخدم متي الرُهَاوي النظام الحولي في تسجيل الأحداث التاريخية، كحال ابن الأثير وغيره من المصادر الإسلامية، مما يؤكد تأثره بالكتابة التاريخية عند المسلمين. وذكر صراحة أنه استخلص روايته من أفواه الرواة الطاعنين في السن؛ وأوضح أيضا استعانته بالمصادر السابقة دون الإشارة إليها أو إلي أسماء مؤلفيها. ونستخلص من الدراسة المقارنة أن متي الرُهَاوي لم يستفد من المصادر التاريخية الأرمنية المعاصرة له كمصنف جون كاثوليكوس Jean Catholicos ومصنف إتيين أسوليك الطاروني Etienne Acogh'ig. كذلك لم يستفد ولم ينقل متي الرُهَاوي عن المصادر البيزنطية المعاصرة له. فروايته مختلفة تماما عن رواية ليون الشماسى Leon Diacre ومتباعدة تماماً عن روايات سكيلتزز Scylitzes وسدرينوس Cedrenus وزونوراس Zonoras وآن كومنين Anne Comnene .

أما عن أسلوبه ، فيتسم بأنه مجرد من أية سمة أدبية ؛ ويتسم أيضا بالضعف والركاكة، بل يميل إلي العامية الدارجة آنذاك. ولا وجه للمقارنة بين أسلوبه وأسلوب كل من «موسى الخوريني» الملقب بـ «هيرودوت الأرمن» ، وجون كاثوليكوس ، واتيين أسوليك الطاروني. فمتي الرُهَاوي ينتمي إلي عصر انحطاط الآداب، لذا كتب بأسلوب عصره المتدني.

ويتسم متي الرُهَاوى بالسذاجة أيضا، فهو يصدق كافة الروايات التي يسمعها لكونه راهباً أرمنياً فقيراً عاش في القرن الثانى عشر الميلادى ؛ وتميز كذلك بضيق الأفق، رغم أنه أمضى حياته في مدينة الرُهَا المتفتحة علي كافة التيارات السياسية والأدبية.

ومتي الرُهَاوي أرمني ليس فقط في لغته بل في فكره أيضا. فهو كمعظم رفاقه من المؤرخين الأرمن، يعارض مقررات مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١م، وبالتالى يعادي مذهبيا البيزنطيين المخالفين له في المذهب. كذلك كان يكره ويحقد علي الأتراك السلاجقة المخالفين له في العقيدة، كحال أريستاكيس دو لستيفرت Aristakes De Lastivert وكافة المؤرخين الأرمن. ولم يفلت من حقده الصليبيون الذين كانوا

يسـيطرون علي جزء من الأراضى التي كـان يقطنهـا الأرمن، ولم يتـورع عن فـضح الأعمـال الإجرامية التي أقدموا عليها ؛ إذ ذكر أنهم قـاموا بأعـمال السلب والنهب والتدمير، بل وألقوا القبض علي عديد من قـادة الأرمن، وانقـضوا علي المقاطعات الأرمنية وعاملوا سكانها أسوأ معاملة، فكانوا علي شاكلة الغزاة الأجانب علي حد قوله.

كان متي الرُهَاوي شاهد عيان لأعمال الصليبيين الإجرامية المتسمة بسفك دماء الأبرياء، وعاني الأرمن الأمرين من جراء تلك السياسة الصليبية التعسفية. سرد كل تلك الأحداث بمرارة بالغة وحزن عميق.

ويؤخذ علي متي الرُهَاوي المبالغة في وصف دور أطفال الأرمن في الدفاع عن وطنهم أرمينية، إذ روى قصة مقتل طفل أرمنى يبلغ الخامسة عشر، كان قد هرب من منزل أسرته وذهب لقتال الأتراك السلاجقة، فلقي حتفه وكذا والده الطاعن في السن. ويسرد رواية ثانية مفادها أن القس كريستوف Christophe قتل هو أيضا علي يد الأتراك السلاجقة دفاعاً عن وطنه أرمينية. كل تلك الروايات تؤكد حب متي الرُهَاوي البالغ لوطنه.

كذلك يؤخذ عليه جنوحه إلي المبالغة في كثير من المواضع أثناء سرده للأحداث؛ كذلك كثرة التكرار الذي يبعث علي الملل، فلا همّ له إلا ذكر نفس صور العذاب والأسى التي عاني منها الأرمن ؛ بينما يجنح كثيراً ما إلي الاختصار في سرد أحداث بالغة الأهمية، والإسهاب في أحداث أخري ضئيلة الأهمية إلا أن لها علاقة بميوله القومية أو الدينية.

هذه لمحة سريعة عن المؤرخ الأرمني متي الرُهَاوي وحوليته التاريخية، لكن الذي يهمنا هو ما كتبه عن الحملة الصليبية الأولى، وما به من جديد يختلف عن كافة المصادر الأخري من صليبية ، وإسلامية، وبيزنطية، وسريانية وأرمنية.

ففى القسم الثانى من مصدره، زودنا بخبر جديد إنفرد بتسجيله دون غيره من المصادر عامة. فتمت أحداث سنة ٥٢٣م من التأريخ الأرمني -أي في سنة ١٠٧٤م- ذكر أن الأسقف الأرمني جريجوار Gregoire إرتحل إلي القسطنطينية، ومنها توجه إلي روما، حيث التقى البابا جريجوار السابع (١٠٧٣-١٠٨٥م) Gregoire VII ، آملا في الحصول علي مساعدة ومساندة الغرب الأوروبي للاستقلال التام عن البيزنطيين والأتراك السلاجقة. وأورد متي أن الأسقف الأرمني لم يكتف بذلك، بل رحل من روما إلي القاهرة لزيارة أديرة الروم الأرثوذكس، واستقبل أثناء تلك الزيارة من قبل الخليفة الفاطمي المستنصر بالله (٤٢٧-٤٨٧ هـ/١٠٣٦-١٠٩٤م) إستقبالاً حافلاً، فاق استقبال الامبراطور البيزنطي له. وفي مصر، التقى بجموع غفيرة من الأرمن الذي بلغ عددهم آنذاك ثلاثين ألفاً علي حد قوله.

هكذا انفرد متي الرهاوي بتسجيل الدور الخبيث الذي قام به أحد الأساقفة الأرمن في إثارة الغرب الأوربي للقيام بحرب صليبية، هادفاً من ذلك رفع راية الاستقلال الأرمنية بعيداً عن سيادة كل من البيزنطيين والأتراك السلاجقة. وتحقيقاً لتلك الغاية، سار الأرمن علي مبدأ «عدو عدوي صديقي». لذا كان الهدف الأساسي من تلك الرحلة السياسية، أن ينجح الأسقف الأرمني في إثارة أعداء الأتراك السلاجقة ألا وهم الامبراطور البيزنطي، وبابا روما الزعيم الروحي للغرب الأوربي، والخليفة الفاطمى - الذي أكثر من الأرمن في مصر- ألد أعداء كل من الأتراك السلاجقة والخلافة العباسية السنية آنذاك.

كذلك خصص متي الرهاوي الفصل مائة وخمسين من القسم الثانى من حوليته للحديث عن انطلاق الصليبيين في حملتهم الأولى لاحتلال المشرق الإسلامي؛ إذ ذكر أن جموعاً حاشدة انطلقت من ايطاليا وأسبانيا وفرنسا، بل أيضا من أقاصى افريقية علي حد قوله، علما بأن كافة المصادر لم تشر إلي مشاركة الأفارقة في الحروب الصليبية. وربما يقصد من أقاصى افريقية آنذاك مشاركة النوبة وأثيوبيا. وهذه اشارة غريبة بحق إنفرد بذكرها.

بعد ذلك أخذ متي الرُهَاوى في ذكر سرعة انطلاق تلك الجموع مشبها إياها بالجراد، وأورد أنه من الصعب علي أحد حصر أعداد الصليبيين مكتفيا بالقول بأنهم كانوا كحبات رمال البحار التي يستحيل إحصائها. إنطلق هؤلاء جميعاً إلي الشرق بعد استكمال كافة استعداداتهم، وكان علي رأس كل مجموعة أعظم القادة الفرنسيين . وذكر أن سبب هذه الحروب هي كسر الأصفاد المكبل بها أيادي المسيحيين، وتحرير بيت المقدس من السيادة الإسلامية، وتخليص الضريح المقدس من قبضة المسلمين كما يدعي. وأخذ في مدح قادة الجيوش الصليبية قائلا إنهم ينتمون إلي عائلات ملكية نبيلة الأصل، ويتسمون بالتدين والرحمة ، وأنهم نشأوا علي ممارسة أعمال البر.

عقب ذلك المديح البعيد عن الحقيقة والواقع، ذكر متي الرُهَاوي أن أول هؤلاء القادة الصليبيين كان جودفروا (Goutoph're) Godefroy الذي نعته بالمقدام، وقال إنه سليل أسرة الرومان، وكان بصحبته بدوان (Bagh'Din) Baudouin ، والكونت العظيم بوهيمند(Bemount) Boemond وابن اخته تنكريد(Dankri) Tancrede . وقد انضم إلي هؤلاء القادة العظام الكونت سان جيل (Zenjil) Saint-Giles الذي كان يتمتع بإجلال واحترام ويُخْشَى بأسه، وروبير (Rouberth) Robert كونت نورمنديا Normandie وشخص آخر يدعي بدوان دو بورج Baudouin De Bourg ، وأخيراً الكونت جوسلين (Djoslin) Joselin المشهود له بالشجاعة والجسارة. تقدم هؤلاء البواسل علي رأس كتائبهم حاملين أسلحتهم التي لا حصر لها، وكانوا كالنجوم المشرقة في القبة السماوية الزرقاء علي حد وصفه. وجاء في أعقابهم أعداد كبيرة من الأساقفة والقساوسة والشمامسة.

ولقد اكتفى متي الرُهَاوي بذكر أن الصليبيين عانوا الأمرين من مشقة الطريق أثناء اجتيازهم المقاطعات الشرقية للامبراطورية الرومانية أي البيزنطية. فبعد عناء بالغ لم يصادفوه من قبل، تمكنوا من اجتياز بلاد المجر (Ounkr) Hongrois ، بعد أن نجحوا في اختراق الممرات الجبلية التي تتسم بشدة الضيق وصعوبة الاجتياز. ثم

واصلت الجيوش الصليبية زحفها إلي أن وصلت إلي بلاد البلغار التي كانت آنذاك خاضعة لسيادة الامبراطور البيزنطي الكسيس كومنين (١٠٨١-١١١٨م)Alexis Comnene. وهكذا واصلوا سيرهم إلي أن بلغوا المدينة العظيمة القسطنطينية . Constantinople

والجدير بالتسجيل في هذا الصدد أن المصادر الصليبية عامة تتبعت خطي الجيوش الصليبية تتبعا دقيقا من موضع إلي آخر، بل وتتبعت خطي كل قائد علي انفراد. وحرصت علي إبراز العلاقة بين الجيوش الصليبية وسكان البلاد التي اجتازوا أراضيهم. وكذا سلطت الأضواء علي العلاقات الصليبية البيزنطية. هذا بينما جنح متي الرهاوي إلي الإيجاز الشديد، حتي أنه أهمل تماما تتبع المقدمات التمهيدية لانطلاق الحملة الصليبية الأولى، ودور البابا أوربان الثانى (١٠٨٨-١٠٩٩م) Urbain II في اشعال نيرانها، وما دار في مؤتمر كليرمون Clermont . وأغفل أيضا ذكر الحملات الشعبية ؛ بل ونقلنا فجأة من بلاد المجر، إلي بلاد البلغار، إلي القسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطية. فجنح بذلك إلي اختصار الأحداث إختصاراً شديداً.

ومع ذلك ، فالجديد الذي سجله متي الرهاوي هو قوله إن الامبراطور البيزنطي الكسيس كومنين، عندما علم بزحف الجيوش الصليبية في اتجاه عاصمته، أسرع بإرسال قوات بيزنطية لقتالهم. فدارت معارك ضارية بين البيزنطيين والصليبيين راح ضحيتها جموع غفيرة من كلا الطرفين المتقاتلين. وكان من أكثر الأيام دموية. كذلك فإن شعوب البلدان التي اجتاز الصليبيون أراضيهم، ناصبوا الصليبيين العداء وبالغوا في مضايقتهم وآذاهم. بعد ذلك ذكر أنه عندما علم الكسيس كومنين بخبر تلك الهزيمة التى لحقت بالجيش البيزنطي، كف الامبراطور البيزنطي عن شهر سلاحه في وجه الصليبيين، وامتنع عن مواجهتهم. وبوصول الجيوش الصليبية إلي أبواب القسطنطينية، استراحوا قليلا، وبعدها طلبوا السماح لهم بعبور المحيط -أي مياه بحر مرمرة- كذلك قام الكسيس بإبرام اتفاقية سلام وتحالف مع زعماء قادة الجيوش

الصليبية تحقيقا لتلك الغاية ، قام الكسيس بإبرام إتفاقية سلام وتحالف مع القادة الصليبيين، فاقتادهم إلي كنيسة أياصوفيا Sainte - Sophie ، وأنعم عليهم بهدايا ومبالغ طائلة من الذهب والفضة. واتفق معهم أن كل المقاطعات التي كانت خاضعة من قبل للإمبراطورية البيزنطية، والتي سيتمكن الصليبيون من استعادتها من الفرس (أي الأتراك السلاجقة)، سيتعهدون بإعادتها إلي الامبراطور الكسيس كومنين ؛ وأن الغزوات التي ستشن علي الأراضي الخاضعة لسيادة الأتراك السلاجقة أو المسلمين عامة تبقى في حوزة الصليبيين. وتمت الموافقة علي الاتفاق بحلف يمين تُلىَ علي الصليب والإنجيل، وتعهد الجميع بأن الاتفاق غير قابل للانتهاك إلي الأبد. عقب ذلك، زودهم الامبراطور بدعم عسكري يتمثل في كتائب من الجيش البيزنطي وقادة عسكريين. واجتاز الجميع بحر مرمرة علي متن إحدي السفن، ووصلوا إلي نيقية Necee.

وفي غضون ذلك، قام الأتراك السلاجقة بحشد جيوشهم، وانطلقوا لمهاجمة الصليبيين في معسكرهم الذين كانوا قد سبق لهم إقامته في ذلك الموضع. وانتهت المواجهة العسكرية بتمكن الصليبيين من الانتصار علي السلاجقة وإجبارهم علي الفرار؛ وتشجع الصليبيون وانطلقوا في مطاردتهم شاهرين سيوفهم ونتج عن ذلك إقامة مذبحة للأتراك السلاجقة. عقب ذلك، واصل الصليبيون حصار عاصمة السلاجقة نيقية، ونجحوا في اسقاطها وبسط سيادتهم عليها، بعد أن ذبحوا سكانها.

بعد هذا الانكسار والهزيمة، أسرع السلاجقة إلي سلطانهم قليج أرسلان - Kilidj Arslan ليخبروه بما حدث وقصوا عليه أخبار هزيمتهم. وكان قلج أرسلان آنذاك مشغولاً بحصار ملطية Melitene . فما كان منه إلا أن أسرع بحشد جيشٍ لا حصر له، وانطلق لقتال الصليبيين المحاصرين لعاصمته نيقية. ودار قتال ضارٍ بين المتنازعين، وانقض الجيشان كلٍ علي الآخر، فكان كاصطدام الحيوانات المفترسة علي حد قوله. وانطلقت الأضواء الساطعة بفعل الشمس الساطعة علي خوذ المقاتلين،

ودوت أصوات فرقعة الدروع المتحطمة واهتزاز الأقواس. وفي معمعة المعركة، أعاد السلاجقة رص صفوفهم وتضييقها مدفوعين بحمية وحماس لإحراز نصر علي الأعداء. وانطلقت الصيحات المدوية التي زلزلت أرض المعركة، والصفير الناتج عن سرعة انطلاق السهام أفزع الخيول. وكان أكثر المقاتلين شجاعة يتواجهون وجها لوجه وجسداً لجسد مشابهين في اقتتالهم هذا أشبال الأسود، وهمهم الأوحد تبادل الضربات والسعي حثيثاً للإكثار منها. وكان اليوم الأول للمعركة يوماً مهيباً ومشهوداً، لأن السلطان السلجوقى كان قد ترأس جيشاً قوامه ستمائه ألف مقاتل علي حد زعم متي الرهاوي. ومع ذلك، فقد تمكن الصليبيون من احراز النصر، واكراه السلاجقة علي الفرار، بعد أن قضوا بلا رحمة علي كل من لم ينجح في ذلك. وهكذا افترش السهل بجثث القتلي، وحظي الصليبيون المنتصرون بغنائم طائلة، بينما سقط الآلاف في الأسر. أما الأسلاب الذهبية والفضية، فقد تخطت قيمتها كافة التقديرات والاحتمالات.

وفي خلال ثلاثة أيام، أعاد السلطان السلجوقي تعبئة قوات هائلة، وعاود الهجوم. وهكذا اندلعت معركة حربية ثانية بين الأتراك والصليبيين، أكثر شراسة من المواجهة الأولى. وللمرة الثانية، تمكن الصليبيون من قهر الأتراك، وقطعوهم إرباً دون العفو عن أحد. وأسروا أيضا عدد لا يحصي، وقاموا بطرد الباقي من ربوع البلاد. عقب ذلك، قام الصليبيون بتسليم مدينة نيقية إلي الامبراطور البيزنطي الكسيس كومنين.

وفي الفصل مائة وواحد وخمسين، وتحت أحداث عام ٥٤٦ من التأريخ الأرمنى - أى في الفترة من ٢٥ فبراير ١٠٩٧ حتي ٢٤ فبراير ١٠٩٨م - وفي عهد البطريركين الأرمنيين فهرام Vahram وباسيل Basile ، وفي عهد الامبراطور البيزنطي الكسيس كومنين، واصل الجيش الصليبي الذي بلغ تعداده حوالى نصف مليون مقاتل -علي حد زعم متي الرهاوي- واصل زحفه في آسيا الصغري. وقام الصليبيون بإرسال خطاب يفيد انطلاقهم هذا إلي كل من الأمير الأرمنى ثوروس Thoros أمير الرها Edesse،

وقسطنطين (١٠٩٥-١٠٩٩م) Constantin بن روبين R'oupen الباسط سيادته علي جوديبار Godibar ، إحدي قلاع سلسلة جبال طوروس Taurus في شمال قيليقيا، والواقعة في مقاطعة مارابا Maraba في أرمينية الثالثة. وكان قسطنطين هذا قد تمكن من بسط سيادته علي عدد كبير من المواضع، وكان من قبل جنديا في صفوف الملك الأرمني كاكيج Kakig . وبذلك انفرد متي الرُهَاوي بذكر علاقة الصليبيين بالأمراء الأرمن الباسطين سيادتهم علي مواضع عديدة في جبال طوروس وعلي الرُهَا، واضعين في الاعتبار ما سيقدمه الأرمن إليهم من مساعدات وإرشادات لاجتياز جبال طوروس الوعرة، إضافة إلي مناصرتهم في حربهم المرتقبة ضد السلاجقة، مما يدل علي بعد النظر. ومع ذلك، يؤخذ علي متي الرُهَاوي عدم تتبع خطي الصليبيين وانتقالهم من موضع إلي آخر مجتازين آسيا الصغري من الشمال إلي الجنوب الشرقي، وما واجهوه من صعاب ومواجهات مع السلاجقة والدانشمنديين والتركمان والمسلمين عامة المتواجدين في كل موضع حلّوا به. إلا أن المصادر الصليبية غطت هذا القصور. ومع ذلك، فقد اختصر متي الرُهَاوي الأحداث بقوله إن الصليبيين إجتازوا بثينيا Bithynie وقبادوقيا Cappadoce ، وسار الجيش في فرق متماسكة ومضغوطة، وانتشر من بعيد. وواصل سيره حتي بلغ المنحدرات الوعرة في سلسلة جبال طوروس والتي ستؤدي بالصليبيين إلي قيليقيا، حيث سيصلون إلي طروادة الجديدة Troie أي عين زربة Anazarbe ، ومنها تمكنوا من الوصول إلي أنطاكية.

وفي أنطاكية، أقام الصليبيون معسكرهم تحت أسوار هذه المدينة، وغطت كتائبهم العسكرية ساحة الوادي الشاسع الذي تسيطر عليه المدينة. وتحسن القائد التركي باغي سيان Agh'Sian علي رأس الحامية داخل أسوار المدينة. ومع ذلك، فقد تمكن الصليبيون من فرض حصار علي المدينة إستمر ستة أشهر واجهوا خلاله هجمات شرسة. وعندما علم مسلمو البلدان المجاورة بأنباء هذا الحصار، عبأوا أعداداً لاحصر لها من المقاتلين لمواجهة الصليبيين. إلا أنهم رُدُّوا علي أعقابهم. ورغم هذا الاخفاق، أعاد المسلمون تجميع قواتهم ثانية من كل فج وصوب ؛ من سكان دمشق، من أفارقة

الشواطئ، من بيت المقدس، ومن كل الشعوب المتاخمة لمصر، من حلب ، من حمص، ومن قاطني نهر الفرات العظيم. كل هؤلاء إجتمعوا في جيش واحد وزحفوا لقتال الصليبيين. وعندما علم الصليبيون باقترابهم، حملوا السلاح وأسرعوا لقتالهم. وشهدت أنطاكية مواجهة دموية مفزعة بين الصليبيين والمسلمين. فبوهيمند وريمون دوسان جيل انطلقا علي رأس عشرة آلاف مقاتل صليبي لقتال مائة ألف مقاتل مسلم -علي حد زعم متي الرُهَاوي- وانتهت المعركة بانتصار الجيش الصليبي، والحاق الهزيمة الساحقة بالتحالف الاسلامي، وإكراه المشاركين فيه علي الافلات بحياتهم بعد أن أقاموا للمسلمين مذبحة بشعة...

بعد تلك الهزيمة الثانية التي لحقت بالمسلمين، إتفق كل من سقمان بن أرتق وأمير دمشق، وهما من أشهر أمراء المسلمين آنذاك، إتفقا علي تعبئة وحشد الكتائب التركية في الموصل وبلاد الجزيرة الفراتية، ونجح المسلمون في حشد ثلاثين ألف مقاتل ليقارعوا الصليبيين. حينئذ، انطلق جودفروا Godefroy علي رأس سبعة آلاف مقاتل لخوض غمار معركة فاصلة معهم. وبالفعل تقاتل الطرفان عند حدود مدينة حلب. فانقض طغنكين (Toghtekin (Dough'Diguin أمير دمشق علي جودفروا، فأطاره من فوق ظهر جواده ؛ إلا أن درع جودفروا كان خير حامٍ له، إذ صدّ كل الضربات التي أكالها له طغنكين، فأفلت بذلك من موت محقق. هذا بينما تمكن الصليبيون من الحاق الهزيمة بالمسلمين وللمرة الثالثة، وحرصوا علي مطاردتهم وقتل من أفلت من الفرار. وبعد هذا النصر المدوي، عاد الصليبيون إلي معسكرهم.

علي أية حال،كان متي الرُهَاوي المؤرخ الوحيد الذي فصل الحديث عن اندلاع ثلاث مواجهات صليبية إسلامية، كما أنه أظهر بوضوح بالغ التئام إتحاد إسلامي من أقاصى شواطئ الشمال الافريقي غرباً حتي نهر الفرات شرقاً، وهي معلومة لم ترد في كافة المصادر والمراجع العربية والأجنبية التي تناولت الحرب الصليبية الأولى بالبحث والدراسة. وبذلك انفرد بتسليط الأضواء علي المقاومة الإسلامية المبكرة للحروب الصليبية، مقاومة كان بإمكانها القضاء علي تلك الحرب الاستعمارية في مهدها.

ولكونه أرمني الجنسية، فقد انفرد بالحديث المفصل عن دور الأرمن في تلك الحرب، وأهمية مساندتهم للصليبيين، تلك المساندة التي كانت سبباً هاماً في انجاح الحملة الصليبية الأولي.

فبعد النصر الذي أحرزه الصليبيون علي التحالف الإسلامي، تحدث متي الرُهَاوي عن تفشى المجاعة القاسية في صفوف الجيش الصليبي، الذي كان عدده لا يحصي حسب قوله. ولم يفته الحديث عن دور زعماء الأرمن -المسيطرين آنذاك علي جبال طوروس- في مساعدة حلفائهم الصليبيين علي اجتياز هذا الخطر الجديد الذي كان أن يبيدهم عن آخرهم. فذكر أن ثلاثة من أمراء الأرمن مدوا يد العون للجيش الصليبي المشرف علي الهلاك. فقسطنطين بن روبين، وكل من الأمير بازوني Pazouni وشقيقه أوشين Oschin أسرعوا بإرسال المؤن الكافية إلي قادة الجيوش الصليبية لمواجهة المجاعة الطاحنة التي كادت تفتك بالصليبيين. كذلك أسرع الرهبان الأرمن القاطنين في الجبل الأسود Montagne - Noire بإرسال المؤن اللازمة لهم.

هكذا في ظل تلك الظروف القاسية التي باتت تهدد الحملة الصليبية الأولي بالفشل، سارع الأرمن جميعا - علي حد قول متي الرُهَاوي - بتغطية احتياجات الجيش الصليبي من مؤن وإمدادات حتي يجتاز بسلام تلك المجاعة الضارية. ورغم اجتيازه أخطارها، تفشت الأمراض الفتاكة في صفوفه، وراح ضحيتها جندي من كل سبعة جنود. أما الباقون علي قيد الحياة والمترقبون أن يحل الدور عليهم، فكانوا في حالة معنوية يرثى لها في تلك الأصقاع النائية البعيدة عن أوطانهم. ومن منطلق المصلحة أولا والوفاء ثانياً ؛ كان هَمْ الأرمن الأوحد هو رفع روح الصليبيين المعنوية ليواصلوا اجتياح المشرق الإسلامى.

والحقيقة أن الأرمن هدفوا من تلك المساعدة الفعالة للجيش الصليبي، التخلص من سيادة كل من الأتراك السلاجقة والبيزنطيين علي حد سواء كما سبق أن أشرنا، وبالتالي الفوز بالاستقلال الذاتى الذي سيتحقق -من وجهة نظرهم- بفضل مناصرة

الصليبيين لهم. إلا أنهم سيصابون بخيبة أمل كبري كما سيتضح في الصفحات التالية.

والجدير بالتسجيل أن متي الرُهَاوي إمتعض بشدة للمؤامرة التي أدت إلي قتل أمير الرُهَا الأرمني القربلاط Curopalate ثوروس Thoros ؛ فقد استهل حديثه عن ذلك بالقول إنه في عام ٥٤٧ من التأريخ الأرمني (أي من ٢٥ فبراير ١٠٩٨ حتي ٢٤ فبراير ١٠٩٩م) انطلق الكونت بدوان Baudoin شقيق جودفروا Godefroy علي رأس مائة من الفرسان وباغت مدينة تل باشر Tellbascher (Thelbaschar) واستولي عليها، ففرح ثوروس Thoros فرحاً بالغاً عندما سَمِعَ هذا الخبر. وكان ثوروس هذا حاكماً علي الرُهَا، وقد عين عليها من قبل البيزنطيين. وحينئذ راسل الكونت الفرنسي بدوان، وتوسل إليه أن يأتي لنجدته ومناصرته ضد أعدائه والأمراء المجاورين لإمارته الذين كانوا يقلقونه كثيراً بإغاراتهم المتكررة علي الرُهَا. وبالفعل لبي بدوان نداء ثوروس، وأسرع بالتوجه إلي إمارة ثوروس علي رأس ستين من فرسانه، فلقى ترحيباً بالغاً من سكان الرُهَا الذين فتحوا له أبواب مدينتهم. وأحدث تواجده فرحة عارمة غمرت قلوبهم. أما القربلاط Curopalate ثوروس ، فقد أظهر نحوه محبة بالغة، واستقبله هو أيضا بحفاوة وترحاب، وأغدق عليه الهدايا الثمينة، وتحالف معه.

وفي غضون ذلك، كان القائد الأرمني قسطنطين Constantin قد وصل من كركر (جرجر) Gargar . وبعد انقضاء بضعة أيام، كان القربلاط ثوروس قد عبأ كل الخلفاء وانطلق لحصار سَمُيساط Samosate وشن حرباً علي الأمير بلك Baldoukh. وقد انضم إلي الصليبيين كل من كتائب المدينة وكذا مشاة المقاطعة، وانطلق الجميع في اتجاه سميساط، فقاموا بسلب ونهب المنازل الواقعة خارج أسوار المدينة. وفي أول الأمر، لم يجرؤ السلاجقة علي مواجهتهم ؛ نتيجة هذا الخوف، تشجعت جميع الكتائب الصليبية علي مواصلة الغارات المكثفة، مما أثار كتيبة سلجوقية ضمت ثلاثمائة من

الفرسان، إنطلقت لقتالهم. وتمكن فرسان السلاجقة -بفضل حماسهم البالغ في الزود عن أراضيهم- من الحاق الهزيمة بالصليبيين ومن انضم إليهم من سكان البلدان المجاورة ؛ وأقام لهم السلاجقة مذبحة مفزعة امتدت من سميساط حتل تل Thil حمدون. وتواصلت المذبحة، وبقي ما يناهز الألف مقاتل في نفس الموضوع ؛ بينما عاد ثانية إلي الرها كل من قسطنطين والكونت بدوان للمثول أمام ثوروس. وقد أدرج متي الرهاوي تلك المعركة في الأسبوع الثانى من الصيام الكبير أي فى الفترة من الأحد ٢٧ فبراير حتي السبت ٤ مارس سنة ١٠٩٩م.

بعد ذلك وينتقل متي الرهاوي للحديث عن المؤامرة التي أودت بحياة ثوروس فيقول عندما عاد الكونت بدوان إلي الرها، وجد في انتظاره بعض الخونة، ووصفهم بأنهم كانوا من المستشارين الفاسدين وأنهم حاكوا مع بدوان مؤامرة لقتل ثوروس. ويعلق متي الرهاوي علي ذلك مؤكداً أن ثوروس لا يستحق علي وجه الاطلاق هذا المصير الدامي، وبرر تحيزه ذلك إلي كونه أدي خدمات عديدة وجليلة لمدينة الرها، وأوضح أنه كان له الفضل في تخلص الرها من السيادة الإسلامية مرجعاً ذلك إلي حذره ومهارته البالغة إضافة إلي شجاعته.

وفي تفصيل أحداث المؤامرة أورد أن أربعين متآمراً شاركوا في تنفيذ هذا العمل الشيطانى علي حد تعبيره، ومثلوا في المساء أمام بدوان Baudouin. وبعد أن أطلعوه علي مخططهم الإجرامي، وعدوه بتسليم الرها بعد مقتل أميرهم. فسال لعاب بدوان وانضم إلي الخونة. كذلك أيدهم في مؤامرتهم وانضم إليهم القائد الأرمني قسطنطين Constantin .

وفي الأسبوع الخامس من الصيام الكبير - أي في الفترة الممتدة من ٢٠ إلي ٢٦ مارس سنة ١٠٩٩م- اندلعت ثورة عارمة ضد ثوروس ضمت جموعاً غفيرة من الأرمن. وفي يوم الأحد التالي، قام الثوار الأرمن بنهب منازل كبار حاشية القربلاط ثوروس، ونجحوا في الاستيلاء علي أعلي القلعة. وفي اليوم التالي، اجتمع الثوار لتطويق

الجزء الداخلى من القلعة حيث كان ثوروس قد احتمي في ذلك الموضع، وأحكموا حصاره بشدة، فانتابه اليأس، وأخبر الثوار أنهم إذا تعهدوا بالحفاظ علي حياته، سيتخلي لهم عن القلعة والمدينة، وسينسحب بصحبة زوجته إلي ملطية Melitene. حينئذ قدم لهم صليب فاراك Varak ومكينيس Mak'enis ، وأقسم بدوان علي هذه الآثار المقدسة وسط كنيسة القديسين الرسل Saints - Apotres ، وتعهد بأنه سوف لا يلحق به أي أذي، وأنه سينفذ كل مطالب ثوروس الواردة في الخطاب الموجه إليه. وبعد أن تعهد الكونت بدوان بذلك، وصدق عليه بالدعاء لكل القديسين، سلمه ثوروس القلعة، فدخلها وبصحبته كبار وجهاء المدينة.

وفي يوم الثلاثاء، الموافق يوم الاحتفال بالشهداء الأربعين - الأسبوع السادس للصيام الكبير أي ٢٩ مارس سنة ١٠٩٩م - انقض سكان الرها في جموع غفيرة علي ثوروس مسلحين بالسيوف والعصي الغليظة، فألقوا به من فوق أسوار القلعة وسط ضجيج وصخب الأمواج البشرية من الرعاع الثائرة. انقض الغاضبون جميعا عليه، وبعد أن أذاقوه أبشع ألوان العذاب، وأمطروه بوابل من ضربات سيوفهم، فاضت روحه. فكانت جريمة بشعة لا تغتفر علي حد قول متي الرهاوي المتعاطف مع الأمير الأرمني ثوروس. بعد ذلك، قام الثوار بتقييد قدميه بالحبال، وسحلوه بطريقة مشينة عبر الميادين العامة بعد نكثهم باليمن الذى أدوه. وعلي الفور، أصبح بدوان مالكا للرها.

بعد ذلك ينتقل متي الرهاوي للحديث عن كربغا Kerboga (Gourabag'ad) ومحاولته مجابهة الزحف الصليبي فيذكر أنه في نفس هذا العام -أى عام ١٠٩٩م- عبأ كربغا - قائد فرسان بركياروق Barkiarok - جيشا ضخما لمجابهة الجيش الصليبي، فأقام معسكره علي أبواب الرها، وظل هناك بصحبة قواته حتي مجئ وقت الحصاد. وكان شغله الشاغل آنذاك تخريب الحقول وشن الهجمات علي الرها لاستعادتها من الصليبيين. وقد التفت حوله كتائب لا تعد ولا تحصي. وبعد مضى أربعين يوما، مثل ابن ياغي سيان أمير أنطاكية أمام كربغا، وارتمي تحت قدميه

مستجديا نجدته، وأخبره أن الجيش الصليبي قد انتابه الضعف البالغ وقل تعداده كثيرا ، وأن المجاعة قد فتكت به، وأنه يعاني منها معاناة بالغة.

ويسجل متي الرهاوي أخبار الوحدة الاسلامية الشاملة في مواجهة خطر المستعمر الصليبي. فتحت أحداث نفس العام السابق، يسطر أخبار التعبئة العامة في ربوع العالم الإسلامي آنذاك قائلا إن خراسان انتفضت من أقصاها إلي أقصاها شاهرة السلاح. وامتدت تلك الانتفاضة من الشرق إلي الغرب ؛ من مصر حتي بلاد العراق والجزيرة الفراتية، بما في ذلك الدولة البيزنطية والشرق، ودمشق وبلدان الساحل، من فلسطين حتي الصحراء. ويبالغ في الأرقام فيقول إنه تم تعبئة ثمانمائة ألف من الفرسان وثلاثمائة ألف من المشاة. زحف الجميع في صفوف متراصة، فغطوا بذلك مساحات شاسعة من الوديان والجبال. وانطلق هؤلاء بغطرسة بالغة لقتال الجيش الصليبي عند أبواب انطاكية، فانتاب الفزع قلوب المقاتلين الصليبيين.

وينحاز متي الرهاوي إلي جانب الغزاة الصليبيين حين يقول إن الله حرص علي حمايتهم وجنبهم الهلاك تماما كما حدث من قبل لبني اسماعيل. ثم يسرد خبر الخيانة التي أدت إلي الغزو الصليبي لأنطاكية إذ يذكر أنه بينما كان المسلمون علي مسافة بعيدة من الجيوش الصليبية ، أوفد أحد وجهاء المدينة رسوله إلي بوهيمند وبقية قادة الجيوش الصليبية ليخبرهم أنه سيسلمهم أنطاكية، بشرط الحفاظ علي أملاك آبائه. وتعهدوا واقسموا علي ذلك. وبالفعل، خلال الليل، سلم المدينة سراً إلي بوهيمند ؛ إذ فتح لهم القلعة عن طريق الباب المطل علي الأسوار، وأدخل الصليبيين انطاكية. وعند بزوغ الفجر ، انطلقت الأبواق مدوية، فاحتشد المسلمون، لكنهم لم يتمكنوا من الفرار، لأن الخوف قد شل حركتهم. حينئذ، انقض الصليبيون عليهم شاهرين سيوفهم، فأقاموا لهم مذبحة مفزعة. أما الأمير ياغي سيان، فقد غادر أنطاكية ولاذ بالفرار، وانتهي أمره بأن قتله بعض الفلاحين إذ اجتزوا رأسه بمنجل. هكذا تم الاستيلاء علي تلك المدينة التي انتزعت من قبل من الأرمن. أما بقية رجال الحامية ، فقد انسحبوا إلي القلعة وتحصنوا بها.

وبعد مضي ثلاثة أيام، اقترب الجيش السلجوقي -وكان عدده يفوق عدد الجيش الصليبي بسبعة أضعاف - وفرض حصاراً علي الصليبيين وضيق عليهم حتي دب القلق في صفوفه. ونتج عن ذلك أن أصبح الصليبيون فريسة للمجاعة ثانية، فعانوا الأمرين ذلك لأن المؤن كان قد سبق أن نفدت من أنطاكية، وكان كل يوم يمر عليهم تزداد فيه حالة المعسكر الصليبي سوءاً ويتطرق اليأس إلي قلوب الجند. وينفرد متي الرهاوي بذكر أنه نتيجة تلك الضائقة، قرر الصليبيون أن يطلبوا من كريغا Kerboga أن يقسم ويتعهد بالحفاظ علي أرواحهم مقابل تنازلهم عن أنطاكية والجلاء عنها والعودة ثانية إلي أوطانهم. إلا أن الله - حسب ادعاء متي الرهاوي- أدرك ما وصلوا إليه من بؤس وتعاسة، فأنعم عليهم برحمته.

ثم يتحدث متي الرهاوي بعد ذلك عن بدعة «الحربة المقدسة» فيدعي ظهور رؤية إلهية للصليبيين أثناء الليل، إذ ظهر القديس بطرس لأحد الصليبيين وقال له : «في الكنيسة، علي اليسار، ستجد الحربة التي طعن بها المسيح في جنبه، ستعثر عليها أمام الهيكل. تسلح بهذه الحربة المقدسة واذهب للقتال ؛ ستنتصر علي الأعداء كما انتصر المسيح علي الشيطان».

وتجددت تلك الرؤية لنفس الشخص للمرة الثانية والثالثة. فسرد قصة الحربة المقدسة لكل من جودفروا Godefroy وبوهيمند Boemond وكذا لجميع القادة. عقب ذلك، انخرط الجميع في الصلاة، وبعدها أحدثوا فتحة في الموضع المشار إليه في الرؤية، فعثروا علي الحربة التي طعن بها المسيح، وكانت في كنيسة القديس بطرس.

وفي غضون ذلك، وصل إلي المعسكر الصليبي مبعوث من قبَل المسلمين كانت مهمته استفزاز الصليبيين للقتال، وكان هؤلاء في حالة استرخاء. فأخبره بوهيمند وبقية القادة بأن يخطر كريغا بأنهم علي استعداد لنزاله في اليوم التالي. وكان الجيش الصليبي آنذاك قد قل عدده كثيرا، فلم يضم أكثر من مائة وخمسين ألف فارس وخمسة عشر ألف من المشاة. وكان بوهيمند قد جعلهم علي أهبة الاستعداد للقتال

بعد أن نظمهم في صفوف ، فزحفوا تسبقهم حربة المسيح كأنها راية مقدسة علي حد وصف متي الرهاوي. هذا بينما كان المسلمون منتشرون في طول وادي أنطاكية وعرضه، ذلك الوادي الذي أصبح مفترشا بكامله بعمق خمسة عشر من صفوف المقاتلين المسلمين.

بعد ذلك يصف متي الرهاوي بدايات المعارك الحربية بين المعسكرين الصليبي والاسلامى فيقول إن ريمون دو سان جيل Raymond De Saint-Giles انطلق إلي الأمام رافعاً حربة المسيح في مواجهة بيارق كربغا Kerboga الذي سبق له أن عبأ كتائب لا حصر لها، تكدست كالجبل. أما الجيش الصليبي، فكان تنكريد Tancrede علي رأس جناحه الأيسر، وكان كالأسد في مظهره علي حد وصف متي الرهاوي المنحاز بقلمه إلي جانب المعسكر الصليبي. وترأس روبير Robert كونت نورماندیا Normandie الجناح الأيمن. بينما كان كل من جودفروا Godefroy وبوهيمند Boemond في الوسط في مواجهة الأتراك السلاجقة. وقبيل المعركة، استجدي الجميع بصوت عالٍ العون الإلهي، وانقضوا كالصاعقة التي تنفجر من السماء وتحرق قمم الجبال. هكذا انقضي الصليبيون معاً علي المسلمين وأجبروهم علي الفرار. وفي غضب عارم، قاموا بمطاردتهم، فقضوا عليهم طوال النهار. وكانت سيوفهم تقطر دماً، حتي أن جثثهم غطت كل الوادي. لكن شدة الغضب الإلهي – علي حسب قول متي الرهاوي – اشتدتِ علي وجه الخصوص علي المشاة، فقتل الصليبيون حرقاً ثلاثين ألف مقاتل، مما أدي إلي انتشار روائح كريهة بفعل جثث القتلي التي غطت ربوع المدينة. وبعدها تمكن الصليبيون من دخول أنطاكية فغمرت الفرحة قلوبهم، وانهمكوا في جمع الغنائم الطائلة، وأسروا جموعاً هائلة من المسلمين. فكان يوماً خالداً من وجهة نظر مؤرخنا.

بعد سرده لسقوط انطاكية في قبضة الصليبيين، يسجل متي الرهاوي حدوث كسوف للشمس تحت أحداث سنة ٥٤٨ من التأريخ الأرمني، أي فيما بين ٢٥ فبراير سنة ١٠٩٩م و٢٤ فبراير سنة ١١٠٠م. ثم يذكر أنه في نفس هذا العام، زحف

الصليبيون في اتجاه المدينة المقدسة بيت المقدس - أورشليم Jeusalem - تحقيقا لنبوءة القديس نرسيس Saint Nerses بطريرك الأرمن والذي تنبأ : «بأن الصليبيين سيستولون علي بيت المقدس ؛ إلا أن تلك المدينة المقدسة ستعود ثانية للسيادة الاسلامية كعقاب إلهي علي ما اقترفوه من ذنوب».

وما أن انطلق الصليبيون في اتجاه بيت المقدس، حتي تحركت جيوش السلاجقة لمواجهتهم. وبوصولهم أمام عرقة Araka (Arga) ، واجهوا هجوماً ضارياً من قبل الأعداء، لكنهم تمكنوا من الانتصار عليهم، واستمروا في زحفهم في هدوء حتي وصلوا إلي مدينة بيت المقدس فعسكروا خلف أسوارها حيث دارت معارك ضارية بين الطرفين. وينفرد متي الرُهَاوي - دون غيره من المصادر الصليبية- بذكر أن فهرام Vahram بطريرك الأرمن كان متواجداً آنذاك في بيت المقدس، فأراد المسلمون قتله، إلا أن الله أنقذه. ثم ينتقل إلي سرد أحداث المعارك فيقول إن الصليبيين شنوا هجمات متعاقبة علي المسلمين، ثم قاموا بتصنيع أبراج خشبية قربوها من أسوار المدينة المقدسة حتي نجحوا في تسلقها وإسقاط بيت المقدس. حينئذ استل جودفروا سيفه وانقض والصليبيون علي المسلمين، فأقاموا لهم مذبحة راح ضحيتها خمسة وستون ألفا، دون حساب الذين قتلوا في مواضع متفرقة من المدينة. هكذا اسقطت مدينة بيت المقدس، وتم تحرير الضريح المقدس من قبضة المسلمين.

بعد ذلك ينتقل متي الرُهَاوي إلي الحديث عن صدي سقوط بيت المقدس في المعسكر الاسلامي فيقول إنه في نفس هذا العام - أي عام ١٠٩٩م/٥٤٨ من التأريخ الأرمني- نودي بالجهاد المقدس وتطوع الجميع من كل ربوع العالم الاسلامي من مصر شمالا حتي بلاد النوبة جنوبا حتي بلغ تعداد المقاتلين المسلمين ثلاثمائة ألف مقاتل علي حد زعمه. تقدمت هذه الحشود المسلحة أحسن تسليح في اتجاه بيت المقدس. عندما علم الصليبيون بتلك الأنباء، ارتجفوا فزعاً، ولم ينتظروا وصول المسلمين إلي بيت المقدس بل انطلقوا لقتالهم، واضعين في الاعتبار أنهم إذا تمكنوا من تحمل

الصدمة الإسلامية، سيكون في إمكانهم فتح طريق للعودة ثانية إلي أوطانهم وإلا سيتم هلاكهم. وهكذا تواجد الجيشان المتصارعان وجها لوجه علي أهبة الاستعداد للاقتتال. وبمجرد أن رأي قائد الجيوش المصرية الصليبيين، أصدر أوامره إلي جيشه بمهاجمتهم ؛ حينئذ انطلق الصليبيون إلي الأمام، وانقضوا علي المصريين وأجبروهم علي الفرار. ولم يكن الصليبيون هم الذين يقاتلون بل الله الذي كان يناصرهم، تماما كما فعل مع فرعون مصر عند اجتياز بني اسرائيل البحرالأحمر علي حد زعم متي الرُهَاوي.

وهكذا ، تمكن الصليبيون من دفع المسلمين بشدة حتي أن مائة ألف منهم - علي حد زعمه- زج بهم في الماء، فلقوا حتفهم غرقاً. أما البقية الباقية منهم، فقد تم إبادتهم أو لحقت بهم الهزيمة. وبعد هذا الانتصار، دخل الصليبيون ثانية بيت المقدس محملين بالغنائم.

بعد ذلك ينفرد متي الرُهَاوي دون غيره من المصادر بذكر رد فعل سقوط بيت المقدس في قبضة الصليبيين علي الأرمن، فيذكر أنه في نفس هذا العام - أي عام ٥٤٨ من التأريخ الأرمني أي سنة ١٠٩٩م - قام جريجوار Gregoire - قربلاط الشرق Curopalate D'Orient وشقيق باسيل Basile بطريرك (كاثوليكوس Catholicos) الأرمن - بتعبئة كتائب من الأرمن زحف علي رأسها لقتال الأتراك المقيمين في مقاطعة أرشارونيك Aschornek . وكان هذا المقاتل الجسور -علي حد قوله- قد تمكن بصحبة مقاتليه من الوصول إلي قرية جاجزوان Gagh'zouan ، حيث ألحق هزيمة بالسلاجقة وأكرههم علي الفرار، وقتل جموعاً غفيرة منهم. بعد هذا الانتصار الذي أحرزه علي السلاجقة، فكر في استعادة آنى - عاصمة مملكة أرمينية الكبري التي فتحها السلاجقة سنة ١٠٦٤م/٤٥٦ هـ- فتوجه علي رأس جيوشه الظافرة لاستعادتها من السلاجقة لكن في طريقه إليها، تمكن أحد جنود السلاجقة كان مختبئاً في كمين أسفل شجرة ، من إطلاق سهم من مخبأه أصابه في فمه. ومن شدة انطلاق السهم، انقلب جريجوار من فوق جواده بعد أن فارق الحياة. فبكته كل الأمة الأرمنية لشجاعته وبسالته علي حد قوله.

ويعود متي الرهاوي ثانية إلي المعسكر الصليبي ويذكر أنه في نفس هذا العام - أي عام ٥٤٨ من التأريخ الأرمني والذي يقابله سنة ١٠٩٩ من التاريخ الميلادي- عاد الكونت ريمون دو سان جيل إلي فرنسا، حاملاً معه الحربة المقدسة التي كان قد عثر عليها في أنطاكية. وعرج في طريق عودته إلي القسطنطينية حيث قدم الهدايا للامبراطور البيزنطي، ثم واصل سيره إلي الغرب الأوربي.

بعد ذلك يواصل حديثه عن الأرمن فيقول إنه في نفس هذا العام، توفي الأمير الأرمني قسطنطين بن روبين Constantin R'oupen تاركا ولدين ثوروس Thoros وليون Leon . وكان قسطنطين هذا قد تمكن من بسط سيادته علي عديد من المدن والمقاطعات ؛ كذلك كان قد استولي علي الجزء الأكبر من جبال طوروس Taurus ، انتزعها من قبل من السلاجقة بقوة ساعديه. وكان قائداً في جيش كاكيج Kakig البجراطي Bagratide بين أشود (أشوط) Aschod .

ولم يخف متي الرهاوي شماتته للمجاعة التي تعرضت لها الرُها لكونه من مناصري الأمير ثوروس الذي غدر به بدوان وسكان الرها. فيسجل مجاعة اجتاحت بلاد الجزيرة الفراتية وعلي وجه الخصوص مدينة الرها Edesse. فيقول إنه طوال العام - أي عام ٥٤٨ من التأريخ الأرمني/١٠٩٩من التأريخ الميلادي- لم يشهد ريف تلك المناطق قطرة ماء. وأرجع ذلك إلي حلول لعنة الله علي مدينة الرها نتيجة للجريمة البشعة التي اقترفها سكانها في حق أميرهم ثوروس وأدت إلي مقتله رغم أنهم أقسموا علي الحفاظ علي حياته.

وتحت أحداث سنة ٥٤٩ من التأريخ الأرمني - أي من ٢٤ فبراير سنة ١١٠٠م حتي ٢٢ فبراير سنة ١١٠١م - سجل متي الرهاوي انتشاع سحابة المجاعة وعودة الرخاء ثانية إلي ربوع الجزيرة الفراتية. ولم يفته الإشارة إلي أن الرها - موطن رأسه- شهدت وفرة هائلة في محصول القمح والشعير نتيجة وفرة مياه الأمطار، وكانت من الكثرة حتي أنْسَتْ السكان القحط الذي حل بهم في العام الماضي.

وتحت أحداث العام السابق يختتم متي الرهاوي حديثه عن الحملة الصليبية الأولي بسرد أسباب وفاة جودفروا، وتتويج شقيقه بدوان Baudouin ملكا علي مملكة بيت المقدس الصليبية، فيقول كان جودفروا القائد الفرنسي قد أتي بجيوشه إلي قيسارية Cesare De Philippe الواقعة علي شاطئ البحر، فمثل أمامه الأمراء المسلمون بحجة مسالمته ؛ واحضروا إليه طعاماً ودعوه لتناوله فقبل دعوتهم دون حذر من أن يكون طعاماً ساماً. وبعد بضعة أيام، توفي هو وأربعون من الذين تناولوا معه نفس الطعام السام. ودفن ببيت المقدس، أمام الجلجثة المقدسة Saint Golgotha ، لأنه كان متواجدا في هذه المدينة لحظة أن فاضت روحه. وبوفاته، استدعي الصليبيون شقيقه بدوان Baudouin الذى كان في الرها آنذاك، وقاموا بتتويجه ملكا علي مملكة بيت المقدس الصليبية. هذا بينما رحل تنكريد إلي أنطاكية ليكون بجوار خاله بوهيمند.

ختام القول، نستخلص مما تقدم أن متي الرهاوي زودنا في حوليته بمعلومات جديدة غريبة لم ترد في كافة المصادر المعاصرة له، خاصة تلك المتعلقة بدور الأرمن في الصراع الإسلامي الصليبي. وكان من الطبيعي أن ينحاز إلي بني جنسه، كحال غالبية معاصريه من المؤرخين. ومع ذلك، فقد أغفل تتبع معظم أحداث وتفاصيل مقدمات وبدايات الحملة الصليبية الأولي؛ إذ لم يشر علي الإطلاق إلي مُشْعِل نيران الحروب الصليبية البابا أوربان الثانى (١٠٨٨-١٠٩٩م) Urbain II ، ولا إلي زعماء الحملة الشعبية وعلي وجه الخصوص بطرس الناسك Pierre L'Ermite. وأغفل تماما ذكر العلاقات البيزنطية الصليبية طوال سرده لأحداث الحملة، وتجاهل تتبع خط سير الجيوش الصليبية سواء الطريق الذي سلكته من غرب أوربا إلي أن وصلت شرقا إلي القسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطية ؛ أو خط سير تلك الجيوش أثناء اجتياحها لآسيا الصغري وبعض مواضع المشرق الاسلامي، وما صاحب ذلك من أحداث جسيمة. ومع ذلك، فإن مصدره يعد اضافة جديدة للروايات الواردة في كافة المصادر الأخري التي تناولت التأريخ للحروب الصليبية ؛ إذ يزودنا بوجهة نظر مؤرخ أرمني

معاصر لها، نجح في تسليط الأضواء علي دور الأرمن في تلك الحروب كما سبق القول. ويعد مصدره أهم المصادر الأرمنية علي الاطلاق التي تناولت بالتفصيل أحداث الحملة الصليبية الأولي. إلا أن سرده لا يرقي في تفاصيله إلي ما ورد في المصادر الصليبية ؛ ومع ذلك ، فهو يضيف بعض المعلومات الجديدة إليها، ويعبر عن وجهة نظر أحد الأطراف المشاركة في الصراع الإسلامي الصليبي ألا وهم الأرمن.

الموضوع الثالث
تسامح صلاح الدين مع الصليبيين أثناء حرب تحرير القدس

د. فايز اسكندر

لا يستطيع مؤرخ أن يمر بحادث استرداد صلاح الدين لبيت المقدس دون أن يقف وقفة قصيرة ليعقد مقارنة بين صورتين متقابلتين متعارضتين: صورة بيت المقدس عندما استولى عليه الصليبيون سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م، وصورته عندما استرده صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م، ففي الصورة الأولى نجد الصليبيين يخربون ويهدمون، ويقتلون سكان المدينة من المسلمين ويذبحونهم ذبحا، حتى ليعترف ريمون داجيل RAYMOND D'AGVILERS أحد مؤرخي الصليبيين الذي شهد الغزو الصليبي لبيت المقدس أنه وصل إلى مسجد المدينة في بحر من الدماء وصل إلى ركبتيه[1].
وفي الصورة الثانية نجد أن صلاح الدين يحمي الأرواح، ويبجل رجال الدين المسيحي، ويكرم الخفائر من النساء، ويصون المباني المقدسة، بل ويرممها ويأمر بإصلاحها، فقد كان متسامحاً كما علمه الاسلام، يحب العفو عن الخصم وهو القادر على الفتك به، ففي الصورة الأولى تتضح وحشية الغرب وقسوته وهمجيته، وفي الصورة الثانية تتجلى سماحة الشرق ونبله وكرمه. فهذا الفارق الكبير، لا يفسره إلا الاختلاف في مدى تحضر المسلمين وقادتهم من ناحية، وبين الصليبيين ونبلائهم من ناحية أخرى.

(*) شارك الباحث بهذا البحث في الندوة الدولية الأولى ليوم القدس بالكويت في الفترة من ٢ إلي ٥ أكتوبر ١٩٨٩م.

هكذا وصف المؤرخون ـ الغربيون والشرقيون على السواء ـ صلاح الدين بالاعتدال والبعد عن التطرف، وتمسكه بمبادىء الأخلاق والرحمة والتسامح. وكان من أثر تسامحه مع الصليبيين أن أمنهم على أرواحهم وأموالهم في كل المدن والحصون والقلاع التي فتحها بالأمان. من ذلك أنه عندما استسلمت قلعة طبرية لصلاح الدين وذلك في اليوم التالي لموقعة حطين، أي في يوم الأحد الخامس والعشرين من ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ، أدركت صاحبتها الأميرة اشيفا ESCHIVA زوجه ريموند الثالث، حرج مركزها، وذلك بعد أن تخلى عنها زوجها وتعذر قدوم نجدة لها، حينئذ لم يسعها إلا أن تطلب من صلاح الدين الأمن لها ولأولادها وأصحابها. فعاملها معاملة كريمة، ونفذ مطلبها. فخرجت بمالها ورجالها ونسائها وسارت إلى طرابلس بلد زوجها بعد أن سلمت الحصن بما فيه(٢).

كذلك بعد دخول صلاح الدين عكا يوم الجمعة أول أيام جمادى الأولى سنة ٥٨٣هـ، أصدر صلاح الدين الأوامر بألا يلحق الأذى البارونات، بل ينبغي أن يلقوا في أسرهم الاحترام والرعاية. ولم يلبث أن وجد الصليبيون داخل عكا في صلاح الدين قلبا رحيما كبيراً، وذلك بعد أن التمسوا الأمان منه فاستجاب لهم. فحمل الراحلون عن المدينة ما يمكنهم حمله من الأموال، وتركوا الباقي على حاله(٤). فكان لسقوط عكا أثر كبير على انحطاط الروح المعنوية للصليبيين، بينما ارتفعت معنويات المسلمين إلى أقصاها بهذا الفتح المبين.

وقبل أن يتجه صلاح الدين إلى بيت المقدس، اختار أن يستولي أولا على عسقلان، لوقوعها على طريق مصر والشام، فإذا فتحت أمنت الطريق، واتصلت القوافل(٥). إلا أن أهل عسقلان استمروا في مقاومته حتى نفذت مقاومتهم، فلم يسعهم إلا التسليم بشروط قبلها صلاح الدين وذلك في آخر جمادى الآخرة سنة ٥٨٣هـ، فخرجوا آمنين على أنفسهم ونسائهم وأموالهم

وأولادهم(٦). واقتيد أهلها من الصليبيين إلى الدلتا، حيث قضوا فصل الشتاء في الاسكندرية متمتعين بحماية صلاح الدين ورعايته، حتى رحلوا إلى غرب أوروبا في مارس من العام التالي(٧). وما برح صلاح الدين مقيما بظاهر عسقلان حتى تسلم حصون الداوية مثل غزة والنطرون وبيت جبريل(٨).

ولما فرغ صلاح الدين من فتح عسقلان وما حولها من البلاد، سار متوجها إلى بيت المقدس وكان قد تولى تنظيم الدفاع عن المدينة هرقل بطريرك القدس وباليان دي ابلين(٩) BALIAN D'LBELIN صاحب الرملة الذي كان ضمن الصليبيين الذين لجأوا إلى صور عندما استولى صلاح الدين على مدينة نابلس. بينما ذهبت زوجته وأولادها الى بيت المقدس. وكان باليان هذا يعرف كرم صلاح الدين وتسامحه، لذلك أرسل إلى صلاح الدين يطلب منه الأمان لنفسه، والاذن له بالذهاب إلى بيت المقدس لاحضار زوجته وأولاده ليحملهم إلى صور. وقد سمح بذلك بشرط ألا يكون حاملا للسلاح ولا يبقى في المدينة سوى ليلة واحدة، فأقسم باليان على ذلك. غير أن الصليبيين في بيت المقدس توسلوا إليه بالدموع وضغطوا عليه ليبقى معهم ويدافع عنهم، وأرغموه على أن يتولى القيادة، وخلصه البطريرك من قسمه. لذلك أرسل باليان يعتذر لصلاح الدين عن عجزه في تنفيذ ما أقسم عليه وما وعد به. ولقد كان صلاح الدين كريما مع اعدائه، فقد قبل عذر باليان، وأكثر من ذلك أرسل حرساً إسلامياً اصطحب زوجته وأطفالها وحاشيتها وامتعتها إلى صور بعيدا عن ساحة القتال(١٠).

وعندما وصل صلاح الدين إلى بيت المقدس وذلك يوم الأحد الخامس عشر من رجب سنة ٥٨٣هـ، وضع في اعتباره أن المدينة تحوي مقدسات المسلمين والمسيحيين سواء. لذا حرص على أن يجنبها الحصار الطويل، وأن يحافظ عليها لمكانتها المقدسة، فكان يأمل في إذعانها دون

الالتجاء إلى القتال وما يصاحب ذلك من دمار وخراب[١١]. وكان صلاح الدين قد استقبل ـ وهو إمام عسقلان ـ بعثه من أهل بيت المقدس، فعرض عليهم تسليم المدينة بنفس الشروط التي استسلمت بها بقية المدن الصليبية، الا أنهم رفضوا هذا الغرض. ولما ابتدأ القتال، شعروا أنهم أشرفوا على الهلاك، استقر رأيهم على طلب الأمان وتسليم بيت المقدس، فرفض صلاح الدين طلبهم أول الأمر، وأشار إلى أنه لا يأخذ القدس إلا كما أخذها الصليبيون من المسلمين منذ احدى وتسعين سنة، فإنهم استباحوا القتل وجزاء السيئة بمثلها[١٢]. فتوجه باليان إلى صلاح الدين والح في طلب الأمان. فلما يئس من استجابة صلاح الدين لتوسلاته، هدد بتخريب المدينة، وتقويض أركانها، وتدمير كل ما فيها من مقدسات، والقضاء على الأحياء من إنسان وحيوان[١٣].

كان على السلطان أن ينظر بعين الاعتبار إلى هذه الكارثة التي تنتظر بيت المقدس إذا أصر على موقفه، فحكم عقله، وتغلبت انسانيته السامية، وروحه العالية، وحرصه على بقاء الأماكن المقدسة التي يجلها ويحترمها المسلمون كاحترام النصارى لها. كذلك أراد أن يلقن الصليبيين درسا في مكارم الأخلاق وسماحة الاسلام، وقد اكسبته وقومه هذه السماحة وكرم الخلق في الغرب اسما عظيما لا يزال يردد في الغرب على كر الايام. لذا عدل عن رغبته في الثأر والانتقام وأجاب القوم إلى الصلح بعد مشاورة أصحابه[١٤]، واستقر الأمر بين الفريقين على الشروط التي فرضها صلاح الدين على المدينة للتسليم، وكانت في الواقع في غاية التسامح والكرم، فهو لم ينتهز الفرصة ليمثل بأعدائه انتقاما لما فعلوه سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م، بل على العكس من ذلك، أمر بعدم التعرض لهم. ووافق على ترك الصليبيين يغادرون المدينة مقابل فدية قدرها عشرة دنانير للرجل وخمسة دنانير للمرأة، ودينار واحد للطفل، وأعفى من كان عمره أقل من أربعين يوما من دفع ما

هو مفروض لاطلاق سراح الأطفال، وإذا عجز أحدهم بعد أربعين يوما عما لزمه، ضرب عليه الرق. ومن قام بالأداء، خرج من بيته آمنا، على أن يترك وراءه ما عنده من خيل وسلاح[١٥]. كذلك سمح للمسيحيين الشرقيين - من ارثوذكس ويعاقبه - بالبقاء في بيت المقدس، بشرط دفع ضريبة الرأس، هذا فضلا عن الفدية المتفق عليها. وقام بإعفاء الفقراء وغير القادرين من كل ذلك[١٦].

وقد ساوم باليان صلاح الدين في تخفيض الجزية على أساس أن أكثر الصليبيين الباقين في بيت المقدس من الفقراء، فرضي بأن يقبل من العشرين الف فقير مائة الف دينار. إلا أن باليان أدرك استحالة جمع هذا المبلغ، فتقرر اطلاق سراح سبعة آلاف فقير مقابل ثلاثين ألف دينار[١٧].

وقد أسهب المؤرخون المعاصرون في الاشادة بسماحة صلاح الدين ونبله ورحمته بالصليبيين حين استولى على بيت المقدس، وقارنوه بالصليبيين حين دخلوه يخوضون في دماء المسلمين. فقد ذكر صاحب حولية هرقل CHRONIQUE D'ERACLES وهي إحدى الحوليات اللاتينية المعاصرة للأحداث، إنه «لم تتجل عظمة صلاح الدين أبداً مثلما تجلت عند تسليم المدينة الخالدة[١٨]».

على أية حال، فإن ما اشتهر به المسلمون الظافرون من التسامح والروح الانسانية والاستقامة جعلهم يلتزمون بحسن معاملة الصليبيين، فبينما خاض الصليبيون بأقدامهم في دماء المسلمين عند الاستيلاء على بيت المقدس سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م، لم تتعرض بعد أن استردها صلاح الدين سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م دار من دورها للنهب، ولم يلحق أحد من سكانها أذى أو ضرر. فأخذت جماعات من العساكر تطوف - بناء على أوامر صلاح الدين - بالطرقات والأبواب، لمنع كل اعتداء على الصليبيين. وفي الوقت

ذاته، حرص كل صليبي على أن يدبر المال اللازم المقرر عليه لاطلاق سراحه[19].

ومما سجله التاريخ من مظاهر الكرم وسمو الخلق وعظمة النفس أن السلطان صلاح الدين سمح لهرقل بطريرك بيت المقدس بالخروج من المدينة حاملا ما استطاع حمله من الذهب والفضة، ومن خلفه العربات تحمل نفائس الكنائس وذخائرها، ولم يدفع غير عشرة دنانير، دون أن يبالي بفقراء الصليبيين الذين لم يجدوا ثمن فدائهم[20]. وهكذا لم يحفل البطريرك ورجال الكنيسة اللاتينية الا بمصالحهم الخاصة.

ولما أشار العماد إلى ما حمله البطريرك من التحف والجواهر والحلي ومصنوعات الذهب والفضة والبسط والستور الحريرية، التي نزعها من كنيسة القيامة، والتي لا ينطبق عليها الاتفاق، أراد صلاح الدين إن يلقن الصليبيين درسا في السخاء والتسامح، لم يسع صلاح الدين إلا أن يتغاضى عن ذلك بأن قال «نحن نجيبهم على ظاهر الأمان، ونغريهم بذكر محاسن الإيمان»[21]. هكذا ترفع صلاح الدين عن التعرض للبطريرك وتركه يذهب عن بيت المقدس في أمان.

وما التزمه صلاح الدين الأيوبي في الوفاء بعهده؛ من الاخلاص والعاطفة الانسانية، والمروءة والفروسية، ما أدهش المؤرخين اللاتين، إذ الزم العساكر المسلمين بألا يدخلوا المدينة إلا من باب الخليل وألا يفعلوا ذلك إلا من أجل الشراء من الصليبيين[22]. وتسامح معهم إلى أبعد الحدود، فلم يلتزم شروط الصلح بالنسبة للعاجزين وتغلبت عليه طبيعته السمحة ورحمته حين أمر باطلاق سراح كل شيخ وامرأة عجوز دون مقابل. أما اليتامى والشيوخ والأرامل، فلم يكتف بإطلاق سراحهم دون فداء، بل منحهم مساعدات مالية من ماله الخاص[23]. وتشيد المصادر بانسانيته حين

تـذكر أن بعض الصليبيـين تخلوا عن حمل أثـاثهم وأحمالهم الثمينـة، وفضلوا عليها حمل والديهم الطاعنين في السن أو مرضاهم. فتأثر صلاح الـدين بهذا المنـظر المؤلم، وصرح لعشرة من الاسبتاريـة بالبقـاء في بيت المقدس للعنـايـة بالمرضى والشيوخ الذين لم يستطيعوا اللحـاق بالـذين جلوا عن المدينـة(٢٤). وعندما التمس البطريرك منه أن يطلق سراح خمسمائة من فقـراء المسيحين، استجاب لطلبه. ووهب باليان أيضا خمسمائة أسـير. هذا في الـوقت الذي استـوهب فيه العـادل من أخيه الفـا من الأسرى الفقـراء أطلقهم تـطوعـا، واعتق صلاح الدين سبعمائة مرة وخمسمائة مرة اخرى(٢٥). وبذلك كان قادة المسلمين أكثر رأفة بالصليبيين من قادة الصليبيين أنفسهم.

ومن الدليل على مروءة صلاح الدين وفروسيته وكرمه، حسن معاملته لزوجات وبنـات كبار الأمـراء الفرسـان، وقد أشـاد بذلـك المؤرخ الصليبي أرنول ERNOUL وهو من أتباع باليـان، إذ قال أنـه اجتمع كثـير من النساء اللواتي دفعن الجزية وذهبن إلى السلطان يتوسلن قائلات إنهن إما زوجات أو أمهات أو بنات لبعض من أسر أو قتـل من الفرسـان والجنود، ولا عـائل ولا سنـد لهن الآن ولا مأوى. ورآهن يبكـين فبكى معهن تأثـراً وشفقـة. وأمـر بـالبحث عن الأسرى من رجـالهن وأطلق الـذين وجـدهم منهم وردهم إلى نسائهم. أما اللواتي مات أولياؤهن، فقد منحهن مالا كثيـراً جعلهن يلهجن بـالثنـاء عليـه أينـما سرن. ثم سمـح السلطان لهؤلاء الـذين منحهم الحيـاة والحرية، وأغدق عليهم نعمه، بأن يتوجهوا مع نسـائهم وأولادهم إلى سائـر إخوانهم اللاجئين في مدينة صور(٢٦).

كـذلك شهـد المؤرخون المعـاصرون وغـير المعـاصرين بكـرم اخـلاق صلاح الدين وسماحته، وبأنه عامل نساء الصليبيين معـاملة حميدة، وسمـح لهن بالخروج من بيت المقدس معززات مكرمات، ومعهن أمـوالهن وأتباعهن وحشمهن. وكانت الأميرة سيبـل SYBEL ملكة القـدس وزوجة الملك جي

لوسنيان الأسير، موجودة في بيت المقدس، فطلبت من صلاح الدين السماح لها بمصاحبة زوجها في الأسر في نابلس لتقيم إلى جانبه، فسمح لها بذلك، وأطلق مالها وحشمها[٢٧]. وحتى أرملة أرناط، صاحب الكرك، الذي كان سوط عذاب على المسلمين، والذي أرداه السلطان قتيلا غداة موقعة حطين، طمعت في كرمه، فتشفعت عنده في ولدها الأسير، فاشترط أن يكون جزاء ذلك تسليم حصن الكرك. غير أن الصليبيين أبوا ذلك فأبقاه في أسره، ولكنه أطلق سراحها وسراح من معها، فخرجوا بأموالهم. وأطلق سراح ابنها فيما بعد، بعد استيلاء العادل على الكرك سنة ٥٨٤هـ والشوبك سنة ٥٨٥هـ[٢٨].

وتذكر المصادر المعاصرة أن صلاح الدين عامل النساء من الفرنج معاملة لا تصدر عن أرقى حاكم على مر العصور. فقد «وزع الصدقات على اليتامى والأرامل» منهن، وتناسى السلطان النبيل في هذا الموقف العاطفي قسوة ووحشية الصليبيين في معاملة المسلمين، ودل بكرمه، وسماحة خلقه، على عظم شخصيته، وارتفاع مكانته، وذكر أنه كانت بالقدس ملكة رومية مترهبة استعاذت بالسلطان، فأعاذها وأبقى عليها مصوغات صلبانها الذهبية المجوهرة ونفائسها وكرائم خزائنها[٢٩]. كذلك سمح بخروج الملكة ماريا كومنين ـ أرملة عموري الأول وزوجة باليان ـ وسمح بحراستها من بيت المقدس حتى طرابلس. كما سمح لغيرها بالخروج من المدينة آمنين[٣٠].

ويتجلى التزام صلاح الدين بروح التسامح تجاه الصليبيين في موقفه من عملية هدم كنيسة القيامة. فقد نادى بعض المسلمين عندئذ بهدمها ومعاملة الصليبيين بمثل ما عاملوا به المسلمين عندما استولوا على بيت المقدس. لكن صلاح الدين نهرهم عن ذلك، وأمر باحترام الأماكن المقدسة المسيحية في بيت المقدس، لأنه «عندما فتح أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه القدس في صدر الاسلام، أقرهم على هذا المكان ولم يأمر بهدم البنيان». ولم

تغلق كنيسة القيامة أبوابها إلا ثلاثة أيام، وتقرر بعدها فرض رسم على من يدخلها من حجاج الصليبيين[٣١]. هكذا يتضح بجلاء أن صلاح الدين لم يكن يحارب دينا، وإنما يحارب الغزاة الأجانب كما هو حال الشعب الفلسطيني الذي يحارب الغزاة الصهاينة لاستعادة أراضيه المغتصبة وإعادة القدس عاصمة لدولة فلسطين بإذن الله عز وجل.

كذلك كفل صلاح الدين للصليبيين السلامة والمؤن أثناء اجتياز الأراضي الاسلامية. فبعد أن تسلم الفدية المتفق عليها، أخذ يعد الترتيبات لترحيلهم إلى صور وطرابلس وانطاكية. فأرسلهم مخفورين خوفا عليهم أن يتعرضوا لاعتداءات البدو في الطريق[٣٢]. على أن الخطر الذي هددهم لم يأت من جانب المسلمين وإنما أتى من جانب الصليبيين أنفسهم، إذ لم يكادوا يدخلوا حدود إمارة طرابلس الصليبية، حتى انقض عليهم بعض أمراء الصليبيين واعتدوا عليهم، عندئذ اتجه أولئك المشردون شمالا، لكن أهل طرابلس خشوا على أنفسهم وعلى مدينتهم، فاغلقوا أبوابها في وجوههم بل نهبوا ما بقي مع بعضهم من أموال[٣٣]. وهكذا لم يجد أهل بيت المقدس من اخوانهم الصليبيين جزء من المعاملة الرحيمة التي لقوها من العاهل الأيوبي.

ومما يذكر أنه عندما ضاقت صور بمن لجأ إليها من جهات أخرى، لم تقبل من القادمين سوى المحاربين، فتوجه الباقون الى البترون، فسلبهم صاحبها وأميرها امتعتهم. علاوة على ما تقدم، فقد قصد بعض الفقراء من الصليبيين اللاجئين مدينة انطاكية، فأبى أميرها الصليبي قبولهم، فهاموا على وجوههم في بلاد المسلمين دون أن يؤذيهم أحد[٣٤]. أما اللاجئون من عسقلان، فكانوا أحسن حظا، إذ توجهوا إلى مصر، وأفادوا من حماية صلاح الدين لهم، بما تلقوه من الضيافة طوال الشتاء في الاسكندرية، وبما بذله الموظفون لهم من مساعدة من حيث المؤن، وتيسير سفرهم إلى الغرب. ولما رفض رؤساء السفن الإيطالية نقلهم إلى الموانىء الغربية الا إذا دفعوا

أجـوراً باهـظة، رفضت السلطات المصرية أن تسمـح للسفن بـالاقـلاع إلا شرط أن يحملوا اللاجئين الصليبيين بدون أجر(٣٥).

ختام القول، فإنه على الرغم من أن صـلاح الدين قـد إدخر صفـات عسكرية شخصية بالغـة الأهمية، فـإن انتصاراتـه ترجـع إلى حد كبـير إلى ما اشتهر به من صفات خلقية نادرة.

الحواشي

(*) اضطر الباحث إلى اختصار صفحات البحث ليكون في حدود ٢٠ دقيقة فقط.

(١) RAYMOND D'AGUILERS, HISTORIA FRANCORUM QUI CEPERENT JERUSALEM, 20, P. 300, IN R.H.C.Occ. VOL. III, PARIS, 1844, 1895.

(٢) ESTOIRE D'ERACLES, P. 69, IN R.H.C. Occ. VOL. II, PARIS, 1844 - 1895. CF. MICHAUD, HISTOIRE DES CROISADES, PARIS, 1849, II, P. 51.

أنظر أيضا: ابن الأثير: الكامل في التاريخ ـ بيروت ١٩٦٦ ـ جـ ١١، ص ٥٣٨، أبوشامة: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ـ القاهرة ١٢٨٧ هـ جـ ٢، ص ٧٩ ـ ٨١، ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ـ تحقيق جمال الدين الشيال ـ القاهرة ١٩٥٣ ـ ١٩٥٨ ـ جـ ٢، ص، ١٩٥ ـ ١٩٦. وكذلك: سعيد عبدالفتاح عاشور: الحركة الصليبية ـ القاهرة ١٩٦٣ ـ جـ ٢، ص ٨١٢، السيد الباز العريني: الشرق الأوسط والحروب الصليبية ـ القاهرة ١٩٦٣ ـ ص ٨٤٢.

وعن هذا الحدث ورد في «حولية هرقل» المكتوبة بالفرنسية القديمة الآتي:

«LA DAME DE TABARIE MANDA A SALADIN QU'ELE FEIST RECEVIOR THABARIE, ET LI DONAST FIANCE QUE ELE PEUST ALER A TRIPLE. SALADIN LE FIST VOLENTIERS, ET MANDA TANTOST RECEVOIR THABARIE, ET FIST CONDUIRE LA DAME ET CIAUS DE THABARIE A SAUVETE.»

(٣) ابن الأثير: الكامل، جـ ١١، ص ٥٣٩.

(٤) ERNOUL, CHRONIQUE, ED. MAS - LATRIE, PARIS, 1871, P. 171, ERACLES, PP. 70 - 71.

أنظر أيضا: ابن الأثير: جـ ١١، ص ٥٣٩، أبوشامة: جـ ٢، ص ٨٥ ـ ٨٧، ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ـ تحقيق جمال الدين الشيال ـ القاهرة ١٣١٧ هـ ـ ص ٦٤، ابن واصل: جـ ٢، ص ٢٠١، المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ـ تحقيق محمد مصطفى زيادة ـ القاهرة ١٩٥٦ ـ جـ ١، ص ٩٤. وكذلك: عاشور: جـ ٢، ص ٨١٤، الباز العريني: ص ٨٤٥.

(٥) ابن واصل: جـ ٢، ص ٢٠٩.

(٦) ERNOUL, P. 184, ERACLES, PP. 78 - 79, CF. MICHAUD, II, P. 52, GROUS-

SET, HISTOIRE DES CROISADES, PARIS, 1934 - 1936, II, P. 808, RUNCIMAN, HISTORY OF THE CRUSADES, CAMBRIDGE, 1953, II, P. 462.
أنظر أيضا: ابن الأثير: جـ ١١، ص ٥٤٦ ـ ٥٤٧، أبو شامة: جـ ٢، ص ٩١؛ ابن واصل: جـ ٢، ص ٢٠٩ ـ ٢١٠، ابن شداد: ص ٦٥، العماد الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي ـ تحقيق محمد محمود صبيح ـ القاهرة ١٩٦٥، ص ١١٢ ـ ١١٣، أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ـ القاهرة ١٩٣٣ ـ ١٩٣٦ ـ جـ ٦، ص ٣٥. وقد اعترفت «حولية هرقل»، بحرص صلاح الدين على الحفاظ على أرواح وممتلكات الصليبيين بعد سقوط عسقلان، بل وأمن رحيلهم إلى الغرب الأوروبي. فقد جاء فيها: «IL FURENT DELIVERS LOR CORS ET LOR AVDIRS, ET SI LES FIST SALAHADIN CONDUIRE SAUVEMENT EN TERRE DE CRESTIENS.»

(٧) عاشور: جـ ٢، ص ٨١٨، وكذلك ERACLES, P. 79.

(٨) ابن الأثير: جـ ١١، ص ٥٤٦، ابن واصل: جـ ٢، ص ٢١٠، المقريزي: جـ ١، ص ٩٦، الأصفهاني: ص ١١٤.

(٩) أطلق عليه المؤرخون المسلمون اسم «باليان بن بيرزان» تارة (أنظر ابن الأثير: جـ ١١، ص ٥٤٧، ابن واصل: جـ ٢، ص ٢١١ ـ ٢١٢) «وباليان بن بارزان» تارة ثانية. أنظر: البنداري: سنا البرق الشامي ـ تحقيق فتحية النبراوي ـ القاهرة ١٩٧٩ ـ ص ٣٠٩، ٣١١.

(١٠) ERNOUL, PP. 174 - 175, 185 - 187, ERACLES, PP. 81 - 82. CF. GROUSSET, L'EMPIRE DU L'EVANT, PARIS, 1946, P. 242, MICHAUD ET POUJOULAT, HISTOIRE DES CROISADES, TOURS, 1879, P.138, MICHAUD, II, P. 53, LANE - POOLE, SALADIN, LONDON, 1898, P. 225.
أنظر أيضا: ابن الأثير: جـ ١١، ص ٥٤٧، أبوشامة: جـ ٢، ص ٩٤، ابن واصل: جـ ٢، ص ٢١٢، ابن شداد: ص ٨١، البنداري: ص ٣٠٩.

(١١) ERACLES, P.80. CF. MICHAUDD, PP. 52 - 53, GROUSSET, HISTOIRE DES CROISADES, II, P. 810.
وقد اعترفت «حولية هرقل» بحرص صلاح الدين على الحفاظ على مقدسات القدس، إذ أوردت حديثا دار بين صلاح الدين وبارونات بيت المقدس جاء فيه: «OR DITES, DIST SALAHADIN, QUE VOS FEREZ, JE CROI BIEN QUE JERUSALEM EST MAISON DEU, ET CE EST NOSTRE CREANCE., ET JE NE METROIE MIE SIEGE, NE JE NE FEROIE GETER A LA MAISON DE DEU NE ASSAILLIR, SE JE I A POEE AVOIR PAR PAIS ET PAR AMOR».

(١٢) ابن الأثير: جـ ١١، ٥٤٨، أبوشامة: جـ ٢، ص ٩٥، ابن واصل: جـ ٢، ص ٢١٣، العماد الأصفهاني: ص ١٢٦. أنظر أيضا: ERACLES, PP. 86, 88. CF. MICHAUD, P.54, POUJOULAT, P. 138.

(١٣) ERACLES PP. 88 - 89. CF. MICHAUD, P. 54

أنظر أيضا: ابن الأثير: جـ ١١، ص ٥٤٨ ـ ٥٤٩، أبوشامة: جـ ٢، ص ٩٥، ابن واصل: جـ ٢، ص ٢١٣ ـ ٢١٤، العماد الأصفهاني: ص ١٢٦ ـ ١٢٧، أبوالفداء: المختصر في أخبار البشر، جـ ٣، ص ٧٢ ـ ٧٣، البنداري: ص ٣١١.

(١٤) ابن الأثير: جـ ١١، ص ٥٤٩، ابن واصل: جـ ٢، ص ٢١٤.

(١٥) ERACLES, PP. 89-94. CF. MICHAUD, P.56; POUJOULAT, P.138

انظر أيضا: ابن الأثير: جـ ١١، ص ٥٤٢؛ أبو شامة: جـ ٢، ص ٩٥ ـ ٤٦؛ ابن واصل: جـ ٢، ص ٢١٤ ـ ٢١٥، ابن شداد: ص ٨٢؛ العماد الاصفهاني: ص ١٢٧؛ أبو الفداء: جـ ٣، ص ٧٢ ـ ٧٣. والجدير بالذكر أن «حولية هرقل» أوردت أن الفدية التي فرضها صلاح الدين على الصليبيين كانت تقضي ـ في أول الأمر ـ بأن يدفع الرجل عشرين دينارا، والمرأة عشرة دنانير، والطفل خمسة دنانير. (أنظر ERACLES, P.89). إلا أن باليان ساومه في تخفيضها، فأصبحت عشرة دنانير للرجل، وخمسة للمرأة، وواحد للطفل.

انظر: ERACLES, P. 91

(١٦) ابن الأثير: جـ ١١، ص ٥٥٢؛ ابن شداد: ص ٨٢، أبو شامة: جـ ٢، ص ١١٥؛ ابن واصل: جـ ٢، ص ٢١٦؛ العماد الأصفهاني: ص ١٣٥ ـ ١٣٦؛ البنداري: ٣١٦ ـ ٣١٧.

(١٧) ERACLES, PP. 91-92

انظر أيضا: أبوشامة: جـ ٢٢ ص ٩٥؛ البنداري. ص ٣١١.

(١٨) ERACLES, P.96

(١٩) ERACLES, P.96

انظر أيضا: السيد الباز العريني: ص ٨٥٥. والجدير بالتسجيل في هذا الصدد أن المؤرخ المجهول «لحولية هرقل» اعترف صراحة بحرص صلاح الدين على سلامة بيت المقدس وحماية أرواح الصليبيين. فلضمان عدم اعتداء المسلمين الظافرين على الصليبيين المهزومين، أسند حراسة كل شارع من شوارع المدينة المقدسة إلى اثنين من الفرسان وعشرة من الرقباء، حرصا على حمايتها من أي تخريب.

ففي هذا المعنى يقول: «JE VOS DIRAI COMMENT SALAHADIN FIST GARDER LA CITÉ DE JERUSALEM, POR CE QUE SARRASIN N'I FEISSENT TORT NE DAMAGE NE MESLÉE AS CRESTIENS, QUI EN LA CITÉ ESTOIENT. IL MIST A CHASCUNE DES RUES II CHEVALIERS ET X SERGENS POR GARDER LA CITÉ. ET IL LA GARDERENT SI BIEN QUE ONQUES N'I OI L'EN PARLER DE MESPRISON QUE L'EN FEIST A CRESTIEN»..

(٢٠) ابن الأثير: جـ ١١، ص ٥٥٠ ـ ٥٥١، أبو شامة: جـ ٢، ص ١١٥؛ ابن واصل: جـ ٢، ص ٢١٥ ـ ٢١٦. انظر أيضا: سعيد عاشور: جـ ٢، ص ٨٢٣.

(٢١) أبو شامة: جـ ٢، ص ١١٥؛ البنداري: ص ٣١٦. الذهبي: دول الإسلام ـ الركن

١٣٣٧ هـ - جـ٢، ص ٧٠. انظر أيضا السيد الباز العريني: ص ٨٥٦.

(٢٢) ERACLES, P.94. CF. GROUSSET, II, P.815.

انظر أيضا: السيد الباز العريني: ص ٨٥٦.

(٢٣) أبو شامة: جـ ٢، ص ٩٥؛ ابن شداد: ص ٨٢. انظر أيضا:

ERACLES, P.97. CF. KING, THE, KNIGHTS HOSPITALLERS IN THE HOLY LAND, LONDON, 1931, P.130

(٢٤) ERACLES, P.97. CF. MICHAUD, II, P.57.

(٢٥) كذلك أشارت «حولية هرقل» أن من حسنات صلاح الدين إطلاقه سراح أعداد لا حصر لها من فقراء الصليبيين. إذ ورد فيها: «CE FU L'AUMOSNE QUE SALAHADIN FIST SANZ NONBRE DES POVRES GENS». انظر. ERACLES, P.97.

(٢٦) ERNOUL, PP.174-175; ERACLES, PP.98-99. CF. MICHAUD, II, P.57

والملاحظ تطابق رواية أرنول مع مع رواية المؤرخ المجهول لحولية هرقل تطابقا يكاد يكون تاما.

فقد ورد في حولية هرقل:

JE VOS DIRAI :

"UNE GRANT CORTOISIE QUE SALAHADIN FIST ADONT. LES DAMES ET LES FEMES ET LES FILLES DES CHEVALIERS DE JERUSALEM, QUI AVOIENT ESTE' PRIS ET MORZ EN LA BATAILLE, QUANT ELES FURENT RECHATEES ET ISSUES DE JERUSALEM, SI ALERENT DEVANT SALAHADIN CRIER MERCI. QUANT IL LES VI, SI DEMANDA QUI ELES ESTOIENT ET QUE ELES QUEROIENT. ET L'EN LI DIST QUE CE ESTOIENT LES FEMES ET LES FILLES DES CHEVALIERS QUI FURENT PRIS ET MORZ EN LA BATAILLE. LORS DEMANDA QUE ELES VOLOIENT. ET ELES DISTRENT QUE POR DEU EUST MERCI DE ELES. QUE IL AVOIT LES MARIZ DE CELES EN PRISON, LOR TERRE AVOIENT PERDUE, ET QUE POR DEU MEIST CONSEIL ET AIDE EN ELES. QUANT SALAHADIN LES VIT PLORER, SI EN OT GRANT PITIE', ET DIST AS DAMES QUE SE LOR BARONS ESTOIENT VIF, QUE ELES LI FEISSENT ASSAVER SE IL ESTOIENT EN PRISON, QUE QUAN QUE IL EN I AUROIT EN SA PRISON, IL FERDIT DELIVRER. ET FURENT DELIVRE TOZ CEAUZ QUE L'ON TROVA. APRES COMANDA QUE L'ON DONAST AS DAMES ET AS DAMOISELES, CUI PERE ET CUI SEIGNOR ESTOIENT MORT, LARGEMENT DO SUEN, A L'UNE PLUS A L'AUTRE MEINS, CELONC CE QUE ELES ESTOIENT. ET L'EN LOR DONA TANT QUE ELES S'EN LOERENT DOUCEMENT A DEU ET AU SIECLE DOU BIEN ET DEL HONOR QUE L'ON LOR AVOIT FAITE."

(٢٧) ERNOUL, P.185; ERACLES, P.79. CF. KING, P.130; LANE- POOLE, P.233; POUJOULAT, P.139.

(٢٨) ابن الأثير: جـ ١١، ص ٥٥٠ ـ ٥٥١؛ ابن واصل: جـ ٢، ص ٢١٥ ـ ٢١٦؛ أبو شامة: جـ ٢، ص ٩٦، أنظر أيضا: ERACLES, P.98-99.

(٢٩) ابن الأثير: جـ ١١، ص ٥٥٠ ـ ٥٥١.

(٣٠) أبو شامة: جـ ٢، ص ٩٥ ـ ٩٦؛ ابن الأثير؛ جـ ١١، ص ٥٥٠ ـ ٥٥١.

انظر أيضا: سعيد عاشور: ص ٨١٩.

(٣١) ابن واصل: جـ ٢، ص ٢٣١؛ أبو شامة: جـ ٢، ص ١١٥؛ المقريزي: جـ ١، ص ٩٧؛ الذهبي: جـ ٢، ص ٧١.

(٣٢) تحدثت «حولية هرقل» عن التنظيمات التي أعدها صلاح الدين لإجلاء الصليبيين عن بيت المقدس، إذ قسمهم إلى ثلاثة أقسام: أسند قيادة القسم الأول إلى الداوية، والثاني إلى الاستبارية. أما القسم الثالث فقد ترأسه البطريرك. وحرصاً منه على حماية أرواحهم من بطش المسلمين، كلف خمسين من فرسانه بحراستهم، وضع نصفهم في المقدمة والنصف الثاني في المؤخرة.

انظر ERACLES, PP.99-100. والجدير بالذكر أن «حولية هرقل» تعد أهم المصادر اللاتينية المعاصرة لهذه الأحداث الهامة في المعسكرين المتصارعين الإسلامي والصليبي. والملاحظ أن كاتبها المجهول اتصف بالنزاهة والأمانة في كتاباته التاريخية، فلم يتورع عن تسجيل سماحة صلاح الدين، وكرم أخلاقه، وحرصه الشديد على الحفاظ على أرواح الصليبيين وتأمين انسحابهم.

(٣٣) ERACLES, PP.100-101.

(٣٤) ERACLES.C. 101.

(٣٥) ERACLES, PP.101-103.

(وقد ذكر صاحب «تاريخ بطاركة الإسكندرية» أن الصليبيين أقاموا ستة أشهر في مصر، وأن صلاح الدين قام بتسديد مصاريف رحلتهم حتى يبعث فيهم السرور. انظر: REINAUD, EXTRAITS DES HISTORIENS ARABES,P.213.

الموضوع الرابع

نيكيتاس خونياتس واعترافه بتسامح المسلمين وبربرية الصليبيين

(قراءة نقدية لتجاوزات الحملة الصليبية الرابعة سنة ١٢٠٤م/٦٠٠هـ)

دكتور فايز نجيب إسكندر
أستاذ تاريخ العصور الوسطي
كلية الآداب - جامعة بنها

كان الاحتلال الصليبي للقسطنطينية ونهبها وتخريبها وإحراقها وقتل سكانها واغتصاب حريمها من أشرس العمليات العسكرية البربرية التي عرفتها البشرية طوال العصور الوسطي[(١)]. ولقد عاصر تلك الأحداث الجارفة - التي كانت بداية النهاية للإمبراطورية البيزنطية - مؤرخ بيزنطي منصف ونزيه ألا وهو «نيكيتاس خونياتس» Niketas Choniates (١١٥٥-١٢١٣م/٥٥٠-٦١٠هـ) الذي حرص علي أن يسجل في مصدره «التاريخ»[(٢)] Historia تفاصيل تلك الأحداث العاصفة التي كان شاهد عيان لها، بأمانة بالغة؛ فزودنا بالتالي بوجهة النظر البيزنطية، مُحدثاً بذلك توازناً من وجهة النظر الصليبية.

إحتل نيكيتاس أكوميناتوس Acominatus الملقب بنيكيتاس خونياتس لكونه مولوداً في «خون» Chones، إحدي مدن اقليم فريجيا في آسيا الصغري، إحتل مكان الصدارة بين مؤرخي القرن الثاني عشر الميلادي وأوائل القرن الثالث عشر[(٣)].

ولد نيكيتاس[(٤)] حوالي عام ١١٥٥م/٥٥٠هـ[(٥)]، وفي التاسعة من عمره أرسل إلي العاصمة البيزنطية حيث عكف علي الدراسة والتعليم تحت رعاية شقيقه الأكبر ميخائيل خونياتس[(٦)] Michael Choniates وكان ميخائيل[(٧)] قد انخرط في السلك الكنسي، وتدرج في المراتب الكنسية إلي أن أصبح أسقفا علي أثينا طوال الفترة من ١١٨٢م حتي ١٢٠٤م[(٨)]؛ هذا بينما اختار نيكيتاس مجال العمل الوظيفي، فالتحق

(*) بحث شارك به الباحث في المؤتمر الدولي الثاني بلبنان وعنوانه «الصليبيون في الشرق» (٢-٤ ديسمبر ١٩٩٩) برعاية الجمعية اللبنانية للدراسات والبحوث التاريخية بالتعاون مع الجامعة اللبنانية ومنظمة الأونيسكو ومؤسسة الحريري.

بالبلاط البيزنطي وارتقي أعلي درجات الإدارية ؛ فبدأ عمله سكرتيرا في بلاط الامبراطور مانويل كومنين (١١٤٣-١١٨٠م/٥٣٨-٥٧٦ هـ) Manuel Komnenos ، ثم أصبح عضوا في مجلس السناتو، كما عمل قاضيا، ثم تقلد منصب كبير كتاب المراسيم الامبراطورية.[٩] وفي عام ١١٨٩م/ ٥٨٥ هـ عين نيكيتاس حاكماً لثيم فيليبوبوليس Philippopolis الواقع في إقليم مقدونيا، وذلك في عهد اسحق الثاني أنجيلوس[١٠] (١١٨٥-١١٩٥م/ ٥٨١-٥٩٣ هـ) Isaakios Angelos ثم رقي إلي مرتبة «الحاكم الجليل» [١١] Sebas Tokrators .

ولقد اضطر نيكيتاس إلي الفرار بعد سقوط القسطنطينية في قبضة الصليبيين سنة ١٢٠٤م/ ٦٠٠هـ، فوجد ملاذا له عند امبراطور نيقية Nicee ثيودور الأول لاسكاريس (١٢٠٤-١٢٢٢م/ ٦٠٠-٦١٩هـ) Theodore I Lascaris الذي استقبله في بلاطه بحفاوة بالغة، وأعاد إليه كافة الامتيازات التي كان ينعم بها من قبل، وأضحي أقرب المقربين إليه[١٢]. وبذلك أتيحت له كافة الامكانيات لكي يخصص أواخر أيام حياته لأعماله الأدبية المميزة ، وإنهاء مصنفه التاريخي الضخم المعنون «التاريخ» Historia ، والذي بدأه بوفاة الامبراطور الكسيوس الأول كومنين (١٠٨١-١١١٨م/ ٤٧٤-٥١٢ هـ) Alexios I Komnenos في ١٥ أغسطس سنة ١١١٨م واختتمه بأحداث خريف سنة ١٢٠٧م/ ٦٠٤هـ[١٣].

إهتم نيكيتاس علي وجه الخصوص بأحداث الحملة الصليبية الرابعة ، فسطر صفحات أحداثها الملطخة بالدماء والخراب من خلال تخصيصه الفصلين التاسع والعاشر من مصدره ليزودنا بأدق وأوفي التفاصيل[١٤]، ففاق في سرده هذا كافة المصادر المعاصرة لتلك الحملة الاستعمارية ، واحتل مصدره بذلك مركز الصدارة.

إتسم أسلوب نيكيتاس- علي حد قول فازيلييف Vasiliev-بالفصاحة والبلاغة

والتكلف، فهو أسلوب تصويري. كذلك نستخلص من سرده التاريخي أنه يتمتع بمعرفة واسعة شاملة سواء في مجال الأدب القديم أم في علم اللاهوت. إعتمد نيكيتاس في كتابة تاريخه علي مصدرين فقط ، فقد سجل روايات شهود العيان ، وأصناف عليها ما رصده وسجله من أحداث وملاحظات خاصة به. وقد اختلف المؤرخون فيما يتعلق باستخدامه مصنف جون كيناموس John Kinnamos من عدمه(١٥).

ولقد ذكر نيكيتاس صراحة تفوق الحضارة الرومانية - أي البيزنطية- علي حضارة «برابرة الغرب الأوربي»، ويتمتع مصنفه بصدق الأحداث التي يوردها. فهو مصدر ثقة، ويستحق بحق عناية الباحثين لتفحص مادته التاريخية علي حد قول العالم الروسي أوسبنسكي F. I. Ouspenski إذ ذكر «أنه اهتم اهتماما بالغا بفترة بالغة الأهمية في العصور الوسطي، تلك الفترة التي شهدت وصول العلاقات بين الغرب والشرق إلي أقصي درجات العداء، فتولد عن ذلك نشوب الحروب الصليبية وتأسيس امبراطورية لاتينية علي أنقاض القسطنطينية (١٢٠٤-١٢٦١م). وكانت روايته للعلاقات المتبادلة بين الغرب والشرق تتسم بالصدق البالغ ، فكان منصفا حين سجلها بأسلوب تاريخي نقي لا نجد له مثيل في أرقي المصنفات الأدبية الغربية في العصور الوسطي»(١٦).

ولم يتورع نيكيتاس خونياتس عن وصف الصليبيين بالأفاقين والصعاليك والمتشردين والمخادعين، وذكر أن السمة المميزة لهم هي الغطرسة والعجرفة والوقاحة والصفاقة.

أشار نيكيتاس في مصدره إلي تعارض المصالح بين الصليبيين والبيزنطيين مما عمق الشقاق بين الطرفين وحال دون إبرام إتفاقية سلام ووفاق، حتي أنه بدل كلمة الصليبيين بالأعداء، وقال إنهم في الثامن من ابريل سنة ١٢٠٤م اقتربوا من شواطئ

الدولة البيزنطية بعد سنة ١٢٠٤ م

الإمبراطورية اللاتينية وتوابعها في سنة ١٢١٤	إمبراطورية نيقية
ممتلكات البندقية	دولة أبيروس في سنة ١٢١٤

أميال ٥٠ ٠ ٥٠ ١٠٠ ١٥٠ ٢٠٠ ٢٥٠

بلاد الصرب
بلغاريا
سلطنة قونية (الروم)
إمبراطورية نيقية
أرمينية الصغرى
قبرص
القسطنطينية
هرقلية
أدرنة
سالونيك
أثينا
كورفو
كفالونيا
زاكنتوس
مودون
رودس
ترنوفو
سرديكا
سكوبي
فيليبوبوليس
بلغراد

القسطنطينية بسفنهم الكبيرة المحملة بأدوات القتال من سلالم ومختلف المعدات القتالية التي كانوا قد أعدوها من قبل ؛ وكانت من الكثرة لدرجة أنها ملأت الفراغ الممتد بين دير إيفرجيت Evergete وحتي قصر بلاشرن[١٧] Blachernes . وكان هذا القصر مهجوراً بعد ما أتي عليه الحريق، فأصبح مشهده يبعث علي الحزن والكآبة[١٨].

وفي يوم السبت ، التاسع من ابريل سنة ١٢٠٤م اقترب البنادقة من أسوار مدينة القسطنطينية. وقام أكثرهم جسارة بتسلق السلالم المقامة علي الأسوار، وانهمكوا بإطلاق وابل من السهام علي الحامية البيزنطية، فاندلعت بذلك معركة ضارية استمرت طوال اليوم ، حيث رجحت في أول الأمر كفة البيزنطيين فأحرزوا بعض الانتصار حين نجحوا في دفع السفن المحملة بالمعدات الحربية والفرسان ؛ كذلك قاموا بقتل عدد كبير من البنادقة[١٩].

وفي يومي الأحد والإثنين ، العاشر والحادي عشر من ابريل، جنح الأعداء إلي الراحة والاستكانة. وفي الثاني عشر من نفس الشهر، وعند إشراق الظهيرة، شن الصليبيون هجوماً أكثر ضراوة من الهجوم الأول؛ ومع ذلك فقد تفوق عليهم البيزنطيون. لكن بما أن ملكة المدائن – علي حد قول نيكيتاس- كان عليها أن ترزح تحت نير العبودية ، فقد غامر جنديان كانا يقفان علي سلم مواجه لأحد الأبراج، ونجحا في التغلب علي الحامية المدافعة عنه ، وقاما بالتلويح بالأيدي دلالة علي نشوة النصر والثقة ، وحتي يثيرا حماس رفاقهما[٢٠]وفي غضون ذلك، تمكن فارس شجاع يدعي بيير دميان Pierre D'Amiens كان علي رأس فريق ضم عشرة فرسان وستين رقيباً [٢١]، تمكن من إكراه كبار حاشية الامبراطور البيزنطي والكتيبة المصاحبة لهم من الفرار، بعد أن انتابهم الجبن والخور. وتمني نيكيتاس من أعماق قلبه أن يزج الله بهؤلاء المتخاذلين المهزومين في أعماق الجحيم[٢٢].

نتج عن هذا الانتصار الذي أحرزه الصليبيون أن انعدمت تماماً المقاومة البيزنطية ؛ فما كان من الأعداء الصليبيين أن أعملوا السيف في رقاب الجميع دون تمييز بين سن أو جنس، وانطلقوا في فوضي في كافة الاتجاهات والأرجاء. وهكذا بثوا الرعب واليأس في ربوع عاصمة الامبراطورية البيزنطية.

وبقدوم المساء، أشعل الصليبيون النار في الحي الواقع شرقي العاصمة القسطنطينية ، فالتهمت ألسنة اللهب كل المنازل المتواجدة مابين دير إيفرجيت Evergete وحتي حي درونجير Drungaire ، فأتت علي كل شئ صادفته. عقب ذلك ، أقام الأعداء معسكرهم بالقرب من دير بانتبوبت Pantepopte بعد أن قاموا بنهب خيمة الامبراطور الكسيوس الخامس دوقاس (١٢٠٤م) Alexios V. Ducas والاستيلاء علي قصر بلاشرن.

هكذا وجد الصليبيون الطريق ممهداً تحت أقدامهم ، لانعدام المقاومة البيزنطية. فشوارع القسطنطينية بدت أكثر اتساعاً لانعدام وجود أي شخص بها يصنع حداً لانطلاقهم الميسر، وبالتالي تلاشت العقبات التي تحول دون زحفهم المدمر والكاسح، لأن البيزنطيين قد خارت قواهم. هذا بينما استقبل سكان العاصمة الغزاة استقبال الأبطال، فبدلا من قتالهم زحفوا للترحيب بهم حاملين الصلبان وصور المسيح عليه السلام. كل ذلك لم يخفف من غضب الصليبيين وشراستهم ؛ بل علي النقيض ، فقد امتطوا صهوات جيادهم التي اعتادت علي غوغاء الحروب وأصوات الأبواق -علي حد قول نيكيتاس- وأشهروا سيوفهم، وانهمكوا في نهب محتويات المنازل والكنائس ؛ فكانت بداية المأساة التي لا يعرف نيكيتاس بداية ولا نهاية لها(٢٣).

بعد ذلك يزودنا نيكيتاس بحديث مفصل عن تجاوزات الصليبيين الصارخة والفاضحة قائلا إن الكفار حطموا الصور المقدسة الجديرة بتبجيل المؤمنين، وألقوا رفات

الشهداء والقديسين في أماكن يخجل المرء من ذكرها، وأساءوا إلي الله أبشع إساءة. فهؤلاء القوم من مبشري المسيخ الدجال، ومن مرتكبي المدنسات الذين يسبقون مجيئه. فقد استولوا علي كؤوس الطقوس الدينية ونزعوا عنها أحجارها الكريمة وزخارفها الثمينة، وجعلوا منها أقداحاً للخمر. هكذا فعلوا كما فعل اليهود من قبل حين جردوا المسيح من ملابسه وأذاقوه العذاب الأليم، ولم يفتهم سوي طعنه في جنبه بالحربة المقدسة؛ وبذلك تكتمل الصورة التي تعبر عن شراستهم ودمويتهم. ولا يستطيع المرء أن يتخيل مالحق بكنيسة آيا صوفيا من نجاسة علي أيديهم، فمن المؤكد أنه سينتابه الاشمئزاز والقشعريرة. فقد حطم هؤلاء الفاسقين الهيكل المصنوع من مواد ثمينة ومتنوعة حتي أنه كان من قبل محلاً لإعجاب كافة الشعوب والأمم علي حد قول نيكيتاس. وبعد الاتيان عليه، قسموا تلك الغنيمة فيما بينهم. كذلك كان حال ومصير باقي الزخارف والتي كان القلم يعجز عن التعبير عن مدي جمالها وقيمتها. ووصل الأمر مداه حين أدخلوا بغالا وخيولا داخل الكنائس لنهب الأواني المقدسة، والزخارف الفضية والذهبية التي سبق لهم انتزاعها من المنبر وقراية الإنجيل والأبواب، إضافة إلي عدد لاحصر له من الأثاث. وحدث أن بعض من هذا الدواب قد سقط علي بلاط الكنيسة لكونه شديد الانزلاق، فما كان من هؤلاء الصليبيين أن غمدوا سيوفهم في بطون تلك الحيوانات، فانسابت الدماء علي أرضية الكنيسة التي أصابها الدنس بفعل الدماء والقاذورات(٢٤).

وقد أجلس الصليبيون علي العرش البطريركي إمرأة عاهرة مثقلة بالذنوب، وخادمة للشيطان، تعمل بالسحر والشعوذة. أخذت تسب بوقاحة السيد المسيح وبدأت تغني أغانٍ بذيئة، وترقص رقصات الساقطات داخل الكنيسة. لقد ارتكب الغزاة كل هذه التجاوزات التي تتسم بالكفر والإلحاد دون أن يتصدي لهم أحد أو يضع حدا لأعمالهم الإجرامية.

وبعد أن نفثوا عن غضبهم الشديد ضد الله، قاموا باغتصاب النساء الفاضلات، والفتيات البريئات ؛ وحتي الراهبات العذاري المكرسات لله. ولم يكن هناك شئ أصعب من تلطيف حدة قسوة هؤلاء البرابرة، وتهدئة غضبهم، وكسب مودتهم. وكان سخطهم شديدا حتي أن كلمة واحدة كانت كافية لاشعال نار غضبهم. وكانت محاولة تليين جانبهم محاولة مثيرة للسخرية ، أما التحدث معهم بمنطق عقلي فكان يعد ضربا من ضروب الجنون. وكثيراً ما يستلون خناجرهم ويشهرونها في وجه كل من يتصدي لرغباتهم. ولم يسمع المرء في الشوارع والمنازل والكنائس سوي الصراخ والبكاء والعويل والأنين. وتحول نبلاء الأصل والمولد إلي أشخاص أصابهم العار ؛ ولحق الإذلال الشيوخ المبجلين الطاعنين في السن ؛ أما الأثرياء. فقد تحولوا إلي فقراء معدمين. ولم يفلت من قبضة الصليبيين مكان حتي فتشوه تفتيشا دقيقا. كذلك لم يعد هناك أي مكان يلجأ إليه الفارون[٢٥].

وعقب سرد نيكيتاس لكل تلك المآسي والآلام، تنطلق صرخاته من بين سطور مصنفه ، إذ تضرع إلي الله قائلا: «يا إلهي! يالها من بلية! ياله من بؤس! لقد رأينا بأم أعيننا اللعنة التي حلت في ذلك المكان المقدس. ولقد سمعنا أقوالا ماكرة مهينة تدنس كرامة المرء وتذله ، وكنا شهود عيان لجرائم إلحادية أخري تتعارض مع قداسة وطهارة عقيدتنا ، وسرد لبعض الجرائم التي اركبتها أمم الغرب الأوربي ضد شعب يدين بالمسيحية. فهؤلاء البرابرة غلاظ القلوب لم يتحلوا بالإنسانية في تعاملهم مع أي إنسان. فلم يفلت من أيديهم شيئا بعد أن نهبوا واستولوا علي كل ماصادفهم». ثم توجه بحديثه إلي الصليبيين قائلاً : «لقد حملتم علي عاتقكم مسئولية الدفاع عن المسيحية، وأقسمتم علي ذلك ، وتعهدتم أنكم ستجتازون الأراضي المسيحية - أي أراضي الامبراطورية البيزنطية - دون سفك دماء ، ودون الالتفات يميناً أو يساراً. لقد قلتم أنكم حملتم السلاح لخوض غمار الحرب ضد المسلمين، وتعهدتم بعدم الاقتراب من

النسـاء، لأنكم جنود المسيح وترفعون الصليب علامة للخلاص. لكن من الواضح للعيان أنكم بعيدين تماما عن الدفاع عن قبره المقدس، بل تقومون بإذلال معتنقي المسيحية المخلصين للمسيح. وبدلا من حملكم الصليب ، تقومون بتدنيسه وركله بأقدامكم. وبينما تتفاخرون بالبحث عن جوهرة نفيسة ، تلقون بجسد المسيح- أثمن الجواهر- في الوحل»[٢٦].

والجدير بالملاحظة أن نيكيتاس بلغ قمة الانصاف والنزاهة في كتابته التاريخية حين عقد مقارنة اعترف فيها بسماحة المسلمين والإسلام، ولصوصية وإجرام ودموية الصليبيين. إذ جاء في مصدره : «ان المسلمين أكثر رحمة وإنسانية من الصليبين. فعندما استعادوا بيت المقدس عاملوا اللاتين - أي الصليبين- بلطف ورقة ، وحافظوا علي حريمهم، ولم ينتهكوا، ولم يدنسوا علي الإطلاق قبر المسيح، وحرصوا علي عدم دفن موتاهم بجواره. هذا بينما في يوم سقوط العاصمة القسطنطينية في قبضة هؤلاء اللصوص من العناصر الصليبية، أسرعوا بنهب المنازل التي كان يقيم فيها الآمنون، وأكرهوا سكانها علي إرشادهم عن أماكن إخفاء أموالهم ؛ وعاملوا البعض بقسوة وعنف، بينما عاملوا البعض الآخر بلطف إلي أن يتمكنوا من الاستحواذ علي أموالهم. ومع ذلك، فقد كان سلاح التهديد والوعيد هو سلاحهم الوحيد لإكراه الجميع علي كشف مكان أمواله. فقد عاني الجميع من شراستهم وغطرستهم، وترك المسئولون البيزنطيون حرية مغادرة المدينة لمن يشاء ، مما أدي إلي رحيل جموع غفيرة من سكانها. واحتماء من البرد القارس، كان الفارون يرتدون معاطف تتسم بالقذارة ؛ كذلك كانت وجوههم شاحبة يكسوها التعب والإرهاق، وعيونهم حمراء تذرف دماً عوضاً عن الدموع. وكان البعض ينوح علي أمواله التي سرقها الصليبيون ؛ أما البعض الأخر فكان يعتقد أن ضياع أمواله لا يستحق الأسي والغضب، لأنه كان يبكي بمرارة وحزن علي خطف ابنته ، أو مقتل زوجته ، أو أية خسارة مماثلة»[٢٧].

ثم انتقل نيكيتاس بعد ذلك لسرد حادث تعرض له شخصيا يوم الغزو الصليبي للقسطنطينية إذ قال: «أود أن أسجل ماحدث لي في هذا اليوم الحزين. فقد انسحب العديد من أصدقائى إلي منزلي المعتم لكونه مبنيا أسفل رواق كبير. وكان للمنزل مدخل سري يقود سالكه إلي الكنيسة الكبري ؛ ومع ذلك لم تكن هناك أية أسرار علي الإطلاق يمكن إخفائها علي الأعداء المحبين للفضول. ورغم قداسة المكان الذي كان ينبغي أن يحمينا، إلا أننا لم نفلت من انتقامهم وغضبهم وسَعَرِهم. ففي كل موضع لجأنا إليه فراراً من آذاهم، كان هؤلاء الأعداء باستطاعتهم الانقضاض علينا بغتة. وكنت قد استفردت بأحد البنادقة وبصحبته زوجته وأولاده، فكانوا خير معين لي وأفادوني كثيراً. ورغم كون هذا البندقي لا يمارس سوي حرفة التجارة ، إلا أنه كان يحمل السلاح مثله مثل أي جندي، وتظاهر بأنه من أعدائنا، وتحدث مع الصليبيين بلغتهم. وهكذا ظل طويلا يدافع عن منزلنا. لكن، ومع مرور الوقت ، شعر أنه ليس باستطاعته إطلاقا الصمود في وجه تلك الجموع الحاشدة، خاصة العناصر الفرنسية منهم، إذ كانوا يتباهون ويتفاخرون بأنهم لا يخشون شيئا سوي سقوط السماء فوق رؤوسهم. من منطلق هذا الخطر المحدق بنا، نصحنا بالفرار ، خشية أن نجد أنفسنا مكبلين في الأصفاد ، إضافة إلي حتمية رؤية اغتصاب حريمنا أمام أعيننا إذا لم نلتزم بتنفيذ نصيحته. وبالفعل سرنا في ركاب هذا الصديق الوفي حامينا ، كما لو كنا أسري، فاقتادنا إلي منازل البنادقة الذين كنا قد صادقناهم. وعندما وصلنا إلي الحي الذي كان قد آل إلي الفرنسيين، تخلي عنا الجميع ، وابتعدوا عنا بعد أن انتابهم الجبن، وتفرق البعض في جانب والبقية في جانب آخر، فاضطررنا إلي حمل أولادنا الصغار الذين لم يكن باستطاعتهم السير بعد[٢٨].

بعد ذلك رحلنا يوم السبت السابع عشر من ابريل، أي اليوم الخامس لسقوط العاصمة القسطنطينية، وكان فصل الشتاء علي الأبواب، وكانت زوجتي آنذاك في

حالة حمل وعلي وشك الولادة، حتي أنه بدا لي أن كلمة الله قد تحققت حين تذكرت النبوءة القائلة «ويل للحبالي والمرضعات». وكان قد انضم إلينا العديد من أقربائنا وأصدقائنا بمجرد رؤيتهم لنا، وسرنا معاً، وصادفنا في طريقنا مقاتلين يحملون أسلحة متواضعة، فكان البعض منهم يحمل سيوفاً طويلة تتدلي من خيولهم ، والبعض الآخر خناجر علقت بزنانيرهم، في حين انشغل البقية الباقية بحمل الغنائم أو تفتيش الأسري بحثا عن نقود في حوزتهم أو ليتأكدوا إذا كانوا يخفون الملابس الثمينة أسفل الرثة.

وقد انتابنا الفزع حين وجدنا أنظار هؤلاء الأعداء مصوبة للبحث عن النساء الجميلات ؛ فحفاظاً علي أعراضنا، أخفينا نسائنا وسط جموعنا كما لو كن داخل حظيرة، ونبهنا عليهن أن يضعن الأوحال علي وجوههن، تلك الوجوه التي كانت تجمل من قبل بالحَمَار، لطخت اليوم بالطين ، خوفا من أن يلفت بهاء بشرتهن عيون من يراهن من الأعداء ، فتثار رغبة الصليبيين الجنسية ، فتحدث عمليات اغتصاب يرتكبها هؤلاء الشرسون المجرمون الذين يعتقدون أن الحرب تبيح لهم فعل كل شئ، حتي المحذورات.

هكذا امتلأ قلبنا بالأسي والحزن، فتضرعنا إلي الله رافعين أيدينا إليه، وضاربين علي صدورنا، وداعين إليه أن يحفظنا ويحمينا من عنف وشراسة تلك الحيوانات الشرهة المتعطشة لسفك الدماء(٢٩).

وأخيراً ، اختتم نيكيتاس حديثه عن تجاوزات الصليبيين المفزعة بُعَيد سقوط القسطنطينية بذكر حادث اختطاف فتاة أمام أعين والدها المريض والطاعن في السن، ودور نيكيتاس في السعي لإطلاق سراحها. إذ جاء في مصدره : «وعندما اقتربنا من اجتياز الباب الذهبي، اختطف أحد هؤلاء البرابرة الكفار والتي انعدمت الرحمة من قلوبهم، اختطف إبنة أحد القضاة ، تماما كما يختطف الذئب الشاة. حدث هذا علي

مقربة من إحدي الكنائس. فتعثر آنذاك والد الفتاة المثخن بالمرض والشيخوخة وسقط في الوحل، فاستدار إليّ لأمد له يد المساعدة. إلا أنني لم يكن باستطاعتي إعانته سوي بتعضيد ضعيف أضعف من شجرة التين. وكان قد ناداني بإسمي متوسلا مساعدته. حينئذ لاحقت المختطف ، وصحت صارخاً مندداً بقسوته وشراسته وإجرامه وذلك بصوت نائح شاكي، وبحركات تثير الشفقة. واستجديت نجدة أقرب الجنود إليّ، والذين كان باستطاعتهم سماع وفهم بعض كلمات من لغتنا اليونانية. فكنت أمسك بأيديهم وأحاول تملقهم. وفي النهاية ، نجحت في كسب قلوب بعضهم، وأثرت عليهم تأثيرا شديدا لدرجة أنهم وعدوني بالانتقام من هذا المغتصب. فاصطحبتهم حينئذ إلي المنزل الذي سجن فيه المغتصب تلك الفتاة، حيث كان واقفا علي الباب للحيلولة دون دخول أحد. فقلت له مشيراً بأصبعي إليه: «هاهو المذنب الذي اخترق في وضح النهار الأمر الصادر منكم بمنع المساس بالنساء المتزوجات والفتيات الشابات والعذاري من الراهبات المكرسات لله. هذا الأمر الذي تعهدتم بمراعاته. إذن، دافعوا عنا ضد هذا القهر والتعسف ، مستندين في ذلك إلي سيادة قوانينكم، وقوة أسلحتكم. كونوا متعاطفين مع الدموع التي تنساب من عيني، لأن الله يتأثر بدموع المظلوم فينصره. وقد وهبتنا الطبيعة تلك الدموع لإثارة المشاعر، والحصول علي المساعدة المطلوبة. استحلفكم بأولادكم وبقبر السيد المسيح المخلص، وباحترامكم لوصايا الله وتعاليمه التي تحرم علي المسيحيين أن يفعلوا بالآخرين مالا يحبونه لأنفسهم. وأتمني أن تستجيبوا لتوسلاتي، وأن لا تضيع سُدَي».

وكنت بهذه الطريقة أحفز هؤلاء المقاتلين بتلك الكلمات التي واتت فمي علي الفور وبدون إعداد مسبق، حتي أنهم وعدوني بإعادة الفتاة المخطوفة.

في أول الأمر ، سخر المغتصب من مطلبهم، إذ كانت الأنانية والغضب مسيطران

علي تصرفاته ، لكن عندما رأي أنهم يطالبونه بتلبية رغبتهم بجدية ويهددونه بإعدامه شنقاً، أعاد الفتاة وأطلق سراحها، ففرح والدها فرحا بالغاً. وأكمل الأب رحلته معنا. وبمجرد خروجنا من المدينة. بدأ الجميع في أداء صلاة الشكر، لأن الله أبعد عنا كل أذي، وشملنا بحمايته. هذا بينما ندب البعض الآخر حظه لما أصابه من مآسي. أما أنا -أي نيكيتاس- فقد سجدت علي الأرض شاكراً الله ، وشكوت الأسوار لأنها ظلت وحدها مصابة بالبلادة رغم النكبات العامة ، ومع ذلك فهي مازالت صامدة شامخة بدلاً من أن تنخرط في البكاء»[٣٠].

هكذا سطر نيكيتاس الحقيقة مجردة من أي زيف ، كاشفاً دموية الصليبيين وبربريتهم التي وصلت أقصاها حين دنسوا المقدسات المسيحية، واحتلوا أراضي الامبراطورية البيزنطية المسيحية وأذلوا سكانها المسيحيين، فأثبتوا بما لا يدع مجالا للشك أن حركتهم حركة استعمارية إستيطانية، إتخذت من الدين ستاراً لإخفاء أطماعهم.

لقد سجل نيكيتاس كلمة حق، وكان موضوعيا في سرده للأحداث، فحقق الغاية النبيلة القاضية بضرورة كتابة التاريخ بموضوعية ونزاهة وإنصاف. ووصل إلي أقصي درجات النزاهة حين لم يتورع عن عقد مقارنة بين سماحة المسلمين وتعصب الصليبيين ودمويتهم. وتشاء الأقدار أن يشهد شاهد من أهله مؤكداً صدق تلك المقارنة بين صورتين متقابلتين متعارضتين : صورة القسطنطينية عندما استولي عليها الصليبيون سنة ١٢٠٤م/ ٦٠٠هـ، وصورة بيت المقدس عندما استرده صلاح الدين في يوم الأحد الخامس عشر من رجب سنة ٥٨٣ هـ/ الثاني من اكتوبر سنة ١١٨٧م ؛ ففي الصورة الأولي -كما صورها لنا نيكيتاس- نجد الصليبيين يدكون أسوار القسطنطينية وينهبونها ويشعلون الحرائق في ربوعها ويهتكون الأعراض، فتتجرعت عاصمة

الامبراطورية البيزنطية كأس الغضب حتي الثمالة. هذا ما أثبت تفاصيله نيكيتاس خونياتس.

أما الصورة الثانية، فقد وردت في حولية هرقل Chronique D'Eracles المكتوبة بالفرنسية القديمة، والتي تعد من أهم المصادر الصليبية المعاصرة لصلاح الدين الأيوبي. لقد سجلت تلك الحولية الأحداث الهامة الدائرة في المعسكرين المتصارعين الإسلامي والصليبي. والملاحظ أن كاتبها المجهول إتصف بالنزاهة والأمانة والإنصاف كحال نيكيتاس خونياتس؛ فلم يتورع عن تسجيل سماحة صلاح الدين، وكرم أخلاقه، وحرصه الشديد علي الحفاظ علي أرواح الصليبيين وتأمين انسحابهم من بيت المقدس، وتبجيل رجال الدين المسيحي، وتكريم الخفائر من النساء، والحرص علي صيانة المباني المقدسة المسيحية إذ أصدر أوامره بترميمها وإصلاحها. فقد كان صلاح الدين متسامحاً كما علمه الإسلام، يحب العفو عن الخصم وهو القادر علي الفتك به.

وهكذا ، تتضح لنا في الصورة الأولي وحشية وقسوة وهمجية الصليبيين الكاثوليك الوافدين من الغرب الأوروبي. أما الصورة الثانية، فقد اعترف كل من المؤرخ البيزنطي نيكيتاس خونياتس، وسبقه إلي ذلك المؤرخ الصليبي المجهول لحولية هرقل بسماحة مسلمي الشرق ونبلهم وكرمهم.

لقد وصف المؤرخون -الغربيون والشرقيون علي السواء- صلاح الدين بالاعتدال، والتمسك بمبادئ الأخلاق والرحمة والتسامح. وكان من أثر تسامحه مع الصليبيين أن أمنهم علي أرواحهم وأموالهم في كل المدن والحصون والقلاع التي فتحها بالأمان.

وعندما وصل صلاح الدين إلي بيت المقدس ، وذلك يوم الأحد الخامس عشر من رجب سنة ٥٨٣ هـ/الثاني من نوفمبر سنة ١١٨٧م، هدد باليان دبلين[٣١] Balian D'Ibelin صاحب الرملة الذي تولي مهام تنظيم الدفاع عن المدينة، هدد بتخريبها،

وتقويض أركانها ، وتدمير كل مافيها من مقدسات، والقضاء علي الأحياء من إنسان وحيوان[٣٢]، وذلك بعد أن رفض صلاح الدين طلب الأمان الذي تقدم به. إلا أن السلطان الأيوبي نظر بعين الاعتبار إلي الكارثة التي تنتظر بيت المقدس في حالة اصراره علي موقفه ، فحكَّمَ عقله ، وتغلبت إنسانيته السامية، وروحه العالية ، وحرصه علي بقاء الأماكن المقدسة التي يجلها ويحترمها المسلمون كاحترام النصاري لها. كذلك أراد أن يلقن الصليبيين درساً في مكارم الأخلاق وسماحة الإسلام، وقد أكسبته وقومه هذه السماحة وكرم الخلق في الغرب إسما عظيماً لا يزال يردد في الغرب علي كرِّ الأيام. لذا عدل عن رغبته في الثأر والإنتقام، وأجاب القوم إلي الصلح بعد مشاورة أصحابه[٣٣]. ولم ينتهز الفرصة ليمثل بأعدائه انتقاما لما فعلوه من جرائم سنة ٤٩٢ هـ/١٠٩٩م، بل علي العكس من ذلك ، أمر بعدم التعرض لهم. ووافق علي ترك الصليبيين يغادرون المدينة المقدسة مقابل فدية هزيلة.

وقد أسهب المؤرخون المعاصرون في الإشادة بسماحة صلاح الدين ونبله ورحمته بالصليبيين حين استولي علي بيت المقدس، وقارنوه بالصليبيين حين دخلوه سنة ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م يخوضون في دماء المسلمين. فقد ذكر المؤلف المجهول صاحب «حولية هرقل» أنه لم تتجل عظمة صلاح الدين أبداً مثلما تجلت عند تسليم المدينة الخالدة»[٣٤].

علي أية حال، فإن ما اشتهر به المسلمون من التسامح والروح الانسانية والاستقامة جعلهم يلتزمون بحسن معاملة الصليبيين ، رغم أن هؤلاء اعتادوا علي ارتكاب المذابح الدموية والقيام بأعمال السلب والنهب، وهتك الأعراض وذلك طوال عصر الحروب الصليبية. مارسوا تلك الأعمال الاجرامية سواء مع المسلمين أو مع البيزنطيين. فبينما خاض الصليبيون بأقدامهم في دماء المسلمين عند الاستيلاء علي بيت المقدس سنة ٤٩٢ هـ/١٠٩٩م، لم تتعرض بعد أن استردها صلاح الدين سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م دار

من دورها للنهب أو التدمير، ولم يلحق أحد من سكانها أذي أو ضرر. فقد اعترف صاحب حولية هرقل صراحة بحرص صلاح الدين علي سلامة بيت المقدس وحماية أرواح الصليبيين. فلضمان عدم اعتداء المسلمين الظافرين علي الصليبيين المهزومين ، أسند حراسة كل شارع من شوارع المدينة المقدسة إلي إثنين من الفرسان وعشرة من الرقباء، حرصا علي حمايتها من أي تخريب(٣٥).

ومما سجله التاريخ من مظاهر الكرم وسمو الخلق وعظمة النفس أن صلاح الدين سمح لهرقل بطريرك بيت المقدس بالخروج من المدينة حاملاً ما استطاع حمله من الذهب والفضة ، ونفائس الكنائس وذخائرها، ولم يدفع غير عشرة دنانير، دون أن يبالي بفقراء الصليبين الذين لم يجدوا ثمن فدائهم. وهكذا لم يحفل البطريرك ورجال الكنيسة الكاثوليكية إلا بمصالحهم الخاصة(٣٦).

ومن الدليل علي مروءة صلاح الدين وفروسيته وكرمه ، حسن معاملته لزوجات وبنات كبار الأمراء الفرسان. وقد أشاد بذلك المؤرخ الصليبي إرنول(٣٧) Ernoul وهو من اتباع باليان دبلين Balian D'Ibelin صاحب الرملة.

ويتجلي التزام السلطان الأيوبي بروح التسامح تجاه الصليبيين في موقفه من عملية هدم كنيسة القيامة. فقد نادي بعض المسلمين عندئذ بهدمها ومعاملة الصليبيين بمثل ماعاملوا به المسلمين عندما استولوا علي بيت المقدس. لكن صلاح الدين نهرهم عن ذلك، وأمر باحترام الأماكن المقدسة المسيحية في بيت المقدس، لأنه «عندما فتح أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه- القدس في صدر الإسلام، أقرهم علي هذا المكان ، ولم يأمر بهدم البنيان»(٣٨).

هكذا يتضح بجلاء أن صلاح الدين لم يكن يحارب دينا ، وإنما يحارب الغزاة الأجانب كما هو حال الشعب الفلسطيني الذي يحارب الغزاة الصهاينة لاستعادة

أراضيه المغتصبة، وإعادة القدس عاصمة لدولة فلسطين بإذن الله عز وجل.

كذلك كفل صلاح الدين للصليبيين السلامة والمؤن أثناء اجتياز الأراضي الإسلامية. فبعد أن تسلم الفدية المتفق عليها، أخذ يعد الترتيبات لترحيلهم إلي صور وطرابلس وأنطاكية. فأرسلهم مخفورين خوفا عليهم من أن يتعرضوا لاعتداءات البدو في الطريق. ويذكر المؤرخ المجهول لحولية هرقل Chronique D'Eracles أن صلاح الدين كلف خمسين من فرسانه بحراستهم، وضع نصفهم في المقدمة ، والنصف الثاني في المؤخرة(٣٩).

علي أن الخطر الذي هددهم لم يأت من جانب المسلمين وإنما أتي من جانب الصليبيين أنفسهم ؛ إذ بمجرد دخولهم حدود إمارة طرابلس الصليبية ، حتي انقض عليهم أمراء الصليبيين واعتدوا عليهم. عندئذ إتجه أولئك المشردون شمالا ، لكن أهل طرابلس خشوا علي أنفسهم وعلي مدينتهم، فأغلقوا أبوابها في وجوههم، بل نهبوا مابقي مع بعضهم من أموال(٤٠).

وهكذا لم يجد أهل بيت المقدس من أخوانهم الصليبيين جزءاً من المعاملة الرحيمة التي لقوها من العاهل الأيوبي. وكان نيكيتاس خونياتس علي حق حين فضل المسلمين علي الصليبيين.

الحواشي

(١) LE DUC DE CASTRIES, LA CONQUETE DE LA TERRE SAINTE PAR LES CROISES, PARIS, 1973, P.342. ولم يتورع بلدوين كونت فلاندر FLANDRES (١٢٠٤-١٢٠٦م) - أول امبراطور لاتيني يحكم الامبراطورية البيزنطية - من ذكر تلك الأعمال الإجرامية وذلك في خطاب له أرسله إلي رئيس أساقفة كولونيا COLOGNE جاء فيه : «تمكن الصليبيون في عجلة من احتلال القسطنطينية بكاملها. وقاموا علي الفور بنهب وسرقة كميات لا حصر لها من الخيول والذهب والفضة والأقمشة الحريرية والملابس الثمينة والأحجار الكريمة، وكل ماهو غال ونفيس». أنظر: RECUEIL DES HISTORIENS DE FRANCE, t.XVIII, P.522. CF. CASTRIES, P.342.

(٢) مصدره منشور باللغة اليونانية ومزيل بترجمة لاتينية. أنظر : NICETAS CHONIATES, HISTORIA, IN. C.S.H.B., BONN, 1835. وهناك ترجمة إنجليزية أعدها هاري ماجولياس. أنظر : HARRY J. MAGOULIAS, O CITY OF BYZANTIUM, ANNALS OF NIKETAS CHONIATES, DETROIT, 1984. كذلك ترجم الدوق كاستري مقتطفات من هذا المصدر إلي الفرنسية. أنظر : CASTRIES, PP.342-350

وقد اعتمدنا علي الترجمتين الانجليزية والفرنسية في إعداد بحثنا: والجدير بالذكر أن نيكيتاس قسم مصدره الضخم إلي عشرة فصول. خصص فيه الفصل الأول للحديث بإيجاز عن عهد الامبراطور حنا كومنين (١١١٨-١١٤٣م) JOHN KOMNENOS. وغطي في الفصول التالية أحداث الامبراطورية البيزنطية في عهد خلفاء حنا كومنين. إلي أن ختم مصدره بتخصيص الفصلين التاسع والعاشر للحديث عن الحملة الصليبية الرابعة، وهما أهم فصول مصدره. ويمثل مصنف نيكيتاس مكانة بالغة الأهمية فيما يتعلق بتاريخ الامبراطورية البيزنطية في الربع الأخير من القرن الثاني عشر حتي سقوط القسطنطينية سنة ١٢٠٤م.

(٣) MAGOULIAS, PP.XI, 350. CF. A.A.VASILIEV, HISTOIRE DE L'EMPIRE BYZANTIN, PARIS, 1932, t.II, P.153.

(٤) للتفاصيل الدقيقة عن ترجمته أنظر: MAGOULIAS, INTRODUCTION, PP. IX-XXIX.

(٥) MANGOULIAS, P.X.

(٦) للتفاصيل عن «ميخائيل خونياتس» شقيق نيكيتاس أنظر: VASILIEV, PP.151-152

(٧) ولد ميخائيل خونياتس الشقيق الأكبر لنيكيتاس سنة ١١٣٨م. أنظر : MAGOULIAS, P.X.

(٨) MAGOULIAS, P. IX

(٩) VASILIEV, P. 153

(١٠) MAGOULIAS, P. 221

(١١) MAGOULIAS, P. 311

(١٢) MAGOULIAS, P. 348. CF. VASILIEV, P.153; ANGOLD, M., A BYZANTINE GOVERNMENT IN EXILE, OXFORD, 1975, P.29

(١٣) VASILIEV, P.153

(١٤) MAGOULIAS, P. 321-362

(١٥) VASILIEV, P. 154

(١٦) VASILIEV, P. 154 نقلا عن F.I.OUSPENSKI, UN ECRIVAIN BYZANTIN: NICETAS ACOMINATE DE CHONES - SAINT-PETERSBOURG, 1874, PREFACE, P.V

(١٧) قصر بلاشرن أو بلاشرناي BLANCHERNAE وهو القصر الامبراطوري بالقسطنطينية، وكان يقع علي القرن الذهبي. وكان من يبسط سيادته علي هذا القصر تكون له السيادة في العاصمة. وكانت تقام فيه الاحتفالات الكبري التي لا حصر لها. ويقال إن حيطان وأعمدة هذا القصر كانت مغطاة بالذهب الخالص . كذلك كان عرش الامبراطور البيزنطي من الذهب أيضا ومحلي بالأحجار الكريمة. أما التاج الامبراطوري فكان من الذهب المرصع بالجواهر الثمينة. وقد انطفأ بريق هذا القصر بسقوط

القسطنطينة في قبضة اللاتين وتأسيسهم المملكة اللاتينية الصليبية علي أنقاض الامبراطورية البيزنطية، وما أعقب ذلك من نهب محتوياته وإحراقه. (للتفاصيل أنظر:
DIEHL, CH., LA SOCIETE BYZANTINE A L'EPOQUE DES COMNENES, PP. 13-25.

(١٨) MAGOULIAS, P. 312' CASTRIES, P.343.

(١٩) MAGOULIAS, PP.312-313; CASTRIES, P.343; VILLEHARDOUIN, LA CONQUETE DE CONSTANTINOPLE, ED. FARAL, PARIS, 1939, t.II, PP. 37-38.

(٢٠) MAGOULIAS, P. 313; CASTRIES, P. 343.

(٢١) DONALD E. QUELLER, THE FOURTH CRUSADE: THE CONQUEST OF CONSTRANTINOPLE 1201-1204, UNIVERSITY PARK, PA., 1977, P.145.

(٢٢) MAGOULIAS, P. 313; CASTRIES, P. 344

(٢٣) MAGOULIAS, PP.313-314; CASTRIES, PP.344-345.
أنظر أيضا الرواية المختصرة التي زودنا بها روبرت كلاري في: فتح القسطنطينية علي يد الصليبيين- ترجمة حسن حبشي- القاهرة ١٩٦٤- ص١٠٧.

(٢٤) MAGOULIAS, PP. 314-315; CASTRIES, P. 345.

(٢٥) MAGOULIAS, PP. 315-316; CASTRIES, P.345-346

(٢٦) MAGOULIAS, PP. 317-318; CASTRIES, PP. 346-347.

(٢٧) MAGOULIAS, P. 318; CASTRIES, PP. 347-348.

(٢٨) MAGOULIAS, PP. 318-319; CASTRIES, P.348.

(٢٩) MAGOULIAS, PP. 323-324; CASTRIES, P.348.

(٣٠) MAGOULIAS, PP. 324-325; CASTRIES, PP. 349-350.

(٣١) أطلق عليه المؤرخون المسلمون اسم «باليان بن بيزان» تارة (أنظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ- بيروت ١٩٦٦- جـ١١، ص ٥٤٧؛ ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - تحقيق جمال الدين الشيال- القاهرة ١٩٥٣-١٩٥٨- جـ٢، ص٢١١-٢١٢) و«باليان بن بارزان» تارة ثانية. أنظر: البنداري: سنا البرق الشامي- تحقيق فتحية النبراوي - القاهرة ١٩٧٩ - ص ٣٠٩، ٣١١.

(٣٢) ESTOIRE D'ERACES, PP. 88-89, DANS R.H.C., H. OCC., t.II, PARIS, 1844-1895. CF. MICHAUD, J., HISTOIRE DES CROISADES, PARIS, 1849, t.II, P.54.

(٣٣) ابن الأثير : جـ١١، ص٥٤٩ ؛ ابن واصل: جـ٢، ص٢١٤.

(٤٢) ERACLES, P.96.

(٣٥) في هذا المعني أورد هرقل في مصدره المكتوب بالفرنسية القديمة : «JE VOS DIRAI COMMENT SALADIN FIST GARDER LA CITE DE JERUSALEM, POR CE QUE SARRASIN NI FEISSENT TORT NE DAMAGE"

(٣٦) ابن الأثير: جـ١١، ص ٥٥١ ؛ أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين - القاهرة ١٢٨٧هـ - جـ٢، ص١١٥ ؛ ابن واصل: جـ٢، ص٢١٥-٢١٦.

(٣٧) ERNOUL, CHRONIQUE, ED. MAS-LATRIE, PARIS, 1871, PP.174-175; ERACLES, PP. 98-99. CF. MICHAUD, II, P.57.
والملاحظ تطابق رواية أرنول مع رواية المؤرخ المجهول لحولية هرقل تطابقا يكاد يكون تاما.

(٣٨) ابن واصل: جـ٢ ، ص٢٣١ ؛ أبو شامة : جـ٢، ص ١١٥ ؛ المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك - تحقيق محمد مصطفي زيادة - القاهرة ١٩٥٦م - جـ١، ص٩٤ ؛ الذهبي: دول الإسلام - الدكن ١٣٣٧هـ- جـ٢، ص٧٠.

(٣٩) ERACLES, PP. 99-100.

(٤٠) ERACLES, PP. 100-101.

الموضوع الخامس
المسلمون والصليبيون في معركتى المنصورة
«دراسة في فن الحرب»

دكتور فايز نجيب إسكندر
أستاذ تاريخ العصور الوسطي
ورئيس قسم التاريخ
كلية الآداب - جامعة بنها

البحث في فنون الحرب إتجاه جديد في الدراسات التاريخية، ميدانه فسيح عميق مهمل علي امتداد العصور لاسيما العصور الوسطي، تلك العصور التي احتدم فيها الصراع بين الشرق والغرب.

ولقد جرت عادة كثير من المؤرخين والباحثين أن يدرسوا الحروب عند تعرضهم لها من حيث أسبابها الداعية إليها، والنتائج المترتبة عليها؛ صارفين النظر عن الجانب الفني فيها، وذلك باستثناء القليل منهم الذي عالجها من تلك الناحية، ولكن في كثير من الإيجاز والتعميم، بحيث لا يخرج القارئ مما كتبوا بصورة واضحة لفن الحرب وطرق القتال.

والجدير بالذكر أن للمسلمين تاريخ حربي مجيد يمتد منذ فجر الإسلام. ولقد ظل فن الحرب عندهم يتطور خلال الحقبة الوسيطة من التاريخ تحت تأثير عوامل عديدة حتي بلغ درجة فائقة من القوة أيام الأيوبيين والمماليك في مصر والشام، مما أمكن المعسكر الاسلامى من إلحاق شر الهزائم بالحملات الصليبية في القرن السابع الهجري/ القرن الثالث عشر الميلادى، ومن طرد البقية الباقية من الصليبيين من الساحل الشامى فضلا عن صد خطر المغول عن بلدان المشرق الإسلامي.

(*) بحث شارك به الباحث في «احتفالية كلية الآداب، جامعة المنصورة، بالعيد الماسي العاشر لانتصارات مصر في معركة المنصورة» وذلك يوم الأحد الموافق ٥ مارس سنة ٢٠٠٠م.

وفن الحرب هو فن حشد القوات، وتدبير كل القوي اللازمة للقتال، سواء أكانت تلك القوي مادية أم معنوية، وسواء أكان ذلك قبل المعركة بفترة طويلة أم قصيرة، أم في المعركة ذاتها. ففي تلك الحالين تظهر دراية الحكام، وبراعة القواد؛ وعلي مقدارهما يكون النصر أو الفشل في المعارك المختلفة(١).

غير أنه يلاحظ أن فن الحرب في المعارك العديدة التي دارت بين المسلمين والصليبيين لم يحظ بقدر وافٍ من عناية الكتاب والباحثين في الشرق والغرب علي السواء، مثلما حظيت بقية ألوان المعرفة الأخري. فقد اعتاد المؤرخون أن يدمجوا الأحداث العسكرية ضمن الأحداث السياسية التي مرت بالبلاد، ولم يتناولوا بالدراسة الأسباب العسكرية للانتصار أو الهزيمة، وكذا تطور صناعة الأسلحة، وأسلوب القتال، وطرق التدريب وما إلي ذلك.

وللوقوف علي طبيعة الفن الحربي الذي كان يتقنه الأيوبيون أثناء حملة لويس التاسع علي مصر، ونوع التنظيم الذي كان مفضلا عندهم سواء في حالة الهجوم أو فى حالة الدفاع؛ كذلك موقف الصليبيين في معاركهم ضد الأيوبيين، وما يمكن استخلاصه من وراء ذلك؛ كل هذا يستلزم أن نتناول بالدراسة والتحليل المعارك الحاسمة التي دارت بين الطرفين المتصارعين.

والأمر الجدير بالملاحظة أن المعسكر الإسلامى لم يقنع بالوقوف موقف المدافع الذي ينتظر حتي يغير عليه أعداؤه فيقوم بدفعهم، بل استن خططاً بارعة في الدفاع بأن يخرج للقاء أعدائه الصليبيين فور علمه بنواياهم العدوانية؛ وبذلك يتسني له عرقلة رسوهم وزحفهم في الأراضي المصرية والشامية، أو القضاء عليهم قبل أن يكمل

(١) فايز نجيب إسكندر : المسلمون والصليبيون - دراسة في فنون الحرب- الاسكندرية ١٩٩٩- ص٤.

استعدادهم[١]. فعندما بلغ الصالح نجم الدين أيوب خبر استعداد قائد الحملة الصليبية السابعة لويس التاسع في قبرص للتوجه إلي مصر، توجه من القاهرة إلي قرية «أشموم طناح»[٢] فنزلها في ٣ صفر سنة ٦٤٧هـ[٣]/١٨ مايو سنة ١٢٤٩م، وأصدر أوامره في الحال بالاستعداد، فشحنت دمياط بالذخائر والأقوات وآلات الحرب، وشرع حالا في تقوية وسائل الدفاع عنها، وجعل فيها بني كنانة[٤]، وهم مشهورون بالشجاعة[٥].

---

(١) فايز نجيب إسكندر : ص ١٧١.

(٢) «أشموم طناح» إحدي المدن المصرية القديمة واسمها القبطي Chemoum Erman وسماها المسلمون «أشمون الرمان» نسبة إلي اسمها القبطي، وتقع علي الشاطئ الشرقي للبحر الصغير المسمي آنذاك بحر أشموم نسبة إليها. وقد ذكر ابن دقماق أنها «تعرف باسم أشموم طناح وأشموم الرمان، وهي قصبة كورة الدقهلية، وأنها مدينة ذات حمامات وأسواق وجامع وفنادق ... ومساحتها ١٧٥٨ فداناً» (راجع: الانتصار لواسطة عقد الأمصار، القاهرة ١٣١٠هـ، جـ٥، ص ٦٨ - ٦٩ ؛ ابن مماتي : قوانين الدواوين - نشر عزيز سوريال عطية - القاهرة ١٩٤٣م- ص٨٩). وقد استمرت قصبة إقليم الدقهلية حتي آخر عصر سلطنة المماليك. وفي أوائل الحكم العثماني أصبحت المنصورة عاصمة للاقليم، فاضمحلت بالتالي أشموم طناح، وتحولت اليوم إلي قرية من قري مركز دكرنس. أنظر: أبو المحاسن : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة- القاهرة ١٩٢٩- جـ٦، ص ٣٢٨، حاشية ١. وكذلك Maspero Et Wiet, Materiaux Pour Servir A La Geographie De L'Egypte, xxxvi, pp. 17-19.

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - مخطوط بمكتبة جامعة الاسكندرية رقم ٦٤ «تصوير شمس» - جـ٢، لوحة ٣٥٥ ب ؛ العيني : عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان - مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤ تاريخ «تصوير شمسي» - جـ١٨، ق٢، لوحة ٢٩٥.

(٤) «بنو كنانة» إحدي القبائل العربية التي استقرت بمصر، وهم من بقايا العرب الذين وفدوا إليها وشهدوا الفتح الاسلامي لها علي يد عمرو بن العاص في عهد الخليفة عمر بن الخطاب. (أنظر : المقريزي : البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب - القاهرة ١٩١٦- ص٢٠ - ٢١). هذا، وقد ذكر المقريزي أنه كانت توجد في أيامه (ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م) طائفتان في مصر بهذا الاسم، هما بنو كنانة بن خزيمة بن مدركة ... بن عدنان بصعيد مصر، وبنو كنانة بن عذرة بن زيد اللات ... بن قضاعة بالدقهلية والمرتاحية (انظر: البيان والإعراب، ص ٥٠ - ٥١ و ٦٢ - ٦٣). والراجح أن الذين عهد إليهم الصالح أيوب بحماية دمياط هم كنانة عذرة الذين يقطنون بالدقهلية لقربها من دمياط. أنظر : السويدي : سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب. بغداد ١٢٨٠هـ - ص٢٨. وكذلك : Michaud, Histoire Des Croisades, Paris, 1882, t. IV, p.133

(٥) ابن واصل : جـ٢، لوحة ٣٥٦ أ ؛ المقريزي : الخطط - بولاق ١٢٧٠ هـ - جـ١، ص ٢١٩

كما بعث يأمر نائبه في القاهرة - الأمير حسام الدين بن أبي علي[١]- بتهيئة سفن الأسطول وتعميرها بالرجال والعدد، وتسييرها إليه. فاجتهد في ذلك وأرسلها إلي دمياط شيئا بعد شئ. ثم أرسل الملك الصالح أيوب الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ[٢] علي رأس جيش كبير. ليعسكر في البر الغربي لدمياط، حتي يكون في مقابلة الصليبيين عند وصولهم إلي الشاطئ المصري، وليحول بينهم وبين النزول إلي أرض مصر[٣]. في حين اتخذ لنفسه ولقواته موقعا حصينا، ومن هناك تأهب لقتال الغزاة. ولما شاهد المسلمون أسطول الصليبيين يقترب من الشاطئ، أمطروهم بوابل من أسلحتهم، ثم ألقي الفرسان المسلمون بأنفسهم في مياه البحر لمهاجمة الصليبيين والحيلولة دون رسوهم علي الشاطئ، وتراشق المتحاربان بالسهام والرماح، واستمر القتال في البر والبحر من الصباح الباكر حتي وقت الظهيرة، وانتهي اليوم بانتصار الصليبيين علي المسلمين بعد أن أجهزوا علي عدد كبير منهم[٤].

---

(١) جمع الأمير «حسام الدين بن أبي علي» بين وظيفتي نيابة السلطنة وتولية دار الصناعة. أنظر: ابن واصل : جـ٢ ، لوحة ٣٥٥ أ.

(٢) يذكر ابن واصل أن «الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ» كان كبير المطامع، عريض الآمال . فيوم ملك الصالح أيوب مصر، ركب فخر الدين ركبة عظيمة ودعا له المصريون واحتفوا به حتي أن السلطان استشعر منه وألزمه داره فترة من الوقت خشية علي مركزه (أنظر : مفرج الكروب ، جـ٢، لوحة ٣٦٢ ب). ويبدو أنه كان يطمع في السلطنة، إذ جاء في ابن واصل في موضع ثان أنه :«كان قد انتهي إلي قريب رتبة الملك الصالح نجم الدين أيوب، وكانت همته تترقي إلي الملك». أنظر : مفرج الكروب ، جـ٢، لوحة ٣٦٦ أ.

(٣) ابن واصل : جـ٢ ، ص٣٥٧ أ ؛ النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب ، جـ٢٧ ، لوحة ٩٠ ؛ المقريزي : السلوك ، جـ١ ، ق٢، ص ٣٣٣ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ٦ ، ص ٢٣١ - ٢٣٢.

(٤) Jean De Beaumont, Lettre A Geoffroi de la Chapelle sur La Prise de Damiette, Dans A.O.L., t. I. Paris, 1881, p.390 ; Guy De Melun, Lettre a B. De Carn., Sur la Prise de Damiette, Dans Michaud, t.VI, Paris, 1822, p.651 ; Robert D'Artois, Lettre du Conte D'Artois sur la Prise de Damiette, Dans Michaud, t. VI, Paris, 1822, p.610 ; Joinville, pp. 86-88; Rothelin, pp. 590-591; Jean Sarrasin, p. 165.

كذلك اعتني المسلمون باختيار المكان الصالح للمعركة. ومما يدل علي ذلك أن «الهرثمى» في مصدره «مختصر سياسة الحروب» عقد الباب السادس عشر للحديث عن «اختبار موضع المصاف للقاء الزحف» بيّن فيه كيف يحمى القائد ظهر قواته، وكيف يختار لقلب الجيش جبلا أو أرضاً صلبة ؛ إلي غير ذلك من النصائح التكتيكية التى تدل علي أن المسلمين كانوا ينظمون قواتهم طبقا لما تمليه عليهم أرض المعركة وتضاريس البلاد[1]، التي كانوا علي علم ومعرفة بها أكثر من أعدائهم الصليبيين.

فبعد سقوط دمياط في قبضة القوات الصليبية في ٢٢ صفر ٦٤٧هـ/٦ يونيو ١٢٤٩م، وكان السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب معسكراً بأشموم طناح والمرض يشتد به يوماً بعد يوم، ولكنه مع ذلك لم يفقد شجاعته، وقد رأي بثاقب بصره وبصيرته أن الاستراتيجية العسكرية تتطلب موضعاً أكثر ملائمة لقتال الصليبيين عند زحفهم إلي القاهرة، فإن قدراً كبيراً من نجاحه يتوقف علي اختيار موقعه، بحيث يكون جيشه في مكان حصين يضمن سلامته في حال الدفاع والهجوم، فاختار الانسحاب مع جيشه جنوباً إلي مدينة المنصورة[2]،

(١) الهرثمي : مختصر سياسة الحروب - تحقيق عبد الرؤوف عون - القاهرة ١٩٦٤ - ص ٣٣-٣٤.

(٢) تحت عنوان «ذكر بناء المنصورة» أورد ابن واصل تحت أحداث سنة ٦١٦هـ أن « الملك الكامل ابتني مدينة سماها المنصورة، عند مفرق البحرين الآخذ أحدهما إلي دمياط، الفاصل بينها وبين جيزتها، والآخر إلي أشموم طناح ومصبه في بحيرة تنيس. ونزل فيها بعساكره وبني عليها سوراً علي بحر النيل». (انظر : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - تحقيق حسنين محمد ربيع - القاهرة ١٩٧٢ - جـ٤، ص٣٣. وكذلك : حسنين محمد ربيع : النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين - القاهرة ١٩٦٤- ص٧٠) وعنها قال المقريزي : «المنصورة ، هذه البلدة علي رأس أشموم ، تجاه ناحية طلخا، بناها السلطان الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب في سنة ست عشرة وستمائة، عندما ملك الفرنج مدينة دمياط، فنزل في موضع هذه البلدة، وخيم به، وبني قصراً لسكناه، وأمر من معه من الأمراء بالبناء، فبني هناك عدة دور، ونصبت الأسواق. وأدار عليها سوراً مما يلي البحر، وستره بالآلات الحربية والستائر». أنظر : المواعظ والاعتبار - بولاق ١٢٩٠هـ- جـ١ ، ص ٢٣١ ؛ أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، جـ٣، ص ١٢٢.

واستقر بها يوم الثلاثاء ٢٤ صفر ٦٤٧هـ [١]/٨ يونيو ١٢٤٩م. وكان الصالح قبل توجهه إلي المنصورة قد أمر بتشييد المباني فيها وجعل بينها وبين البحر سوراً ليحول دون اعتداء المغيرين عليها. فلما وصل إليها شرع الجند المصريون في تجديد هذه المباني للسكني، كما نصبوا بها الأسواق، وبدأوا في تحصين المدينة فأصلحوا السور الذي كان يحيط بها من ناحية البحر وستروه بالستائر خاصة الجزء المطل منه علي ناحية النيل. ثم اجتمع بالمدينة أنواع الكتائب النظامية وغير النظامية من جند المماليك والعربان، وكذلك المطوّعة[٢] الذين كان عملهم الوعظ والإرشاد والحث علي الجهاد؛ فضلاً عن عوام الناس الذين قاموا بعمليات البيع والتجارة والخدمات اليومية. كذلك قدمت الشواني والحراريق حاملة الأزواد والمعدات والأسلحة والمقاتلة والرجالة. وبذلك امتلأ النيل عند المنصورة بأنواع السفن الحربية؛ كل ذلك في سبيل الوقوف في وجه المستعمر الصليبي إذا ما تحرك من دمياط جنوباً صوب القاهرة[٣].

ومن المنطقي أن يضع الصالح نجم الدين أيوب الاعتبارات الاستراتيجية نصب عينيه في قتاله ضد الصليبيين المسيطرين علي دمياط آنذاك، لذا اختار الانسحاب إلي المنصورة، ذلك الموضع المثلث الشكل، والذي سبق أن اختاره والده الكامل محمد

---

(١) ابن واصل : جـ٢ ، لوحة ٣٥٧ أ ؛ المختصر ، جـ٣ ، ص ١٨٧ ؛ تتمة المختصر ، جـ٢ ، ص١٨١ ؛ عقد الجمان ، جـ١٨ ، ق٢ ، لوحة ٣٠٢ ؛ مسالك الأبصار ، جـ٢٧ ، م٣ ، لوحة ٢٦٧ ؛ السلوك ، جـ١ ، ق٢ ، ص ٣٣٧ ؛ الخطط ، جـ١ ، ص ٢٢٠.

(٢) ذكر ابن منكلي أن أهل العلم اختلفوا في الفرق بين «المطوّعة» والمسترزقة من الجند. ويري ابن منكلي انه إذا استويا في العلم بصناعة الحرب، فالمطوع أعلا رتبة ؛ وإن رجح أحدهما عن الآخر فهو أعلا لأن المعول علي العالم بصناعة الحرب. للتفاصيل أنظر : الأحكام المملوكية، لوحة ٧٧.

(٣) ابن واصل : جـ٢ ، لوحة ٣٥٧ أ ؛ السلوك ، جـ١ ، ق٢ ، ص ٣٣٧ ؛ عقد الجمان ، جـ١٨ ، ق٢ ، لوحة ٣٠٢ ؛ الاسحاقي ، ص ١٢٤. أنظر أيضا : Grousset, Histoire des Croisades, Paris, 1936, t. III, p. 447; Valentin, F., Abrege de L'Histoire des Croisades, Tours, 1885, p. 240; Lecoy de la Marche, Saint Louis Son Gouvernement et sa Politique, Tours, 1894, p. 95.

أثناء الحملة الصليبية الخامسة علي مصر، ولأن المنصورة محصنة بضلعين مائيين هما فرع دمياط وبحر أشموم ذلك البحر المشهور بشدة انحدار جانبيه وسرعة تياره. هكذا كان الصالح حكيما في اختياره هذا، ويؤكد حنكته في الاستراتيجية القتالية كون المنصورة تمتاز بموقع حصين يحميه النيل من ناحية الغرب، بينما يفصل بحر أشموم بين السلطان وجيشه في جنوب المنصورة وبين الجيش الصليبي في الشمال. هذا بالإضافة إلي بعد هذه المنطقة عن قاعدتهم في دمياط بحيث لا يتيسر للغزاة الوصول إليها إلا عن طريق النيل، ويتطلب ذلك أسطولا نهريا إضافة إلي حراسة نهرية وبرية قوية وعديدة. كما أن السفن الصليبية ستتعرض حتما لانقضاض المسلمين عليها ومحاولتهم إغراقها، وبالتالي فإن المحاولات الصليبية للدفاع عنها ضد تلك الهجمات ستستنزف قواهم وتضعفهم. وبالفعل كان الصالح نجم الدين أيوب قد سير الشوانى والحراريق المصرية بالعدد الكاملة والمقاتلة والرجالة، فأرسوا أمام السور استعداداً لمواجهة السفن الصليبية في حال إبحارها من دمياط متجهة جنوبا صوب القاهرة[١] كما سبق أن ذكرنا.

من ذلك كله، يتضح حسن اختيار الصالح لهذا الموضع الحصين. وليس أدل علي ذلك من اكتساب هذا المكان الشهرة العالمية في هزيمة الصليبيين سواء في الحملة الصليبية الخامسة أو الحملة السابعة. هذا تصوير تقريبي لأرض المعركة.

والجدير بالذكر أن النصر في الحروب يأتي نتيجة للأعمال الهجومية، وهي وحدها التي تقرر مصير أحد الفريقين المتحاربين؛ وليس الدفاع إلا وسيلة من الوسائل التي قد يضطر الطرفان لاتباعها لغرض كسب الوقت حتي يتسني لكل منهما أن يعد عدته لاستئناف الهجوم. والمدافع الذي يضطر لاتخاذ موقف الدفاع، يجب عليه ألا يستكين

(١) فايز نجيب إسكندر : المسلمون والصليبيون - دراسة في فنون الحرب- الاسكندرية ١٩٩٩- ص١٧٣-١٧٤.

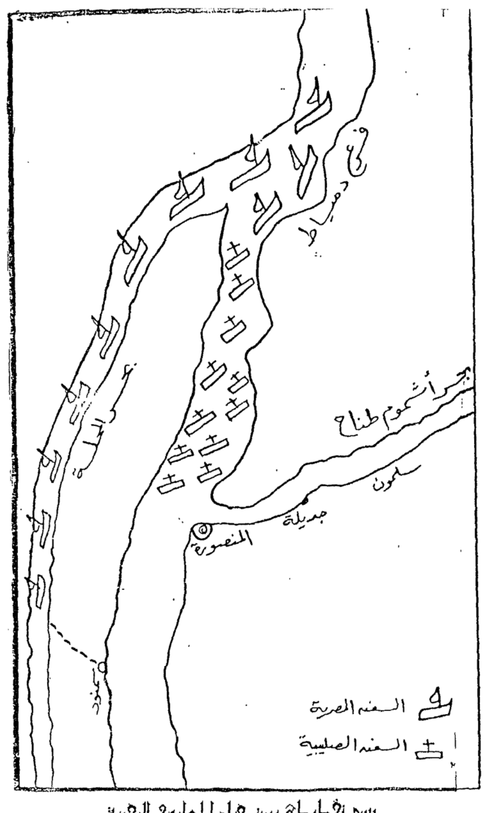
في مواقعه الدفاعية انتظاراً لهجوم عدوه عليه، بل عليه أن يقوم بحركات هجومية تتصف بروح العدوان، ومنها إرسال دوريات للقتال عبر الأرض الحرام الواقعة بينه وبين عدوه لمناوشته أو إزعاجه.أو قتل بعض رجاله، أو أخذ بعض أعدائه أسري، أو تدمير شئ من تجهيزاته حتي تضعف مقاومته أولا، ثم يُضْرَبْ الضربة القاضية. ومنها أيضا محاولة الإحاطة بالعدو إحاطة الدائرة بقطرها، أو اختراع الحيل الحربية الفتاكة لرفع الروح المعنوية للجند وتحطيم الروح المعنوية للعدو.

فبعد سقوط دمياط تواصلت الإغارات علي المعسكر الصليبي لشغل الغزاة عن الخروج منها ومواصلة الزحف علي العاصمة. ولقد قلد الصالح نجم الدين أيوب نفس خطط والده الملك الكامل محمد وذلك لكي يصمد في مواجهة زحف الحملة الصليبية السابعة ويستعد لردها. ويذكر جان سارازان Jean Sarasin مستشار الملك لويس أنه بعد دخول الملك الفرنسي دمياط، لم ير الصليبيون -علي مقربة فرسخين من معسكرهم- إلا عربا من البدو كانوا يأتون المرة تلو الأخري لينقضوا عليهم، وعندما يشرع رماة السهام بالتصويب عليهم، يلوذون بالفرار. وكان فريق آخر من البدو يأتون ليلاً، ويحومون حول المعسكر هادفين من ذلك سرقة الخيول وقطع رؤوس الصليبيين. ويقال إن سلطان مصر كان يعطي مكافأة قدرها عشرة[1] بيزنط[2] Besants مقابل

(١) فى جوانفيل «بيزنط واحد من الذهب» وليس عشرة كما في روتلان وجان سارازان.أنظر: Joinville, p. 98 Rothelin, p. 592; Jean Sarrasin, p. 166; Matt. Paris, t. II, p. 364.

أنظر أيضا: جوزيف نسيم يوسف: العدوان الصليبي علي مصر - الاسكندرية ١٩٦٩- ص١٢٦.

(٢) «البيزنط» Besant عملة ذهبية بيزنطية تعرف في أوربا باسم «صول» أو «صوليدوس» Solidus وانتشرت في ربوعها منذ القرن السادس حتي القرن الخامس عشر تقريبا. وبسقوط القسطنطينية في قبضة العثمانيين سنة ١٤٥٣م، أخذ البيزنط يفقد قيمته ويقل تداوله إلي أن اختفي نهائيا خلال القرن السادس عشر. ومتوسط قيمته آنذاك تساوي نصف جنيه انجليزي. أنظر: جوزيف نسيم يوسف: العدوان الصليبي علي بلاد الشام- الاسكندرية ١٩٧١- ص ٢٠٤، حاشية رقم ٢. والجدير بالذكر أن الآنسة بيرييه Perier في ترجمتها لتاريخ جوانفيل حددت قيمة البيزنط آنذاك- أي سنة ١٩٤٦م - بما يزيد قليلا عن عشرة فرانكات فرنسية. أنظر: Joinville, Histoire de Saint Louis, Trad., A. Perier, Paris, 1946, p.32, n.2.



رسم تخطيطي يبين حيل المعارك البحرية
في النصف الأول من القرن الثالث عشر

كل رأس صليبي تجلب له، حتي أن العرب البدو كان يقطعون رؤوس القتلي، ويخرجون من باطن الأرض جثث الموتي من القبور لقطع رؤوسها وإحضارها للسلطان، طمعا في الحصول علي المكافأة التي وعدهم بها السلطان[١].

وهكذا سعي الجميع للمشاركة في الجهاد في سبيل الله وطرد الغزاة من البلاد، فنشطت الأعمال الفدائية، وكثرت حرب العصابات. ويذكر چوانڤيل Joinville - شاهد العيان ومؤرخ حملة لويس التاسع والمشارك في أحداثها- أن المسلمين أحدثوا قلقاً واضطرابا داخل المعسكر الصليبي كل ليلة، إذ كانوا يدخلونه خلسة ويقتلون النائمين. فأصيب الغزاة بخسائر كبيرة، واضطر الصليبيين إلي تشديد الحراسة علي معسكرهم، فكلفوا حراسته كل ليلة إلي طائفة من الجند تقوم بالحراسة علي ظهور الجياد. ورغم ذلك الحرص الشديد، تعرض المعسكر الصليبي لإغارات إسلامية متلاحقة إذ أورد چوانڤيل أن المسلمين إذا أرادوا دخوله، انتظروا حتي يهدأ صوت الجياد ويسكت صوت الجند، ثم يتسللون إلي معسكر العدو فيصيبون ما يصيبون، ثم يغادرونه قبل انبلاج غرة الصباح. لذلك أصدر الملك لويس أوامره بترجل الفرقة الموكل إليها الحراسة حتي يسود الأمان ربوع المعسكر الصليبي[٢].

وعلي الرغم من كل هذه التدابير والاحتياطات، فإن حرب العصابات والكرات

---

(١) Joinville, p. 98 Rothelin, p. 592; Jean Sarrasin, p. 165-166; Matt. Paris, t. II, p. 364.

أنظر أيضا: مذكرات چوانڤيل : القديس لويس حياته وحملاته علي مصر والشام - ترجمة حسن حبشي - القاهرة ١٩٦٨ - ص١٠١.

(٢) Joinville, p. 98 Rothelin, p. 592; Jean Sarrasin, p. 165-166; Matt. Paris, t. II, p. 364. Cf. Davis, The Invasion of Egypt in A.D. 1249 (A.H. 647) by Louis IX of France, London, 1897, p.28.

أنظر أيضا : چوانڤيل ، ص١٠١، وكذلك : سعيد عبد الفتاح عاشور : تاريخ الحركة الصليبية، جـ٢، ص١٠٦٤ ؛ ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، جـ٣، ص ٤٥٥.

الليلية هذه أخذت تتوالي علي معسكر الصليبيين. ويعبر عن هذا الهجوم المباغت علي مخيم العدو الصليبي «بالغارة الليلية»، وتحدث غالبا في الصباح الباكر. وهي إحدي الخطط الحربية التي إتبعها الأيوبيون وضايقوا بها الصليبيين، وكان نصيبها النجاح الكبير أغلب الأحيان، خصوصا حين يخلو مخيم العدو من الحراس اليقظين، فيتمكن المغيرون من الدخول خلسة، وينشرون الرعب والخوف والقتل في المعسكر الصليبي. وقد أشار إلي ذلك چوانڤيل كما سبق أن أوضحنا. وكان المجاهدون يهاجمون العدو ويأخذون الأسري ويقتلون الكثيرين. وكان الأسري يصلون تباعاً إلي القاهرة[1]. وكان لوصولهم الأثر الطيب علي نفوس الأهالي وارتفاع معنوياتهم، وبعث حماستهم لمواصلة الجهاد. هذا بينما كان العدو الصليبي في شدة من كثرة هجمات المسلمين.

والجدير بالذكر أن البحرية المصرية قامت بدور حاسم في صد الحملة الصليبية السابعة عن مصر، إذ تصدت للسفن الصليبية ومنعتها من التوغل جنوباً، واصابتها بالشلل التام. ويرجع ذلك إلي نجاح المسلمين في وضع السفن الإسلامية خلف السفن الصليبية، فحالت بين مراكب الصليبيين الآتية من الشمال وبين الوصول إلي معسكرهم. وكانت النتيجة الطبيعية أن نفدت المؤن، وهددت المجاعة المعسكر الصليبي[2].

(١) للتفاصيل أنظر : ابن واصل : جـ٢ ، لوحة ٣٥٧ أ - ٣٥٨ ب ؛ المقريزي : الخطط ، جـ١ ، ص ٢٢٠؛ السلوك ، جـ١ ، ص٣٣٧. وكذلك : جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبي علي مصر ، ص ١٢٧ ؛ محمد مصطفي زيادة : ص ١٢١ - ١٢٢ ؛ فايد حماد عاشور : الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في العصر الأيوبي - القاهرة ١٩٧٧- ص ٣٧٦. وأيضا : Davis, p.28.

(٢) فايز نجيب اسكندر : ص ١٧٨.

كذلك لم يدرك الصليبيون أن أصعب العمليات الحربية هي عمليات العبور للموانع المائية. فالأنهار والبحار والترع والمستنقعات تعتبر موانع طبيعية، يستغلها المدافع استغلالاً كبيراً لعرقلة تقدم عدوه المهاجم. ولقد أثبت التاريخ الحربي صعوبة اجتياز هذه الموانع؛ وخاصة أن عملية العبور تتطلب إعداداً دقيقاً، وتدريباً شاقاً، وجموعاً كثيفة، وسرية مطلقة، وهمة عالية، وروحاً وثابة. هذا فوق أن المدافع الذي يقف خلف هذا المانع المائى تكون لديه فرصة إصابة المهاجم مرة ومرات قبل أن يقرر العبور أو يقدم عليه. وهذا ما حدث بالفعل.

فبعد استيلاء لويس التاسع علي مدينة دمياط في ٢٢ صفر سنة ٦٤٧هـ/٦ يونيو ١٢٤٩م، واصلت جيوش الصليبيين سيرها إلي أن نزلت قبالة جيش المسلمين شمالي بحر أشموم وذلك يوم الثلاثاء ١٤ رمضان ٦٤٧هـ/٢١ ديسمبر ١٢٤٩م، وأصبح بحر أشموم حاجزاً بين معسكرهم ومعسكر المصريين الذي كان يوجد علي الضفة الجنوبية. وكان أول اهتمامات الصليبيين، تحصين معسكرهم بالأسوار والخنادق والمتاريس. وعقب إتمام ذلك، أقاموا المنجنيقات وقاذفات الأحجار وانهمكوا في اطلاق الصخور والأحجار علي المسلمين عبر بحر أشموم لزحزحتهم عن مواقعهم. إلا أن المصريين أفشلوا مخططهم، فخلص الصليبيون أن المصريين يتفوقون عليهم في هذا النوع من فن الحرب، وقرروا الاشتباك معهم وجهاً لوجه. لذا قرر الملك لويس التاسع بناء جسر عبر بحر أشموم ليمر عليه الجيش الصليبي في زحفه علي المسلمين. ورأي الملك الفرنسي أن حماية القائمين بالعمل في البناء تقضي تشييد برجين يعرفان «بالقطبين»، وكان هناك أمام القطبين بنيان لوقاية الواقفين علي الأرض من وابل القذائف التي كان المصريون يمطرونهم بها من ست عشرة آلة كانوا يملكونها لهذا الغرض.

أمام تلك المهمة العسيرة والمحفوفة بالأخطار، لم يسع لويس لكي يحمي جنده الذين يعملون في تشييد الجسر إلا أن أمر بصنع ثمانى عشرة آلة من مثل آلات المسلمين، ووضعها علي الضفة المقابلة. كذلك أصدر الملك الفرنسي أوامره بإقامة جسر متنقل مرتفع يعلوه برج من الخشب، يقف عليه رماة النبال المهرة وحملة القسي. وبعد الانتهاء من تشييد الجسر ذي البرجين، سعوا لإنهاء الجسر الكبير. إلا أن المصريين أفشلوا مخططهم لتفوقهم علي الغزاة في فن الهندسة الحربية. فقد حرصوا حرصا شديدا علي إفساد الجسر الذي أمر الملك ببنائه، فعمدوا إلي حفر فتحات أمام معسكرهم لا تكاد تصلها المياه حتي تندفع فيها مكونة مساحة كبيرة منه، فكانت المياه المحجوزة من الجسر تملأ تلك الحفر، وينشأ منها تيار سريع يتلف الشاطئين. وبذلك أفسد المصريون في يوم واحد ما أجهد الصليبيون أنفسهم ثلاثة أسابيع في عملية، وذلك أنه كلما ردم الغزاة قسما من المجري من ناحيتهم، كلما زادوه المصريون من جانبهم بواسطة الفتحات التي يحدثونها[١].

وفي غضون ذلك، إستخدم المصريون سلاحاً أشد وأفتك من كل آلات الحرب آنذاك، فأحدث ذلك خللا في ميزان القوي بين طرفى الصراع. إذ فوجئ الصليبيون بشعلات مرعبة من اللهب تنصب علي رؤوسهم كأنها آتية من علياء السماء. تلك هي النار الإغريقية Le Feu Gregois. وسميت بذلك لأن مخترعها مهندس إغريقي يدعي كالينكس Callinicus من مواطني مدينة هليوبوليس Heliopolis المصرية- علي حد قوْل بوييه Bouillet - اخترعها في عهد الامبراطور قسطنطين الرابع بوجوناتس (٦٦٨/٦٨٥م) Constantin Pogonat الذي حوصرت القسطنطينية ابان حكمه ست سنوات علي يد المسلمين، فلم ينقذها منهم غير هذا السلاح المريع، مزيج الرعب والموت[٢].

---

(١) Joinville, P.108 ; Rothelin, p.600 ' Jean Sarrasin, p.174 ; Epistola Ludovici, p.1196.

(٢) فايز نجيب إسكندر : ص١٦١. أنظر أيضا : Boullet, Dictionnaire D'Histoire et de Geographie, p.319.

وقد وصفت الأميرة آن كومنين Anne Comnene ابنة الامبراطور الكسيوس كومنين (١٠٨١-١١١٨م) Alexius Comnene الذي شهد عصر الحرب الصليبية الأولي هذه النار الإغريقية في كتابها عن تاريخ أبيها المعروف باسم الألكسياد Alexiade، فصورت هذه النار بما تحدثه من أضرار جسيمة، ثم أوضحت تركيبها فقالت إنها مزيج من النفط والزيت والكبريت المجمد بنوع من الصمغ القابل للاشتعال. وكان هذا المزيج الناري يوضع في أنابيب من النحاس لها فوهة توقد منها، وفي مؤخرتها قوس يدفعها بقوة الضغط إلي الأمام. وكانت تلك الأنابيب النحاسية توضع بكميات كبيرة في اسطوانة مستديرة، وتلقي في مدافع المنجنيق، ثم تقذف علي العدو فتصليه نارا حامية، إذ تنفجر بقوة الاصطدام، فيندلع منها لهيب لا يمكن لإنسان أن يخمده، وينتشر شررها في كل جانب فتجعل ما حولها أتونا متلظيا. وقد جعلها البيزنطيون أكثر فاعلية بأن أدخلوا في تركيبها النفط، وكانت تشتعل علي سطح الماء.

كذلك ذكر أحد كتاب الروم في القرن التاسع الميلادي ويدعي مرقص الإغريقي Marcus Graecus في مصدره "Liber Ignium Ad Comburendos Hostes" فكرة تركيب النار الإغريقية بقوله: «إذا أخذت كبريتاً نقياً مع حامض الطرطريك والصمغ الفارسى والقار الخام والنترات ثم مزجت الخليط معاً، وغمست في هذا الخليط نسيخ الكتان، ثم أشعلت فيه النار، انتشر اللهب في الحال وتطفئ هذه النار الرمل فقط أو الخل[١]».

وقد ظهر نوع منه أشبه بالمفرقعات تحوي الواحدة منه رطلاً من الكبريت المسحوق مع رطلين من الفحم البلدي، أو ستة أرطال من نترات البوتاسيوم مع ملح البارود، ثم

(١) فايز نجيب إسكندر: ص١٦١. أنظر أيضا: Boullet, p.1184.

المزيج في غلافات طويلة ضيقة محكمة أشبه بالخرطوشة تغطي فتحتها بسلك حديدي، وتشعل هذه الأنابيب وتقذف في الهواء فيسمع لها انفجار مدوٍ بصحبة دخان كثيف مسبوق بلهب خاطف.

علي أية حال، كانت النار الإغريقية سلاحا فتاكاً حطم به المصريون الغزاة، وألحقوا بهم شر الهزائم. وقد وصف چوانڤيل - المشارك في الحملة ومؤرخها- هذه النار معجباً فيقول : «في غسق الليل، جاء المسلمون بآلة عجيبة ووضعوها تجاه البرجين اللذين كنا ساهرين علي حراستهما، ثم قذفونا منها بشئ ملأ قلوبنا بالدهشة والرعب، ناراً اتخذت هذه الصورة، إذا اندفعت علي هيئة دائرة كبيرة أو كبراميل من الخمر ذيولها من خلفها كحراب طويلة هائلة، لها دوي مزيج كدوي الصاعقة المنقضة من السماء، ولها صوت يهزم كالرعد القاصف، وهي أشبه ما تكون بتنين طائر في الجو. وكانت هذه النار تلقي ضوءاً متوهجاً حتي أن الرؤية كانت واضحة في المعسكر كما لو كان نهاراً من جراء النار المنبثقة من هذه الكتلة من اللهب».

ولقد استولي الرعب علي الصليبيين أمام هذا السلاح الفتاك. وليس أروع من وصف چوانڤيل لهذا الذعر حين يقول : «وقال السيد جوتييه دو كوري Gautier de Cureil وهو أحد الفرنج المشتركين في الحملة : أيها السادة، نحن في خطر داهم لم نتعرض لمثله من قبل، لأن العدو لو صوب النار نحو أبراجنا وبقينا نحن في أماكننا لهلكنا. ولو أننا غادرنا مراكزنا التي استولينا عليها للحقنا العار. فلا منقذ لنا من هذا الخطر إلا الله. فنصيحتي إليكم أن نخر سجداً - كلما صوبوا هذه النار إلينا- لنبتهل إلي المولي عز وجل أن يحفظنا منها»[1].

---

(١) فايز نجيب إسكندر : ص١٦٢. أنظر أيضا : Joinville, Histoire de Saint Louis, Trad. A. Perier, Paris, 1946, pp.30-31.

ولم يكن الملك لويس نفسه أقل جزعاً من أفراد جيشه، فيقول چوانڤيل : «وكان الملك القديس كلما سمع الأعداء قد رمونا بالنيران الإغريقية، وقف علي سريره ورفع يديه إلي السماء مبتهلاً إلي الله وعيناه مبللتان بالدموع وهو يقول : يا أيها الإله الطيب إحفظ لي شعبى». ويذكر چوانڤيل أيضا أنهم ألقوا عليهم هذه النار الإغريقية ثلاث مرات في تلك الليلة وأن الملك كان أشد ما يكون قلقا علي فرسانه ورجاله كلما رماهم المصريون بها. كما كان يبعث بأحد رجاله للتأكد من أنها لم تحدث خسارة في الأرواح[١].

وبعد ذلك، وضع المسلمون قاذفة النار في اتجاه الصليبيين في النهار التالي لكي يحطموا البرجين- وكانت هذه هي المرة الأولي التي يستخدم فيها المصريون هذه النار في وضح النهار- ورموا بها الفرنج، فاندلعت النيران في البرجين الخشبيين والتهمتهما، فصمم الملك علي بناء برجين آخرين. ولما لم يكن لديه الخشب الكافي لذلك، فقد اضطر إلي جلبه من السفن الصليبية بعد تداوله مع البارونات والقواد في هذا الشأن. وقد تم تشييد هذين البرجين تحت وابل من قذائف الأحجار التي كانت تنصب عليهم. وسرعان ما سلط المصريون النار الاغريقية علي الصليبيين والمعدات الحربية، واندلعت ألسنة اللهب في البرجين؛ وللمرة الثانية يحترقان فيصبحان أثراً بعد عين. وهكذا، بفضل النار الإغريقية، لم يبق للصليبيين حيلة، وتملكهم اليأس، وفترت روحهم المعنوية، الأمر الذي أسهم إلي جانب عوامل أخري، في الحاق الهزيمة بهم[٢].

ولقد تميز المسلمون أثناء حملة لويس التاسع علي مصر بالبراعة الحربية والفن التكتيكي الناجح. فكان من عادة القائد إظهار الهزيمة أمام عدوه ليتبعه فيبعده عن

---

(١) فايز نجيب اسكندر : ص١٦٤. أنظر أيضا : Joinville, Histoire de Saint Louis, Trad. L.F. Flutre, Paris, 1942, p.29

(٢) فايز نجيب إسكندر : ص١٦٤.

معسكره، وتطول خطوط مواصلاته، ثم يكر عليه مرة واحدة، ويصدمه بكل قوته فيهزمه. ويقوي هذا المعني أن «الهرثمى» في مصدره «مختصر سياسة الحروب» نصح قادة المسلمين بأن العدو إذا استطرد لهم فلا ينخدعون ويحملوا عليه، بل ينتظرون حتي يسكن الوهج ويثبت لهم[1].

فبعد استيلاء لويس التاسع علي مدينة دمياط في ٢٢ صفر ٦٤٧هـ/٦ يونيو ١٢٤٩م، واصلت جيوش الصليبيين سيرها إلي أن نزلت قبالة جيش المسلمين شمالي بحر أشموم وذلك في يوم الثلاثاء ١٤ رمضان ٦٤٧هـ/٢١ ديسمبر ١٢٤٩م وأصبح بحر أشموم حاجزاً بين معسكرهم ومعسكر المصريين الذي يوجد علي الضفة الجنوبية[2]. وأخيراً في فجر الثلاثاء ٤ من ذي القعدة/٨ فبراير توجه الجيش الصليبي إلي مخاضة يتقدمه إعرابي[3] خائن[4]. وكان عبور بحر أشموم مخاطرة حربية، لأن الصليبيين كانوا يحاربون فوق أرض غير أرضهم بل هي أرض عدوهم حيث يستطيع أن يستعوض ما يفقده من رجال أو عتاد أو مستلزمات حرب، وحيث يكون هو أدري بطبيعة الأرض ومسالكها. ولقد أثبتت أحداث المعركة صدق ذلك، فلقد كانت عملية

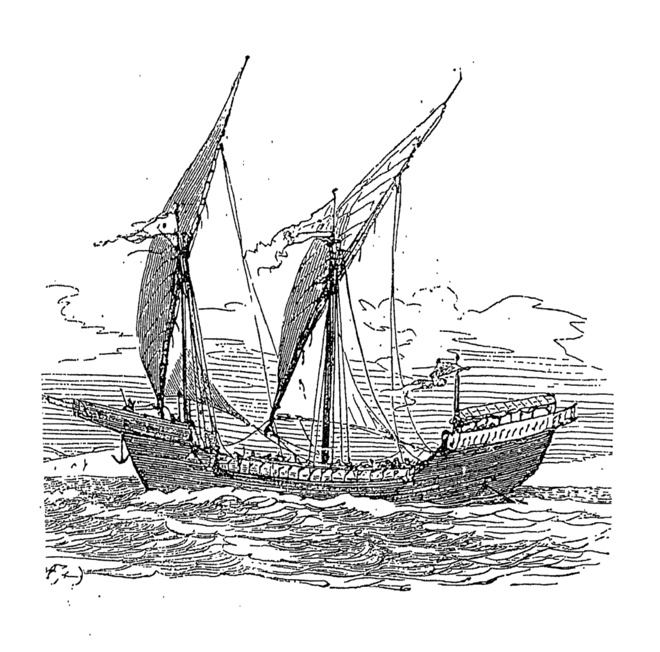
---

(١) الهرثمى : مختصر سياسة الحروب ، ص٣٠

(٢) ابن واصل : جـ٢ ، لوحة ٣٦٤ ب ؛ العيني : جـ١٨ ، ق٢، لوحة ٣٦٧ ؛ ابن أيبك : كنز الدرر ، جـ٧، ورقة ٣٧٦.

(٣) آثر بعض الأعراب العمل في صفوف الصليبيين طمعاً في المال والكسب. فبفضلهم استطاع الأمير الصليبي أرناط صاحب حصن الكرك أن يقوم بحملته البرية والبحرية لغزو مكة والمدينة (أنظر: رحلة ابن جبير- القاهرة ١٣٣٦هـ- ص٥٩ ؛ ابن منكلي : الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية، ورقة ٥٠). ولولاهم ما استطاع ريتشارد قلب الأسد Richard Coeur De Lion ملك انجلترا أن يتعرف خبر قافلة التموين المصرية الذاهبة إلي بيت المقدس، وينزل بها واقعة شنعاء أسفرت عن خمسمائة أسير مسلم وثلاثة آلاف جمل (أنظر : أبو شامة : جـ٢، ص١٩٨). فكانوا علي المسلمين أشد من الصليبيين.

(٤) ابن واصل : جـ٢٢ لوحة ٣٦٦ أ ؛ العيني : جـ١٨ ، ق٢، لوحة ٣٠٧ ؛ خطط المقريزي ، جـ١ ، ص٢٢١ ؛ السلوك ، جـ١ ، ق٢ ، ص٣٤٩ ؛ الاسحاقي، ص١٢٤. أنظر أيضا : Epistola Ludovici (Ed. Bongars), I, P.1196; Rothelin, p.602; Jean Sarrasin, p.176; Joinville, p.118; Cf. Campbell, The Crusades, p.428; Lamb, The Crusades, p.295; Brehier, Les Croisades, p.223.



سفينة تعود إلى عصر حملة لويس التاسع
على مصر

عبور المخاضة شاقة وبطيئة نظراً لعمقها. وعندما وصلت طليعة الجيش الصليبي إلي الضفة الجنوبية لبحر أشموم، شنت هجوما خاطفاً علي المصريين في معسكرهم مكبدة إياهم خسائر فادحة في الأرواح، وشتتت شملهم لأنهم لم يكونوا مستعدين للقتال، إذ لم يخطر علي بالهم أن يهاجموا من هذه الناحية، حتي لقد اضطرت فلولهم إلي الفرار داخل المنصورة للاحتماء بها من ضربات الأعداء[١]. وكان علي الصليبيين بعد ذلك الانتظار إلي حين عبور القوة الرئيسية بقيادة الملك لويس التاسع. لكن روبير كونت أرتوا Robert D'Artois لم يمتثل للأوامر الملكية، ويظهر أنه أراد الانفراد بظفر ذلك اليوم دون بقية الجيوش الصليبية، ورغب في الزحف علي المنصورة دون تمهل[٢]. وقد عارض بقية الصليبيين هذه الخطة العجولة التي تدل علي التهور وعدم التبصر، وأنذروا الكونت من العقبات الوخيمة التي سوف تنجم عنها. كما نصح رئيس جماعة الرهبان الداوية - الخبير بفنون الحرب ووسائل المسلمين في القتال[٣]- كونت أرتوا بالانتظار ريثما يصل الملك ويتكامل عددهم[٤]. لكنه لم ينتصح، ولم ينتظر وصول باقي القوات، إنما اندفع بفرسانه إلي المنصورة وفي أثره باقي الصليبيين[٥]. وانتشر الفرسان في الشوارع والأزقة بحثا عن الغنائم والأسلوب وتمهيداً لذهاب كونت أرتوا

---

(١) Poeme Anglo - Normand sur la Bataille de Mansourah, Paris, 1881, p.328-329; Epistola Ludovici, p.1197; Joinville, p.118; Rothelin; pp.603-604; Jean Sarrasin, pp.177-178; Cf. Lot, L'Art Militaire et les Armees au Moyen Age, Paris, 1946, t.I, p.190.

(٢) Guizot, Saint Louis and Galvin, London, 1869, p.67; Wallon, p.185; Michaud et Poujoulat, Les Croisades, Tours, 1899, p.276.

(٣) Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, London, 1936, p.235.

(٤) Jean Sarrasin, p.179; Rothelin, pp.604-605; Anonymous, Poeme Anglo-Normand, pp.332-333; Matt. Paris, t.II, pp.368-372.

(٥) Joinville, p.120; Cf. Guizot, p.67; Oman, A History of the Art of War in the Middle Ages, London, 1924, t.I, p.346, n.4; Wallon, p.185; Grousset, L'Empire du Levant, Paris, 1946, p.267.

بفرقته إلي القصر السلطاني، في أقصي الناحية الغربية من المنصورة، لطلب التسليم والاعتراف بالنصر الصليبي التام. غير أن كونت أرتوا لم يكد يقترب من القصر السلطاني حتي صدرت أوامر القائد بيبرس البندقداري ببدء حركة تطويقية خطط لها من قبل، فانطلقت فرقة المماليك البحرية الصالحية من كمائنها المحيطة بالقصر السلطاني، وتكاتف شعب المنصورة وفرسان المماليك للدفاع ضد الخطر الصليبي، ثم تحركت كتيبة من فرسان المسلمين المعسكرة خارج المنصورة وأبادت في طريقها نحو القصر السلطاني أعداداً كبيرة من فرسان الصليبيين المنتشرين في الشوارع والأزقة(١). وبذلك تم القضاء علي فرقة الفرسان التي كانت تؤلف مقدمة الجيش الصليبي قضاءاً مبرماً تقريباً(٢)، بعد أن أظهر الفريقان بسالة رائعة(٣). ويرجع السر في ذلك الانتصار الكبير إلي اتقان الحركة التطويقية التي أوقعت كونت أرتوا وجنوده في الكمين الذي أعده المماليك، فضلاً عن إمعان أهل المنصورة في الدفاع عن مدينتهم الجديدة. «فكان من سعادة المسلمين تفرق الفرنج في الأزقة»(٤)، كذلك كانت أول النصر ومفتاح الظفر علي حد قول جمال الدين بن واصل(٥).

هكذا كانت معركة المنصورة الأولي في الحملة الصليبية السابعة بمثابة انتصار مصري أيوبي، انتزعه الأمير بيبرس البندقداري من أنياب الهزيمة، وساعده أهل

---

(١) Epistola Ludovici, p.1197; Eracles, II, p.438; Matt. Paris, II, pp.372-373; Poeme Anglo-Normand, pp.352-353; Rothelin, pp.605-606; Jean Sarrasín, pp.179-180.

(٢) للتفاصيل أنظر : ابن واصل : جـ٢، لوحة ٣٦٦ أ؛ تراجم رجال القرنين ، ص١٨٣ ؛ ابن أيبك : كنز الدرر، جـ٧، ورقة ٣٧٨ ؛ أنظر أيضا : جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبي علي مصر ، ص١٥٩-١٧٠ ؛ محمد مصطفي زيادة : ص ١٥٥-١٥٨ ؛ عبد الرحمن زكي : الجيش المصري في العصر الاسلامي - جـ٢ ، ص١٩٤-١٩٥ ؛ معارك حاسمة في تاريخ مصر- القاهرة ١٩٤٥- ص٤١-٤٢.

(٣) Poeme Anglo-Normand, pp.353.

(٤) ابن واصل : جـ٢ ، لوحة ٣٦٦ أ . أنظر أيضا : Jean Sarrasin, p.180; Rothelin, p.605

(٥) ابن واصل : جـ٢ ، لوحة ٣٦٦ ب. وكذلك المقريزي : السلوك ، جـ١ ، ق٢، ص٣٥١.

المنصورة في هذه العمليات الجريئة مساعدة عظيمة. غير أن الانتصار في هذه المعركة لم يكن من محض الصدفة، ولم يستند إلي شئ من الارتجال، بل هو وليد خطة ماهرة مدبرة في رأس بيبرس البندقداري، وشجاعة دافقة وافرة في قلوب أهل المنصورة التي أضحت مدينتهم قبراً لمقدمة الجيش الصليبي علي حد قول المؤرخ الفرنسي رينيه جروسيه (١) Rene Grousset.

وبذلك كان التهور وعصيان الأوامر هما الصخرة التي تحطمت عليها خطة الصليبيين في الاستيلاء علي المنصورة. ولم يجد وصول لويس وفرسانه فتيلاً، فقد اشتبك مع القوات المصرية الظافرة في معركة كان النصر فيها حليف المسلمين، بينما تكبد الصليبيون خسائر جسيمة في الأرواح، وغرق عدد كبير منهم عند عبورهم بحر أشموم إلي الضفة الشمالية هرباً من الأعداء(٢). وما أن أبصر المصريون المشاة وحملة القسي يصوبون سهامهم إليهم حتي أسرعوا بترك خيامهم وأثقالهم للصليبيين(٣). وبذلك تحول القتال إلي معركة متعادلة(٤). وانجلت معارك يوم الثلاثاء ٤ من ذي القعدة/٨ من فبراير داخل المنصورة وضواحيها، والتي استمرت منذ الصباح الباكر حتي المساء باستيلاء الصليبيين علي المعسكر الإسلامي جنوبي بحر أشموم(٥). وكان هذا هو المكسب الوحيد الذي أحرزوه بعد أن فقدوا الكثير من القتلي والجرحي

---

(١) Grousset, t. III, p.465.

(٢) Joinville, pp.120-128; Rothelin, pp.606-607; Jean Sarrasin, pp.181-182; Epistola Ludovici, p.1197.

(٣) Joinville, pp.134-136. CF. Goyau, Saint Louis, pp.56-57; Benouville, Saint Louis, Paris, 1970, p.180.

(٤) ابن واصل : جـ٢، لوحة ٣٦٦ أ – ٣٦٦ ب ؛ خطط المقريزي ، جـ١، ص٢٢١. وكذلك : De la Marche, Saint Louis, p.99.

(٥) Joinville, p.134; Epistola Ludovici, p.1197.

والأسري. وقال المقريزي معبراً عن نتائج هذه المعركة بقوله «إنها أول ابتداء النصر علي الفرنج»[1].

والجدير بالملاحظة أن انسحاب الجيش الاسلامي من معسكره شمالي المنصورة يعتبر انسحابا استراتيجياً، لأنه انسحاب من الميدان الذي لا يرجي فيه نصرا، إلي ميدان يعاد فيه التنظيم ويكمل فيه الاستعداد الحربي حتي يكون النصر قريباً، حيث أن قدراً كبيراً من نجاح القائد يتوقف علي اختيار موقعه، بحيث يكون جيشه في موقع حصين، يضمن سلامته في حال الدفاع والهجوم. ومن هذا يتضح أن انسحاب القوات الاسلامية يعد خطة عسكرية لها قيمتها، وهو جزء من خطة عامة، نسج خيوطها مقدم الجيش المصري، وكانت تستلزمها ظروف المعركة الحاسمة.

وبفكر رجل الحرب المحنك، اهتم مقدم الجيش المصري بعد إعداد قواته ماديا، بالجانب المعنوي للجند، إيماناً منه بأن معنويات الجند هي السلاح الرئيسي للمعركة، وبأن النصر عند اللقاء يتوقف أساساً علي القوة المعنوية، وبأن الجانب الذي يتميز بمعنويات عالية هو الجانب الذي يحرز عادة النصر. لذلك في صباح اليوم التالي لموقعة الثلاثاء ٥ من ذي القعدة/ ٩ فبراير، أخذ القائد بيبرس البندقداري -وكان بالغ الشجاعة علي حد قول چوانڤيل [2]- درع كونت أرتوا ورداءه، ورفعهما أمام جنوده، لكي يثير الحماسة في نفوسهم ويرفع من معنوياتهم، وقال لهم إن هذا درع الملك ورداءه وأن الملك عدوهم قد مات[3]. والسبب في اتخاذ بيبرس لتلك الحيلة الماكرة، أنه كان يدرك بثاقب بصره أن المسلمين يهتمون بقتل قائد العدو لأنه رأس الجيش

(١) المقريزي : السلوك ، جـ١ ، ق٢ ، ص٣٥١.

(٢) Joinville, (Ed. Natalis de Wailly), Paris, 1906, p.110
أنظر أيضا الترجمة العربية : مذكرات چوانڤيل ، ص١٢٩.

(٣) Joinville, p.144; Cf. Wallon, p.193; Benouville, p.180.



الحلة العسكرية للمقاتل الصليبي في القرن
الرابع عشر الميلادي

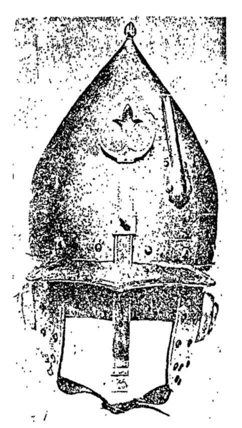


الحلة العسكرية للمقاتل الصليبي في القرن
الثالث عشر الميلادي

وعقله المفكر وقلبه النابض وحماسه المستمر. فإذا فقد الجيش قائده، فقد عنصراً هاماً من عناصر المعركة، وبالتالي فقد القدرة علي مواصلة القتال، لأنه لا يستطيعه دون الرأس المفكر المدبر الذي يحرك ويرتب وينظم سير العمليات الحربية. فغرض بيبرس من تلك الحيلة أن يوهم جيشه بأن معنويات العدو أصبحت في حالة من الانحطاط تضعف عنده الرغبة في القتال، وتقلل من عزمه وحماسته، وتهن من قواه ؛ وهو بذلك يرفع بطريق غير مباشر معنويات جنده، ويثير حماستهم. ويلاحظ أيضا أن الهدف من خطابه هو إثارة الحماسة في الجيش الاسلامي، وإن كان هذا لا يمنع من القول بأن بيبرس كان يعلم تماما أن قائد الحملة لم يمت، وأن الدرع الذي عرضه أمام جنده هو درع أحد الصليبيين الذين ماتوا في المعركة. ولكن الحيلة كانت ناجحة.

علي أية حال، بعد اتخاذ بيبرس لتلك الحيلة الماهرة، حرص علي أخذ رأي الجماعة قبل الإقدام علي هجوم شامل ؛ لأن رأي الجماعة يكون دائما أرجح من رأي الفرد. فالجماعة تري بعيون كثيرة وتفكر بعقول متعددة وتبحث الأمر من مختلف زواياه. هذا فوق أن الشوري مبدأ إسلامي أصيل، فالإسلام قائم علي الشوري، وهي تعني الاستماع إلي رأي أصحاب الرأي والاهتمام به، لأن الإسلام حرص علي روح الجماعة «واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا» و «عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة»، و«يد الله مع الجماعة». وحرص الإسلام يعني الرغبة في تقويم النزعة الفردية وإشاعة عادة تبادل الرأي والتشاور في الأمر والتناصح في كل موطن يقبل التناصح، ويعني استعراض وجهات النظر وتمحيص الآراء والأفكار. ولا عجب في ذلك و«الدين النصيحة»، وإذا كانت النصيحة والشوري وتبادل الرأي ضرورة بالنسبة لأوجه الحياة كلها، فهي من أول الضروريات في شئون الحرب ومن ألزمها. من هذا المنطلق، عقد المسلمون مجلساً تقرر فيه القيام بهجوم شامل كبير للقضاء علي الجيش الصليبي وذلك في يوم الجمعة التالى أي ٧ من ذي القعدة ٦٤٧هـ/ ١١ من فبراير ١٢٥٠م. لكن


خوذة الملك الفرنسي لويس التاسع

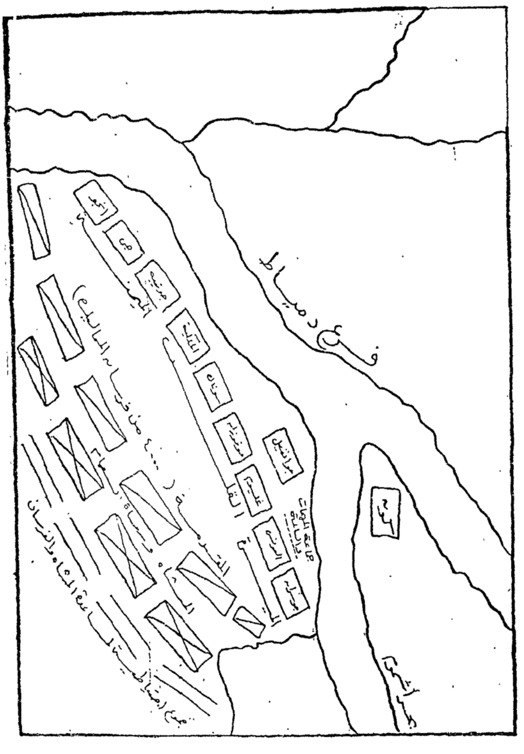

خوذة المقاتل المسلم أثناء حملة لويس التاسع على مصر

الصليبيين عرفوا بأمر هذا الهجوم من عيونهم الذين كانوا مندسين في صفوف المعسكر المصري، فيأتون إليهم بأخبار عدوهم أولا بأول[١]. عندئذ أمر الملك جميع قادة الكتائب الصليبية بدعوة رجالهم لأن يكونوا في كامل عدتهم وسلاحهم قبل أن ينتصف الليل، وأن يقفوا علي رأسهم أمام الخيام داخل السور المصنوع من أعواد خشبية طويلة، متقاربة بعضها ببعض، حتي يصعب علي المسلمين اقتحام المعسكر الصليبي. وكانت الأعواد الخشبية مدقوقة في الأرض علي مسافات قصيرة، بحيث يستطيع الجندي أن يمر بينها سيرا علي قدميه، لا راكبا حصانا. وبادر كل من الفريقين المتقاتلين إلي تنظيم قواته وأعداد العدة لهذا الهجوم المنتظر.

واستعد الصليبيون خير استعداد للقضاء قضاءاً مبرما علي قوة المعسكر الإسلامي، فقسم الملك الفرنسي جيشه في إحدي عشر فرقة ؛ وكانت المشاه الصليبية أكثر عددا من الخيالة، نظرا لكثرة ما خسر الصليبيون من فرسانهم في معركة الثلاثاء ٤ من ذي القعدة/ ٨ من فبراير، إذ جاوز عدد قتلي الفرسان النصف. لذا أمر الملك فرسانه وجنوده أن يقاتلوا وهم مترجلين[٢].

وجعل الملك لويس في أقصي الميمنة المستندة إلي فرع دمياط أخاه شارل كونت آنجو Charles D'Anjou ، فكان موضعه في أول الجيش من ناحية الطريق المؤدي إلي القاهرة. وفيما يلي جيش شارل، وقفت كتيبة البارونات الصليبيين المحليين وزعماؤها جي دبلين Gui D'Iblin وشقيقه بدوان Baudouin . وفيما يلي كتيبتهم، وقفت كتيبة جوتييه دو شاتيون Gautier De Chatillon ، فكانت علي يمين شارل كونت آنجو ؛ وفي القلب وقف الملك لويس التاسع بفرقة الخيالة الملكية، ومعه فرقة الفرسان الداوية برئاسة مقدمهم جيوم دو سوناك Guillaume De Sonnac وفيما

(١) Joinville, p.144; Cf. Wallon, p.193.
(٢) Joinville, p.144; Cf. Bordeaux, p.262; Guizot, p.70.



ترتيبات الجيوش المتقاتلة في معركة المنصورة الثانية
يوم الجمعة ١١ من فبراير سنة ١٢٥٠م

وراء فرسان الداوية وقفت كتيبة جى دو موفوازان Gui De Mauvoisin . وعلي مسافة رمية حجر نحو النهر امتدت قوات جيوم كونت فلاندر Guillaume De Flandre إلي ذلك الفرع من النهر الذي يصب في البحر. وعلي مقربة من السور الممتد من موضع جي دي موفوازان تمركزت كتيبة جوانفيل Joinville مؤرخ الحملة. هذا عن قلب الجيش الصليبي ، أما في الميسرة، فقد وقف الفونس كونت بواتييه Alphonse De Poitiers شقيق الملك فيما وراء كتيبة جيوم كونت فلاندر. وكانت كتيبته مكونة معظمها من المشاة، ووراءهم جماعة المهمات وباعة الأطعمة وأتباع المعسكرات. ووراء كتيبة كونت بواتييه، وقفت كتيبة جوسيران دو برانسيون Josserand De Brancion وتتكون من المشاة هي أيضا. وأخيراً، تمركزت الفرقة الحادية عشر بقيادة هنري دوكون Henri De Cone علي الضفة الشمالية لبحر أشموم ؛ بينما انتظمت الفرق العشر الأخري علي طول الضفة الجنوبية في مواجهة المعسكر الإسلامي(١).

ومن الدراسة الاستراتيجية لموقع المعسكر الصليبي يتضح أن الملك الفرنسي لم يكن في شئون القتال من العباقرة. لقد كان قليل الإلمام بالفنون الحربية. لذلك أساء اختيار مواقعه. علما بأن قدراً كبيراً من نجاح القائد يتوقف علي مهارته في اختيار مواقعه الاستراتيجية بحيث يكون جيشه في موضع حصين منيع صعب المرام، يضمن سلامته في حال الدفاع والهجوم.

والجدير بالملاحظة أن موقع القوات الصليبية كان سيئاً للغاية، فقد كانت تحوطهم من خلفهم وعلي جانبيهم أنهار وترع ضيقة وعميقة سريعة الجريان. كذلك كان أمامهم الجيوش المصرية الجرارة علي أهبة الاستعداد لافتراسهم، وكان سبيلهم للاتصال

(١) Joinville, pp. 146, 148, 150, 152 ; Rothelin, pp. 608-609; Jean Sarrasin, pp.182-184. Cf. Wallon, pp.193-195; Boulenger, La Vie De Saint Louis, Paris, 1929, p.139.

بمعسكرهم في الضفة الشمالية لبحر أشموم قنطرة خشبية صغيرة إضافة إلي عدة جسور من السفن لربط القوات الصليبية المتواجدة شمال بحر أشموم بالقوات المكلفة بحراسة المعسكر الصليبي ؛ ثم إن الجيش الصليبي ولو أن جناحه الأيسر كانت تحميه بعض الشئ فرقة حملة القسي تحت قيادة هنري دو كون المرابطة علي الضفة الشمالية مع قوات دوق برجنديا ؛ إلا أن الجناح الأيمن كان مكشوفاً أمام القوات المصرية التي كانت تهدده بقواتها الهائلة وتفوقها في العدة والعدد(١). وهكذا كان علي الجيش الصليبي أن يدفع ثمن ذلك الخطأ. وبالفعل مني الجناح الأيمن من الجيش الصليبي بخسائر فادحة فاقت تلك التي أصابت الجناح الأيسر، وسبب ذلك أن الجناح الأيسر كان يحميه من الضفة المقابلة حملة القسي ورماة السهام. هكذا كان التصوير التقريبي لأرض المعركة.

هذا عن المعسكر الصليبي، وفي المعسكر الإسلامي، وضع مقدم الجيش بيبرس البندقداري (٢)- بطل موقعة المنصورة الأولي- خطة الهجوم التي تدل علي مهارته في تدبير الخدع والحيل والتكتيكات الحربية. فميدان المعركة هو ميدان المفاجآت، والقائد الناجح هو الذي يعد لهذه المفاجآت العدة، ويجهز نفسه دائما لمواجهتها والتعرف حيالها. ولقد أدرك بيبرس أن أية معركة تستلزم منه قبل خوضها تقديراً لموقفه وموقف عدوه، إذ بناء علي هذا التقدير للموقف، يضع القائد الخطة التي يواجه بها عدوه. وجدير بالذكر أن تقدير الموقف من العمليات الشاقة التي تحتاج إلي ذهن متوقد ومقدرة علي الفهم والبحث والاستقصاء والقائد الكفء القدير هو الذي يستطيع أن

---

(١) Wallon, pp. 193-194 ; Davis, p.42.

(٢) يؤكد النص الفرنسى القديم لمذكرات جوانفيل أن قائد الجيش المصري في ذلك الحين هو بيبرس البندقداري. أنظر في ذلك :

Joinville, (Texte Original), Paris, 1906, p.110, n.2; Ch. 286,p.119, Et n.3.

يقدر الموقف تقديراً سليماً صائباً، لأن هذا التقدير هو الذي يقرر نتيجة المعركة إلي حد بعيد. ولقد تميز بيبرس بحسن تقدير الموقف بحيث أنه كان يدخل المعركة مطمئناً إلي نتيجتها.

وكيفما كان الأمر، فقد بدأ مقدم الجيش المصري في تدبير خطة اللقاء الحاسم، وكان يؤمن بأن الهجوم خير وسائل الدفاع. ففحص أرض المعركة فحص القائد المجرب، وبدأ في إعداد تنظيم محكم، كما شرع في ترتيب قواته لتواجه نظائرها من قوات الصليبيين ولترقب حركاتهم وتحركاتهم، وتصد هجماتهم، فقسم جيشه إلي ثلاثة أقسام، ولكن علي نظام آخر يخالف نظام الصليبيين[1]. جعل القوات الاسلامية في جبهة تشبه قوساً من الفرسان والخيالة. ففي المقدمة حشد بيبرس في مواجهة الجيش الصليبي أربعة آلاف من فرسان المماليك بكامل عدتهم وسلاحهم، بحيث وصلت أطرافها إلي أقصي أطراف الميمنة والميسرة الصليبية. وبذلك طوقت أطراف المعسكر الصليبي كله تطويقاً تاماً. وعسكر وراء هذه الجبهة من الفرسان والخيالة المصرية جموع كبيرة من مشاة المماليك النظاميين والرماة لحماية حركتها الهجومية. وفي المؤخرة، اصطفت جموع إحتياطية مشتركة لمساعدة الفرسان والمشاة إذا اقتضت الضرورة ذلك ولحماية المؤخرة من أية حركة جانبية[2].

ولما انتهي القائد المصري من تنظيم جيوشه وترتيب صفوفها وأماكنها، تقدم بمفرده علي ظهر جواده ، وسرح البصر في صفوف الأعداء وفرقهم، فكان يأمر بزيادة جنده حيث يري جندهم أكثر عدداً، وابقائها كما هي في الأماكن التي يراهم فيها أقل قوة. وجعل كتائبه قوية بالقياس إلي الكتائب الصليبية التي أمامها. فالقائد المحنك هو

---

(١) جوزيف نسيم يوسف : ص ١٨٠ ؛ زيادة : ص ١٧٠ - ١٧١.

(٢) Joinville, p.146; Cf. Wallon, p.193.

الذي يعرف فقط الضعف عند أعدائه، حتي إذا ما وجه ضربته كان واثقا من نتيجتها القاضية. ولكي تصبح الخطة سديدة ومحكمة، أصدر أوامره كذلك إلي الأعراب وكانوا قرابة ثلاثة آلاف بعبور بحر أشموم وشن الغارات علي المعسكر الصليبي الشمالي. والذي قام علي حراسته دوق برجنديا، والواقع بين نهر النيل وبحر أشموم اعتقادا منه أن الملك الفرنسي سوف يبعث بجانب من قواته إلي الضفة الشمالية لمساعدة الفرقة المعسكرة هناك ضد هجمات الأعراب؛ وبذلك يضعف الجيش الصليبي المعسكر علي الضفة الجنوبية ويزداد أمل المسلمين في إحراز الغلبة عليه. أو لعل القائد المصري قد بعث بهؤلاء الأعراب إلي بحر أشموم لعلمه أن فرقة المشاة ورماة السهام الموجودة هناك، قد تسبب لجيوشه بعض المضايقات - الأمر الذي حدث فعلا أثناء الموقعة- فأراد عرقلة نشاطها أو الحد منه. وهكذا ظل القائد المصري منهمكا في الاستعدادات والترتيبات للموقعة المرتقبة منذ صبيحة يوم الجمعة حتي وقت الظهيرة[١].

وإن نظرة فاحصة إلي ذلك التكتيك، تظهر براعة مقدم الجيش المصري في استغلال إمكانياته البشرية، وتظهر أيضا أنه أعد لكل شئ عدته ورتب قواته أفضل ترتيب.

ويؤخذ مما تقدم، أن كلا من الجيشين كان يسير علي حذر، ويتقن النظم، ويتخذ الحيطة، لعلمه بأنه مقدم علي معركة حاسمة سيكون لها شأن كبير علي الأحداث التالية.

علي أية حال، ظل بيبرس منهمكا في ترتيب صفوفه حتي إذا ما انتصف نهار الجمعة وقف وسط جنوده في مهابة وجلال، وبإشارة من يده أعلن بداية المعركة، فدوي

(١) Joinville, p.146; Cf. Wallon, p.193; Goyau, p.137; Boulenger, p. 137 ; Lot, t.I., p. 190.

أنظر أيضا : جوزيف نسيم يوسف : ص ١٨٠ - ١٨١ ؛ زيادة : ص ١٧٠ - ١٧١.

في الفضاء فجأة أصوات الطبول والكوسات والنقارات والأبواق الحربية، وكأنما زلزلت الأرض وانتفضت السماء بقصف الرعود. فامتلأت بالدهشة والروعة قلوب أولئك الصليبيين الذين ما دق سمعهم من قبل مثل هذا الصوت الرهيب علي حد قول جوانفيل المشارك في المعركة. ثم اندفع فرسان المسلمين ومشاتهم بأعدادهم الهائلة وآلاتهم الحربية صوب الفرق الصليبية من جميع الجهات وفي وقت واحد تقريبا. وتنقلت فرسانهم في ساحة الميدان بنظام دقيق وعجيب، علي حين أخذت نبال الرماة وقذائف النيران الاغريقية تعمل عملها بين فئات الصليبيين. وكانت تعليمات لويس التاسع أن يثبت القادة الصليبيين في مواقعهم من الميدان مهما تكلفوا في سبيل ذلك من خسائر، وأن يحفظوا لصفوفهم تكويناتها الدفاعية حتي تنتهي وطأة الهجوم المصري، انتهاء مابه من حماسة ومادة حربية. ولذا حمي القتال بين الفريقين المتحاربين إلي درجة ارتفعت بتلك الواقعة إلي مستوي الوقائع الحاسمة في التاريخ. والملاحظ أن جان ساراسان Jean Sarasin -مستشار الملك الفرنسي- وصف المقاتلين المصريين الذين خاضوا غمار تلك المعركة بأنهم «حيوانات متوحشة تغمرهم الشجاعة الفائقة»، وأضاف أن المعركة بين الطرفين المتصارعين استمرت حتي الساعة الثالثة بعد الظهر[1].

ثم بلغ الملك لويس أن الميمنة الصليبية قرب فرع دمياط، بقيادة أخيه شارل كونت انجو Charles D'Anjou ، والذي كان موضعه في أول الجيش من ناحية الطريق المؤدي إلي القاهرة، بلغه أن المسلمين تقدموا نحوه لقتاله كما لو كان لاعب ماهر يحركهم علي رقعة شطرنج. فقد تركوا أمر الهجوم عليه أولا إلي مشاتهم الذين أخذوا يرمونه بالنار الإغريقية. ثم إنهم شددوا عليه الهجوم بالخيالة والمشاة معا في عنف وسرعة حتي أنهم تغلبوا عليه، وتمكنوا من هزيمة كتيبته بينما وقف بين فرسانه وقد

(١) Jean Sarrasin, P.184 ; Rothelin, p. 608.

اشتد به الضيق. وجاء جماعة من الفرسان إلي الملك، وأخبروه بالحرج الذي تردي فيه أخوه، فلما سمع بذلك ركض بحصانه، وشق طريقه وسط كتيبة أخيه وسيفه في قبضته يقتل به من المسلمين من يصيبه. ومع ذلك فقد أصابته ضربات كثيرة قوية منهم، ورموا حصانه بنارهم الاغريقية فأحرقوا سرجه وذيله. وبهذا الهجوم الذي قام به لويس التاسع،أمكن انقاذ أخيه من براثن الموت، كما تمكن من دفع المسلمين عن مواضعهم(١).

وفيما يلي جيش كونت انجو علي يمينه، تمركزت كتيبة البارونات الصليبيين المحليين بقيادة جي الأول دبلين Gui D'Ibelin وأخيه بدوان الثاني دبلين Baudouin D'Ibelin . وفيما يلي كتيبتهم، وقفت كتيبة جوتييه دو شاتيون Gautier De Chatillon أظهرت الكتيبتان شجاعة رائعة في القتال، فقد دافعت عن مواضعهما دفاعا مجيدا بحيث استحال علي المسلمين تفريقهم، أو زحزحتهم إلي الوراء(٢).

واختلف الحال عن ذلك في ناحية الوسط من القلب الصليبي حيث وقف رئيس الداوية جيوم دوسوناك Guillaume De Sonnac وبصحبته الفئة القليلة التي بقيت له من فرسانه بعد مقتل معظمها في معركة المنصورة الأولي وذلك يوم الثلاثاء ٤ من ذي القعدة/ ٨ من فبراير. ولما كان شاعرا بضعف قواته. فقد أقام أمام معسكره حاجزاً من المتاريس، يتكون من بضعة من بقايا المجانيق المصرية التي استولي عليها الصليبيون والتي كانت متروكة في هذه الناحية من القلب، وفوقها ألواح من الخشب لإخفائها عن الأنظار. غير أن المسلمين ألقوا بالنار الاغريقية علي هذا السور الخشبي الذي أقامه الفرسان الداوية، فاشتعلت النار فيه بسرعة، لأن الداوية كانوا قد أحاطوه

(١) Joinville, p. 112. Cf. Wallon, p. 193 ; Goyau, p. 58 ; Boulenger, pp. 137-138.

(٢) Wallon, pp. 193-194 ; Grousset, t.III, pp.431-432.

بألواح كثيرة من الخشب الرقيق. وكان المسلمون علي درجة كبيرة من الشجاعة حتي أنهم انقضوا علي الداوية من خلال اللهيب المشتعل. وفي هذه المعركة، فقد جيوم دو سوناك، مقدم فرسان الداوية، إحدي عينيه، وكان قد سبق له أن فقد عينه الأخري في معركة المنصورة الأولي. ثم لم يلبث أن مات متأثرا بجراحه العديدة. كما مات معظم البقية الباقية من فرسانه، لكثرة ما انهال عليهم من رمي النبال وقذائف النار الاغريقية. ويمكن القول أن هذه الفرقة لم تقم لها بعد ذلك قائمة[١].

أما الصفوف الصليبية الأخري من ناحية الوسط من القلب حتي الميسرة، فكان أقربها إلي مواضع فرقة الفرسان الداوية فرقة فرنسية بقيادة جي دو موفوازان Gui De Mauvoisin . وقد أخفقت القوات الإسلامية في التغلب عليها، علي الرغم من أنهم رموا قائدها بالنار الاغريقية، إلا أن رجاله نجحوا بعد جهد كبير في إطفاء لهيبها. ثم جاءت فرقة الفلاندريين بقيادة جيوم دو فلاندر Guillaume de Flandre ، ووراءها تمركزت فرقة جوانفيل Joinville والشمبانيين. ويبدو أن فرقة جوانفيل لم يهاجمها المسلمون لأنها لم تكن في مواجهتهم مباشرة، إذ كانت خلف جيوم دوفلاندر وفرقة جي دو موفوازان. بينما هاجم المسلمون علي كونت فلاندر بالخيالة والمشاة، في حماسة وشدة لكونها أمامهم وجها لوجه، وكادوا أن يلحقوا بها الهزيمة لولا أن أمر جوانفيل رجاله من رماة الأقواس أن يرموا علي خيالة المسلمين، فلاذوا بالفرار، وتركوا مشاتهم. وعندما رأي رجال الكونت ذلك، ألقوا بأنفسهم من فوق السور، وهجموا علي مشاة المسلمين وهزموهم. وهكذا، فإن مواضع الفرقة الفلاندرية وفرقة جوانفيل عند منعطف السور الخشبي جعلهما بنجوة نسبية من هجمات أمامية كثيفة. هذا بينما حمد جوانفيل الصدفة الحميدة التي جعلته وفرقته الشمبانية خلف فرقة جيوم لأنه وفرسانه

---

(١) Grousset, t. III, p. 432, m.2; Wallon, p. 194;
أنظر أيضا : جوزيف نسيم يوسف : ص ١٨٣.

لم يكن لديهم ملابس مزردة ولا تروساً، إضافة إلي أنه لم يكن قادرا علي أي دفاع أو مقاومة بسبب ما لحقه من جراح سابقة صبيحة يوم مخاضة سلمون[1].

أما ميسرة الجيش الصليبي، فكان علي رأسها الفونس كونت بواتييه Alphonse De Poitiers شقيق الملك. وتمركزت تلك الكتيبة فيما وراء كتيبة كونت فلاندر، وكانت مكونة من المشاة -كما سبق القول- ولم يكن فيها راكب فرسه إلا الكونت نفسه. وكان نصيب هذه الكتيبة هزيمة تامة، فضلا عن وقوع زعيمها نفسه أسيراً. وعندما سمع القصابون والنسوة القائمات علي بيع الأطعمة، وغيرهم من أتباع المعسكر الصليبي، بخبر وقوع الكونت أسيراً فى أيدي المسلمين، ملأوا المعسكر بصياحهم، وخشوا مما سوف يحل بهم من الأسر والهوان وضياع العيش، فانقضوا في جنون علي المسلمين، وتمكنوا من إطلاق سراح كونت بواتييه واخراج المسلمين من معسكرهم[2].

ووراء كتيبة كونت بواتييه، وقفت كتيبة جوسيران دو برانسيون Josserand De Brancion وهي أضعف الكتائب في الجيش الصليبي بأجمعه. وجوسيران هذا كان قد جاء مع كونت بواتييه إلي الأراضي المصرية، وكان من أحسن الفرسان الذين ضمهم المعسكر الصليبي. ورتب رجاله بحيث غدا جميع فرسانه مشاة، وامتطي هو من بينهم جميعاً جواداً. ولقد هاجم المسلمون رجاله عدة مرات، فكان كلما رأي رجاله منهزمين، إنقض علي مؤخرة المسلمين، ويفضي ذلك بالتالي إلي تحول الهجوم عليه شخصيا. إلا أن هذا ما كان ليحول دون أن يتمكن المسلمون من قتلهم جميعا في ميدان القتال لولا هنري دوكون Henri De Cone الذي كان واقفا عبر المجري المائى للضفة الشمالية لبحر أشموم في طرف كتيبة دوق برجنديا، والذي أصدر أوامره إلي الفرقة الملكية من حملة القسي للرمي علي المسلمين عبر بحر أشموم كلما رآهم يهاجمون جوسيران دو

(١) Joinville, p. 114. Cf. Wallon, pp. 194-195; Boulenger, pp. 138-139.
(٢) Joinville, p. 150-152. Cf. Wallon, pp. 194-195; Boulenger, p. 139.

برانسيون، فأنقذوا بعض رجالها، ولو أن دو برانسيون نفسه أصابه من الجراح ما جعله عاجزاً عن الوقوف علي قدميه، حتي أنه مات من تلك الجراح التي أصابته، وخر بجواره صفوة فرسانه ومعظم البواسل من جنده[1].

هكذا تعتبر معركة يوم الجمعة ٧ من ذي القعدة ٦٤٧هـ/ ١١ من فبراير ١٢٥٠م -أي معركة المنصورة الثانية - من أشد المعارك وأعنفها في تاريخ الحروب الصليبية. فقد تغلبت القوات الإسلامية في هذه المعركة علي أربع فرق صليبية من الفرق الإحدي عشرة التي كان يتكون منها الجيش الصليبي، كما أنزلت بالاسبتارية ضربة قاسية حيث قتل نائب رئيسهم جان دو رونيه Jean De Rene، ولكنها لم تتمكن من فتح ثغرة لها في الجيش والنفاذ بين صفوفه[2].

وبالرغم من الانتصار الظاهري الذي أحرزه الصليبيون في موقعتي الثلاثاء (٤ من ذي القعدة ٦٤٧هـ/٨ من فبراير ١٢٥٠م) والجمعة (٧ من ذي القعدة ٦٤٧هـ/ ١١ من فبراير ١٢٥٠م)- إذ تمكنوا في الأولي من الاستيلاء علي المعسكر الاسلامي جنوبي بحر أشموم؛ وأفلحوا في الثانية في الاحتفاظ بمراكزهم، وصد هجمات القوات الإسلامية التي أطبقت علي فرقهم من جميع الجهات- بالرغم من هذا الانتصار الذي أحرزوه، فإنه كان يحمل بين طياته بواعث الهزيمة. فهم لم يظفروا بحلمهم المنشود في الاستيلاء علي المنصورة، والتقدم جنوباً صوب العاصمة. كما فقدوا عدداً لا يستهان به من فرسانهم ومشاتهم، وحطم المسلمون معظم معداتهم وعتادهم، مما أضعف قواتهم وساهم إلي حد كبير في التعجيل بالنهاية الأليمة التي منيت بها هذه الحملة.

---

(١) Wallon, p.195 : أنظر أيضا : جوزيف نسيم يوسف : ص ١٨٤ - ١٨٥.

(٢) Rothèlin, p. 608 ; Jean Sarrasin, p. 184 ; Epistola Ludovici, p. 1197. Cf. Delaville Le Roulx, Les Hospitaliers en Terre Sainte Et A Chypre, Paris, 1904, p.196.

هكذا لم يحذق قادة الجيش الصليبي أصول استراتيجية الحرب وفنونها ؛ وكان جهلهم بجغرافية البلاد المصرية وطبيعة أراضيها، اضافة إلي عدم عنايتهم الكافية بدراسة المعارك التي دارت من قبل بين الصليبيين والمسلمين في وادي النيل لكي لا يقعوا في عين الأخطاء التي وقع فيها أسلافهم، وكذا فقدانهم مزية المفاجأة نتيجة خلودهم إلي الراحة مرات عديدة دون حساب لاهمية عامل الزمن في الحروب، كل ذلك كان من أهم أسباب فشل حملة لويس التاسع علي مصر.

الموضوع السادس
المقاومة الإسلامية في مواجهة العدوان الصليبي علي تونس

— حولية بريما واهميتها :

تعد المــادة التاريخيــة التى زودتنــا بها « حولية بريمــا »[1] Chronique de Primat — عن « حياة القديس لويس » فيما يتعلق بحملته الصليبية على تونس[2] سنة ٦٦٨ — ٦٦٩ هـ/١٢٧٠ م — من أهم المصادر الأجنبية والاسلامية على السواء ، اذ تتسم بالسرد التفصيلى لأحداث الحملة . وزاد من أهميتها أنها انفردت دون غيرها من المصادر بتزويدنا بلوحة رائعة مجسدة للمقاومة الاسلامية للوجود الصليبى على الأراضى التونسية تبعث على الدهشة ، اذ تبرز حيوية وجدية هذه الحرب الاستنزافية وحسن تنظيمها ، رغم أن المصادر الاسلامية تكاد تكون تدء أهملت اهمالا تاما هذا الجانب الهام والفعال من الأحداث التى جعلته المعسكر الصليبى — على حد قول بريما — يقف على قدميه ليل نهــار

---

(١) نشرت حولية بريما فى مجموعة مؤرخى بلاد الغال وفرنسا . انظر :

Recueil des Historiens des Gaules et de la France, Paris, 1894, t XXIII, Chronique de Primat traduite Par Jean Du Vignay, pp. 1-106.

وسنشير الى هذا المصدر تحت اسم Primat .

(٢) شملت هذه الأحداث الصفحات التالية :

Primat, ch. XXIII — LVI, pp. 39 — 83.

لمواجهة وافشال مخططات الفدائيين المسلمين وحيلهم الماكرة . كذلك انفردت حولية بريما ، دون غيرها من المصادر الاسلامية أو اللاتينية ، بتسليط الأضواء على فنون القتال لدى الطرفين المتصارعين . وتطرقت أيضا الى أسلحة كل منهما ، وشهدت ببراعة المقاتل المسلم وخفة حركته[3] ، بينما لاحظت أن المقاتل الصليبى يتسم بالثقل فى الحركة نتيجة رزوحه تحت عبء أسلحته الثقيلة التى أثقلت كاهله[4] . لقد أظهرت حولية بريما السلطان الحفصى المستنصر بالله[5] (٦٤٧—٦٧٥هـ , ١٢٤٩ — ١٢٧٧ م) بمظهر البطل المقدام الذى يدافع عن ربوع بلاده ضد العدو الجاثم على صدره ، مما يبعث على الاعجاب الشديد بمحتويات

(3) Primat, 73.

(4) Primat, 74.

(٥) الحفصيون اسرة من البربر فى شمال افريقية ، حكمت « افريقية » نحو ثلاثة قرون (٦٢٦ — ٩٨١ هـ/١٢٢٨ — ١٥٧٤ م) . وقد نسبت هذه الأسرة الى الشيخ ابى حفص عمر . وكان ابو عبد الله محمد المستنصر بالله (٦٤٧ — ٦٧٥ هـ/١٢٤٩ — ١٢٧٧ م) بحق أقوى حاكم فى افريقية المسلمة . نتيجة لهذا ، لم يقنع بلقب الأمير الذى قنع به والده « ابو زكريا » (ت ٦٤٧ هـ/١٢٤٩ م) فلقب نفسه « بالخليفة » و« أمير المؤمنين » . ونجح فى الحصول على وثيقة من شريف اشراف مكة تجعله وريثا للخلفاء العباسيين . للتفاصيل انظر الذهبى : تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والاعلام — مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٤٥٢ تاريخ — ورقة ٤٣ . وعن الذهبى نقل الصفدى فى الوافى بالوفيات — مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٢١٩ تاريخ « تصويرشمسى » — ج ٥ ، ورقات ٢٠٢ — ٢٠٤ . ، القيروانى : المؤنس فى أخبار افريقية وتونس — تونس سنة ١٣٥٠ هـ — ص ١٢٠ . ، الزركشى : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية تحقيق محمد ماضور — تونس ١٩٦٦ ، ص ٣٢ — ٤٠ . ، ابن القنفذ القسنطينى : الفارسية فى مبادىء الدولة الحفصية — تحقيق محمد الشاذلى النيفر وعبد المجيد التركى — تونس ١٩٦٨ ، ص ١١٧ — ١٣٤ ، ابن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر — دار الكتاب اللبنانى ١٩٦٨ — المجلد السادس القسم الثالث ، ص ٦٢٦ وما بعدها . ، احمد ابن ابى الضياف : اتحاف اهل الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الأمان — تونس ١٩٧٦ — ج ١ ، ص ٢٠٣ — ٢٠٨ . ، ابن الشماع : الأدلة البينة النورانية فى مفاخر الدولة الحفصية — تحقيق الطاهر بن محمد المعمورى — تونس ١٩٨٤ ، ص ٦٢ — ٦٩ .

مادتها التاريخية البالغة الأهمية ، فقلما نجد حولية طيبية تمجد بطولة أحد زعماء المسلمين فى حربه ضد الوجود الصليبى . وهكذا نستشف من بين سطور الأحداث التاريخية أن بريما كان محايدا بعيدا عن الانحياز الى جانب بنى جنسه .

وحولية بريما عن « حياة القديس لويس » تعد أكمل المصادر على الاطلاق ، التى تتبعت خط سير حملة لويس التاسع الصليبية على تونس بتفاصيل تتسم بالدقة البالغة ، وقد أدرك أهميتها البالغة جيوم دى نانجى[٦] Guillaume de Nangis فى تأريخه لسيرة القديس لويس ، فنقل عنها نقلا يكاد يكون حرفيا حينا، وجنح الى التلخيص أحيانا أخرى . الا أنه من المعتقد أن بريما ونانجى نقلا عن مصدر واحد . ورغم ذلك ، فمما لا شك فيه أن حولية بريما تعد أهم وأثمن المصنفات التاريخية التى

---

(٦) الف جيوم دى نانجى مصنفا عن فضائل القديس لويس واعماله بعنوان Gesta sanctae memoriae Ludovici regis Franciae نشر فى مجموعة مؤرخى بلاد الغال وفرنسا (انظر : R. H. G. F., t. XX, pp. 313-465.) اهدى نانجى مصنفه الى الملك الفرنسى فيليب الجميل (١٢٨٥ — ١٣١٤ م). (انظر R. H. G. F., t. XX, p. XLVIII انظر ايضا جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبى على مصر — الاسكندرية ١٩٦٩ — ص ٧ — ٨ وحاشية رقم ٤) . نقل نانجى عن حولية بريما نقلا يكاد يكون حرفيا حينا ، وجنح الى الاختصار احيانا اخرى . كذلك اعتمد فى مصنفه على مصنفى جيلون دى ريمز Gilon de Reims وجيفوفروا دى بوليو Geoffroi de Beaulieu وعلى غيرهما من المؤرخين . والجدير بالملاحظة ان المؤرخين المعاصرين له لم يذكروا عنه شيئا
(R. H. G. F., t. XX, p. XLVIII; t. XXIII, p. 2.)
زودنا جيوم دى نانجى أيضا بسيرة لفيليب الثالث
(R. H. G. F., t. XX, pp. 467-539)

اضافة الى ذلك كتب جوليتين وصلتا فى سردهما التاريخى الى نهاية القرن الثالث عشر ، شملت الأولى النصف الأولى من عهد فيليب الجميل ، ذيل عليها مؤرخ مجهول الى عام ١٣١٣ م ووصل بها مؤرخ ثان مجهول الى سنة ١٣٢٨ م . ثم كان تذييلا ثالثا توقف بالحولية عند عام ١٣٦٨ م .
انظر : R. H. G. F., t. XX, p. XIV
ولمزيد من التفاصيل انظر : R. H. G. F., t. XX, pp. XIV, XLVIII

غطت أحداث القرن الثالث عشر الميلادى / القرن السابع الهجرى ونعد مصدرا أدبيا له ثقله ووزنه[٧] •

كتب بريما حوليته باللغة اللاتينية وترجمها الى الفرنسية القديمة جان دو فينيى Jean du Vignay • وزاد من أهمية الترجمة الفرنسية القديمة أن الأصل اللاتينى فقد ، ولم يعثر على أي أثر له الى الآن ، وبالتالى أصبحت الترجمة هى المصدر الوحيد عن هذا السفر التاريخى الهام[٨] •

وقد اكتشف العالم الفرنسى بول مييير Paul Meyer حولية الراهب روبير دى بريما Robert de Primat ، وعكف على دراستها ومقارنتها بغيرها من الحوليات • فأثبت — بما لا يدع مجالا للشك — أن الراهب بريما هو مؤلف الجزء الأكبر من سيرة القديس لويس المنسوبة عن طريق الخطأ الى جيوم دى نانجى • أما نانجى ، فقد استفاذ بالجزء الأكبر من المادة التاريخية الواردة فى حولية بريما ، ومزجها بمزيجين : الأول عبارة عن مقتطفات من حوليتى جيوفراو دى بوليو[٩] Geoffroy de Beaulieu وجيلون دى ريمز[١٠]

---

(7) R. H. G. F., t. XXIII, p. 2.
(8) R. H. G. F., t. XXIII, p. 4.

(٩) كان القديس لويس يعترف على يدى جيوفروا دى بوليو . كذلك كان بوليو مستشار الملك الفرنسى طوال عقدين من الزمان وأقدم من أرخ له . رافق بوليو لويس التاسع فى حملته على مصر ، فأسر معه واطلق سراحه معه ايضا . ثم سار فى ركابه الى عكا ، وعاد معه الى فرنسا ثم انخرط فى حملته على تونس وكان بجواره لحظة وفاته . وفور فوز جريجوار العاشر Grégoire X بكرسى البابوية ، كلف بوليو بكتابة « سيرة القديس لويس » Vita Ludovici noni (وردت الحولية فى (R. H. G. F., t. XX, pp. 1-26 . ويؤخذ على مصنف بوليو اهماله ذكر تفاصيل الأحداث السياسية والحربية فى عصر سيده واهتمامه بذكر تفاصيل حركات الهراطقة وسياسة لويس الدينية وتقواه . وهكذا انعدمت فائدته بالنسبة لموضوع البحث . للتفاصيل انظر :
R. H. G. F., t. XX, pp. X, XXVIII — XXX.

=

Gilon de Reims ، أما المزيج الثانى ، فكان القليل من النصوص التاريخية الأخرى والمتعلق أغلبها بأحداث تاريخية لا علاقة لها بتاريخ فرنسا آنذاك[11] ، والذى يبعث على الدهشة أن نانجى لم يشر الى حولية بريما التى استمد منها معلومات فاقت فى صفحاتها ما نقله عن جيوفراو دى بوليو • مما يؤكد القول أن كل من بريما ونانجى نقلا عن مصدر مشترك لازال مفقودا •

وقد أشار الراهب جان دو فينيى[12] الذى ذكر صراحة فى الفصل الرابع والأربعين من الحولية أنه قام بترجمة الأجزاء الأربعة لحولية بريما من اللاتينية الى الفرنسية القديمة ، وذلك بناء على أوامر صادرة اليه من الأخ فانسان Vincent ، أشار الى أنه ذيل على حولية بريما ، وذكر صراحة أن بريما أعد مصنفا عن سيرة القديس لويس وأنه كان معاصرا للملك الفرنسى[13] • ويتضح من النصوص التاريخية التى أوردها بريما أنه عاصر اعتلاء الملك فيليب الجميل Philippe le Bel عرش فرنسا ، وأنه كان لا يزال على قيد الحياة سنة ١٢٨٩ م / ٦٨٨ هـ ، والدليل على

(١٠) كان جيلون دى ريمز راهبا فى دير القديس دينيه Saint Denis حيث تعرف عليه جيوم دى نانجى . والجدير بالذكر أن جيلون دى ريمز توفى قبل أن ينهى مصنفه عن القديس لويس ، فقام نانجى بتذييله . انظر : R. H. G. F., t. XX, p. L.

(11) R. H. G. F., t. XX, p. XLVIII.

(١٢) فى الفصلين الرابع والأربعين والرابع والسبعين ورد اسمه على شكل Jehan de Vignay (انظر : Primat, pp. 63, 105 أما فى الفصل الثامن والأربعين ، فقد كتب على شكل Jehan du Vignaay انظر : Primat, p. 72

(١٣) ورد فى هذا المعنى بالفرنسية القديمة
Pour ce que il est avis frére Jehan de Vignay (qui ay transporté et mis le IIII volumes de ceste presente oeuvre de latin en Francois, selon ce que frére Vincent de L'ordre de Preescheurs L'ordena et fist, avec une adition que je y ai adjoustée seloncle croniques que Prymat fist.. » Primat, p. 63.

ذلك حديثه فى الفصل السادس والسبعين عن تتويج شارل الثالث ملك صـقلية(١٤) .

وعلى النقيض من ذلك ، لا يمكننا القول أنه كتب النص الأخير من الفصـل الثـامن والسـبعين . اذ فيه اشـــارة الى زواج مرجريت Marguerite de France بادوارد الأول Edouard 1er ملك انجلتــرا وذلك ســنة ١٢٩٩ م / ٦٩٩ هـ ، وكذلك زواج بلانش Blanche برودلف Rodolphe دوق النمسا وذلك سنة ١٣٠٠ م / ٧٠٠ هـ(١٥) . فمما لا شــك فيه أن جان دو فينيى هو صاحب هــذه الاضـافات . .

هذا عن روبير دي بريما . أما عن المترجم جان دو فينيى ، فقد ورد فى الفصل الأخـير من المصنف أنه كان من طائفة اسـتبارية القديس جـاك(١٦) Hospitalier de Saint - Jacques ، وأنه بعد أن ترجم « مرآة التـــواريخ » «Mirouer des histoires» لفانســـان دى بوفيـــه Vincent de Beauvais ذيلة بترجمة حولية بريما بنـــاء على طلب من جن دوبور جونيو Jeanne de Bourgogne ملكة فرنسا ، والتى تمنى لهـــا وللملك فيليب الســـادس Philippe VI فى نهاية مصنفه حياة سعيدة ومديدة(١٧) .

الا أنه يؤخذ على ترجمة جان دو فينيى أنها لا تتسم بالبـــلاغة والسلاسة والدقة ، بل بها أحيانا بعض الأخطاء . لكن عيوب هـــذه

---

(14) Primat, ch. LXXVI, p. 103.

(15) Primat, ch. LXXVIII, p. 105.

(١٦) أورد فى هذا الصدد

« Je rent gracs à Dieu et à sa benoite Mére, et à Monseigneur saint Jague, de qui religion Je sui hospitalier».

انظر : Primat, ch. LXXIX, p. 106.

(17) Primat, ch. LXXIX, p. 106.

الترجمة لا تمنع من أنها ساهمت بفاعلية بالغة فى سد فجوة هامة من الأحداث التاريخية فى القرن الثالث عشر الميلادى/ القرن السابع الهجرى[18] •

والجدير بالذكر أن حولية بريما لم يتعرف عليها — الى لحظة كتابة هذا البحث — أى باحث عربى ، لكونها مدفونة فى « مجموعة مؤرخى بلاد الغال وفرنسا »

Recueil des Historiens des Gaules et de la France

الجزء الثالث والعشرون ، أضف الى ذلك أنها مكتوبة بالفرنسية القديمة التى لا يمكن لباحث فك طلاسمها الا اذا كان على اتقان تام للفرنسية الحديثة • كذلك لا يتضح من عنوان الحولية ما تحتوى عليه من مادة تاريخية ، ولم يشر الى مدى أهميتها البالغة أى باحث أجنبى بل ولم تنشر الى الآن بلغة حديثة كما هو حال مصنف جوانفيل ، رغم أن الحولية لا تقل أهمية عن المصنف سالف الذكر ، اذ يمكن القول انها تعد بمثابة الجزء الثانى للمصنف المذكور •

— حرب الاستنزاف الاسلامية فى المصادر العربية :

على أية حال سوف نسلط اضواء على صميم موضوع البحث دون الغوص فى تفاصيل جانبية تبعدنا عن ذلك • فبعد أن فشل السلطان الحفصى فى مساعيه السلمية[19] لابعاد الحملة الصليبية عن بلاده ، أعد

---

(18) Primat, p. 5.

(١٩) عن هذه المساعى السلمية انظر : ابن خلدون : ج ٦ ، ق ٣ ، ص ٦٦ • ، المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك — صححه محمد مصطفى زيادة — القاهرة ١٩٥٧ ، ج ١ ، ف ٢ ، ص ٣٦٥ • ، القيروانى : ص ١٢١ • ، ابن الشماع : ص ٧٠ ، انظر ايضا :

Auctore Gaufrido Bellolgo, Vita Sancti Eudovici, ch. XLI, p. 21.

اذ ورد فى هذا المصدر اللاتينى

«Siquidem antequam Dominus Rex hanc crucem ultimon assumpsi-sset, multos nuncios receperat a rege tunicii, et similiter Rex noster Plures nuncios remiserat ad enumdem».

العدة لمواجهتها . اذ يذكر ابن خلدون[٢٠] أن المستنصر استعد أحسن استعداد لدرء الأخطار عن بلاده ، فحشد الجيوش وعمل على اعدادها أحسن اعداد بالسلاح والعتاد والمؤن ، وحصن الثغور وعبأها ، وقام باصلاح الأسوار واختزان الحبوب[٢١] ، وأرسل الشوانى لاستطلاع أخبار العدو ، ونادى بالجهاد العام[٢٢] . وقبل نزول الجيوش الصليبية ، عقد مجلسا استشاريا للتشاور فى كيفية مواجهتها[٢٣] . كما استنجد بجيرانه وممالكه ، فوصلت اليه الامدادات من كل ناحية[٢٤] . وأصدر

---

(٢٠) يأتى مصنف ابن خلدون « العبر وديوان المبتدأ والخبر » فى طليعة المصادر التاريخية التى الفت فى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى . ويعد « العبر » اكمل واهم المصادر الاسلامية عن حملة لويس الصليبية على تونس (انظر : العبر ، جـ ٦ ق ٣ ، ص ٦٦٣—٦٧١). الا انه يؤخذ عليه انزلاقه الى العديد من الأخطاء . فقد ذكر ان « العلجة زوج الطاغية وتسمى الرينة » شاركت فى الحملة (انظر ابن خلدون : جـ ٦ ، ق ٣ ، ص ٦٦٨) . علما بأن المصادر اللاتينية أجمعت على ان مرجريت زوجة الملك لويس ظلت فى فرنسا ولم تنخرط فى صفوف هذه الحملة . (انظر :
Primat, p. 40 Guillaume de Nangis, Vie de Saint Louis, p. 441.)
وذكر ايضا انه بعد وفاة لويس التاسع « اجتمع النصارى على ابنه دمياط (أى جان ترستان) » (انظر ابن خلدون : جـ ٦ ق ٣ ، ص ٦٧٠). الا ان جان ترستان Jeon Tristan — او دمياط عند ابن خلدون — قد توفى فى الثالث من اغسطس سنة ١٢٧٠ ، بينما توفى والده لويس فى الخامس والعشرين من نفس الشهر اى بعد دمياط وليس قبله . وخلف لويس على العرش ابنه فيليب الثالث وليس جان ترستان المتوفى كما يعتقد ابن خلدون . (انظر : Primat, p. 51) . ثم يصر ابن خلدون على الخطأ حين قال أن الأمور آلت الى الملكة عقب وفاة الملك وأنها راسلت المستنصر عارضة عليه الصلح . ففى هذا الصدد يقول : « وكان أمرهم راجع الى العلجة فراسلت المستنصر أن يبذل لها ما خسروه فى مؤنة حركتهم ، وترجع بقومها » (انظر ابن خلدون : جـ ٦ ، ق ٣ ، ص ٦٧٠ — ٦٧١) .

(٢١) ابن خلدون : جـ ٦ ، ق ٣ ، ص ٦٦٦ .

(٢٢) المصدر السابق ، ص ٦٦٧ .

(٢٣) المصدر السابق ، ص ٦٦٧ — ٦٦٨ .

(٢٤) المصدر السابق ، ص ٦٦٩ . وفى هذا المعنى يقول ابن الشماع « فبعث السلطان — رحمه الله — لأهل الاقطار يستفزهم » . انظر : الأدلة البينة النورانية ، ص ٧٠ .

أوامره الى العلماء والفقهاء والمرابطين بالخروج لمباشرة الجهاد بأنفسهم[٢٥] .

هذا عن رواية « ابن خلدون » الذى نقل أحداث الحملة عن جده[٢٦]، والذى يعد مصنفه أهم وأغزر المصادر الاسلامية على الاطلاق. ثم كانت رواية ابن الشماع الذى اكتفى بالقول : « وفى أثناء اقامتهم كانت بينهم وبين المسلمين زحوف استشهد فيها من سبقت له من الله الحسنى . ومات فى القتال خلق كثير من عظماء النصارى ، ومن سائرهم »[٢٧] . أما المقريزى فقد كان أشد ايجازا اذ قال : « قاتله المسلمون قتالا شديدا قتل فيه من الفريقين عالم عظيم . وكاد المسلمون أن يغلبوا »[٢٨] . أخيرا ذكر محيى الدين بن عبد الظاهر « انه جرت ملحمة كبيرة .. ووقع بينهم وبين أهل تونس مصاف عظيم . واستظهر الفرنج على المغاربة ، وقاربوا تونس»[٢٩] .

ـ المصادر الاسلامية تتهم المستنصر بالتخاذل :

ويبدو أن الانتصار الذى حققه الصليبيون على المسلمين دفع ببعض المصادر الاسلامية الى اكالة الاتهامات للمستنصر ، فأشارت بتقاعسه وقصوره فى مواجهة الأعداء وعدم صلاحيته للحكم . وفى هذا الصدد يقول المقريزى : « وكتب (أى السلطان الظاهر بيبرس) اليه بالانكار عليه فى التظاهر بالمنكرات واستخدام الفرنج ، وكونه لم يخرج الى

---

(٢٥) ابن خلدون : جـ ٦ ، ق ٣ ، ص ٦٧٠ .

(٢٦) فى هذا الصدد يقول ابن خلدون : « ... حدثنى ابى عن ابيه رحمهما الله » . انظر : العبر ، جـ ٦ ، ق ٣ ، ص ٦٦٨ .

(٢٧) ابن الشماع : ص ٧٣ .

(٢٨) المقريزى : جـ ١ ق ٢ ، ص ٣٦٥ .

(٢٩) محيى الدين بن عبد الظاهر : الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر ـ تحقيق عبد العزيز الخويطر ـ الرياض ١٩٧٦ ـ ص ٣٧٣ .

الفرنج لما نازلوه ، وكان مستخفيا ، وقيل له : « مثلك لا يصلح أن يلى أمور المسلمين ، وخوف وأنذر »[٣٠] • كذلك أظهر ابن الشماع تقوقع السلطان الحفصى فى قصره تحت حراسة مشددة قوامها ألف فارس ، الى أن رحل الصليبيون عن تونس • ففى هذا يقول : « ••• لم يخرج الى قتالهم ولا باشره ، وكان ملازما لبابه ألف فارس من الشجعان يقفون عند باب العدو ، الى أن رحل النصارى عن تونس »[٣١] • ويذكر ابن خلدون أن السلطان أراد نقل عاصمته الى القيروان ، اذ يقول : « وابتلى المسلمون بتونس ، وظنوا الظنون • واتهم السلطان بالتحول عن تونس الى القيروان »[٣٢] • الا أن ابن القنفذ القسنطينى[٣٣] يذكر أن هذا التحول كان الى قسنطينة ، اذ أورد فى مصنفه : « ودفع لهم من المال فى الصلح ألف قنطار من الفضة ،بعد أن كان الملك عاملا على سكنى قسنطينة ، وأراد نقل ذخائره وأهله اليها •• »[٣٤] •

ـ أسباب وانعكاسات ذلك :

وعلى الرغم من تركيز المصادر الاسلامية السالفة على اظهار تخاذل وتقاعس السلطان الحفصى فى مواجهة الأخطار المحدقة بربوع بلاده ، ـ ربما لأنه لم يحقق انتصارا يذكر على الغزاة الصليبيين ، أضف

---

(٣٠) المقريزى : جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٦٠١ • انظر ايضا : سعيد عاشور : الحركة الصليبية ـ القاهرة ١٩٦٣ ـ جـ٢ ، ص ١٢٣٧ـ١٢٣٨ •

(٣١) ابن الشماع : ص ٧٣ •

(٣٢) ابن خلدون : جـ ٦ ق ٣ ، ص ٦٧٠ •

(٣٣) اجمل ابن القنفذ القسنطينى اخبار حملة لويس التاسع الصليبية على تونس محيلا فى تفصيلها الى الكتاب المتوكلى • ففى هذا يقول : « والشرح يطول فى خبر هذه الوقيعة ، وبيانه فى الكتاب الكبير المتوكلى • انظر : الفارسية فى مبادىء الدولة الحفصية ، ص ١٣٢ •

(٣٤) ابن القنفذ القسنطينى : ص ١٣٢ •

الى ذلك ابرامه معاهدة مهينة أمليت عليه شروطها[٣٥] ، الا أن ابن خلدون — كما سبق أن أوضحنا — وبعض المصادر اللاتينية على وجه الخصوص أنصفته خير انصاف • اذ أظهرته بمظهر المدافع الحق عن ربوع بلاده ، فكان يدير بنفسه ، من ساحة الوغى ، العمليات الحربية الدائرة بين المسلمين والصليبيين • على أية حال ، لقد انعكس الموقف العدائى للمؤرخين المسلمين على مادتهم التاريخية انعكاسا واضحا ، فلم يشر أى مصدر من المصادر الاسلامية الى التفاصيل الدقيقة لحرب الاستنزاف والحيل الماكرة التى ابتدعها المسلمون فى حربهم المتواصلة ضد الوجود الصليبى الكامن على أراضيهم •

— بريما وتفاصيل أحدث المقاومة الاسلامية :

الا أن هذا القصور الواضح ، وهذه الصفحات شبه الممزقة من المصادر الاسلامية عوضنا عنها روبير دى بريما • فرغم كون حوليته من المصادر الصليبية ، ورغم تأريخه لعدو عقيدته ، الا أنه لم يتورع عن

---

(٣٥) أورد جاريجو جراشان Garrigou - Grandchamp فى دورية الحولية التونسية ، صورة فوتوغرافية واضحة لنفس النسخة العربية لاتفاق السلام والتجارة بين المستنصر والصليبيين والمحفوظ — كما ذكر — بالأرشيف الوطنى بباريس تحت رقم Cote J 297 no. 1 . ثم قام بتحقيقه ونشره باللغة العربية . ولم يكتف بذلك بل قام بترجمته الى الفرنسية . والأهم من كل هذا انه زودنا بدراسة تحليلية نقدية مقارنة كان قد اعدها سلفستر دى ساسى ، تناول فيها مختلف بنود المعاهدة ، وقارن النص العربى بالنصوص اللاتينية التى أوردها جيوم دى نانجى وبيير دى كونديه. الا انه لم يرجع الى نص الاتفاق الوارد فى حولية بريما . على أية حال ، تعد هذه الدراسة التحليلية النقدية — التى حظينا بتصويرها اثناء اعارتنا الى الجزائر — من امتع وأدق الدراسات .. ووصل به الأمر فى الدقة أن اصدر تصحيحا لبعض الأخطاء فى نص الاتفاق الذى نشره لأول مرة باللغة العربية . انظر :

Documents divers relatifs à la Croisede de Saint louis contre Tunis, Revue Tunisienne, an. 1912, pp. 384 - 394, 447 - 470, et an. 1913, pp. 480 - 481.

رسم لوحة رائعة تمجد الأعمال البطولية الشجاعة التى قام بها السلطان الحفصى والشعب التونسى • كذلك أبرز انعكاسات ذلك على المعسكر الصليبى • وبذلك اتسمت كتابات بريما بالدقة والحيوية واعطاء كل ذى حق حقه فسد بحوليته هذه القصور الوارد فى كافة المصادر الاسلامية والكثير من المصادر اللاتينية • وهكذا يمكننا القول أن حولية بريما تعد أكمل المصادر عن العدوان الصليبى على تونس سنة ٦٦٨ — ٦٦٩هـ/ ١٢٧٠ م •

— بريما والمرحلة الأولى من حرب الاستنزاف الاسلامية :

على أية حال ، ابان نزول الجيوش الصليبية على الشاطىء التونسى بدأت حرب الاستنزاف • ففى يوم الأحد الموافق السابع والعشرين من يوليو سنة ١٢٧٠ م/ السادس من ذى الحجة سنة ٦٦٨ هـ ، مثل ثلاثة من فرسان المسلمين الى ساقى الملك ، المكلف بحراسة المعسكر الصليبى آنذك ، وأعلنوا عن رغبتهم فى اعتناق المسيحية والارتداد عن الاسلام • فأبلغ الملك بذلك ، الذى بدوره أصدر أوامره الى جنوده بتشديد الحراسة عليهم • الا أنه بعد قليل جاء فى ركابهم مائة فارس من فرسان المسلمين ، فقاموا بالقاء رماحهم أمام الصليبيين حتى يأمنوا لهم ، وأعلنوا هم أيضا عن رغبتهم فى التعمد واعتناق المسيحية • وحدث أثناء انشغال الصليبيين بالحديث مع الفرسان المسلمين أن انقض بعض الفرسان المسلمين على الغزاة ، وتوحدوا جميعا وأمطروا الصليبيين بوابل من سهامهم بعد أن التقطوها من الأرض • ولاذ الغزاة بالفرار — نتيجة عنصر المباغتة — طالبين النجدات ، وانقلب المعسكر الصليبى رأسا على عقب • وقبل وصول النجدات الصليبية الى أرض المعركة ، عاد المسلمون سالمين دون استشهاد أى منهم ، بينما راح ضحية هذه الحيلة الماكرة ستون قتيلا من مشاة الجيش الصليبى • نتيجة الكارثة ، كسب ساقى الملك سخط الصليبيين ، الذى بدوره عاد ثانية الى الأسرى الثلاثة

المتواجدين فى خيمته ، فلامهم على خيانتهم وغدرهم • فأجابه الأول باكيا أن الحيلة تم تدبيرها فى المعسكر الاسلامى ، ولا علم له بهـا ، وأنه اذا تم اطلاق سراح أحد رفاقه ، فسيأتى بألفين من اتباعه المسلمين الى الملك الفرنسى لتعميدهم • الا أن الصليبيين لم ينطل عليهم هـذا المكر والخيانة — على حد قول بريما — فقاد الساقى الفرسان الثلاثة الى الملك لويس ، فعقد مجلسا استشاريا تم الاتفاق فيه على اطلاق سراحهم(٣٦) •

وان دلت هذه الحادثة على شىء فانما تدل على ارتفاع معنويات المقاتلين المسلمين ، وتصميمهم على مواجهة الوجود الصليبى بحرب استنزافية ضارية تبث القلق والفوضى والاضطراب فى صفوف الصليبيين ، وستؤدى فى نهاية المطاف الى رحيل العدو عن البلاد • وهكذا تلاحقت هجمات المسلمين على الصليبيين دون السماح لهم بأن يلفظوا أنفاسهم •

— تراخى وسكون الجيش الصليبى :

هذا وبدلا من أن يتابع لويس التاسع انتصاراته على الجيوش الاسلامية — اذ كان من السهل عليه أن يلحق بهم الهزيمة تلو الأخرى — أخذ ينتظر قدوم شقيقه شارل دانجو ملك صقلية حتى يشارك فى الحرب ضد المسلمين • وكان العاهل الفرنسى قد وعده بايقاف العمليات الحربية لحين وصوله حتى يحظى بشرف المشاركة فى حرب صليبية ظافرة • وهكذا تجاهل لويس أهمية العامل الزمنى فى الحروب وأثره فى تقرير مصيرها • فالحروب تقوم عادة على السرعة والمباغتة ، لأنها استراتيجية تؤدى الى بث الفوضى والاضطراب فى صفوف العدو • فهذا التراخى والسكون أتاح للمسلمين الفرصة بالانقضاض على الصليبيين انقضاضا ،

---

(٣٦) Primat, ch. XXXII, pp. 48 - 49 وقد نقل عنه نانجى • قارن :
Nangis, pp. 452 d - 454 d.

وازاء هذه الأخطار ، أمر لويس بحفر الخنادق وحل معسكره حفاظا على أرواح الصليبيين من هجمات المسلمين المتلاحقة • الا أنه بمجرد شروع العمل فى حفر الخنادق ، انقض المسلمون على المعسكر الصليبى فى حرب شعواء • وانفرد بريما بالقول أن السلطان الحفصى ترأس بنفسه هذا الهجوم ، وأن كتائب الجيش الاسلامى كانت فى نظام يبعث على الاعجاب •• وكانت المعركة حاسمة لدرجة أن المسلمين — بعد فترة زمنية قصيرة — تمكنوا من السيطرة بجناحيهما على الشاطىء الساحلى • وهكذا تمكن المسلمون من تهديد السفن والمؤن الصليبية ، اذ هدفوا من ذلك تطويق الجيش الصليبى • ونجح المسلمون فى مهاجمة القائمين على حراسة المعسكر الصليبى • أمام هذه الأخطار ، نادى الملك بحمل السلاح ، وخرج الجميع من المعسكر فى نظام • وهكذ نجح الصليبيون فى اجبار المسلمين على الفرار • الا أن كونت دارتو Comte d'Artois واتباعه من ناحية ، ورئيس فرسان الداوية أمورى دى لاروش Amaury de la Roche وبيير مستشار الملك Pierre le Chambellan من ناحية أخرى وبصحبتهم ثلاثين فارسا ، نجحوا فى تعقب كتيبة اسلامية كانت قريبة من السفن الصليبية • فانقضوا عليهم وقتلوا ثلاثة عشر من المسلمين بينما لاذ بالفرار البقية الباقية من الكتيبة •

بعد هذه المعركة ، استشار الملك كبار رجاله اذا كان من الأفضل شن الهجوم الأكبر على المسلمين أو انتظار قدوم شارل دانجو • فأيد البعض الرأى الأول ، وعارضه البعض الآخر • وقال له أحد كبار النبلاء ويدعى ساكيه دى سكونفيل Saquet de Saqueinville « يا سيدى ، أعرف تمام المعرفة أنه اذا هجمنا على المسلمين ، سنحقق نصرا باهرا باذن الله • الا أننى أرجو التكرم بالانتظار والتريث قليلا ، حتى يصبح الجيش الصليبى أكثر ضخامة • وفى هذه الحالة سيكون النصر مؤكدا » • عندئذ ، وصل أمورى دى لاروش ، ونصح الملك

الفرنسى بانسحاب الجيوش الصليبية الى معسكراتها ، فأخذ بنصيحته .
أما المسلمون ، فقد انسحبوا هم أيضا(٣٧) .

ـ المسلمون يعاودون حربهم الاستنزافية :

الا أنه سُرعان ما عاود المسلمون حربهم الاستنزافية ، وخدعهم الحربية الماكرة .

ففى يوم السبت الموافق الثانى من أغسطس سنة ١٢٧٠م / الثانى عشر من ذى الحجة سنة ٦٦٨ هـ ، استدعى ثلاثة من فرسان المسلمين رقيبا فى الجيش الصليبى يدعى راؤول لسكوت Raoul l'escot وقبل المثول أمامه ، قاموا بالقاء رماحهم أرضا ، ووضعوا أيديهم فوق رءوسهم حتى يأمن لهم . وانجذبوا فى الحديث معه طويلا . اذ كان راؤول يجيد العربية ، فقد اتقنها أثناء أسره فى مصر عقب هزيمة لويس التاسع . على أية حال ، عقب انتهاء الحديث ، أشار عليه الفرسان بالانصراف . لكن سرعان ما التقط أحدهم رمحه من الأرض وطعنه طعنة قوية فى جنبه ، فاخترق الرمح الجنب الآخر . ثم لاذ الفرسان المسلمون بالفرار . أما الصليبى ، فقد لفظ أنفاسه فى اليوم التالى ، أى يوم الاحد الثالث من أغسطس / الثالث عشر من ذى الحجة سنة ٦٦٨ هـ(٣٨) .

وما يبعث على الدهشة أن بريما زودنا أحيانا بتفاصيل تكاد تكون يومية عن حركة المقاومة الاسلامية للاحتلال الصليبى وما أسفرت عنه كل معركة من قتلى . ففى يوم الاثنين الرابع من أغسطس سنة ١٢٧٥م / الرابع عشر من ذى الحجة سنة ٦٦٨ هـ ، شن ما يقرب من مائة فارس

---

(٣٧) Primat, ch. XXXIII, pp. 49 - 51. وقد نقل عنه نانجى . قارن : Nangis, pp. 454d - 456 c.

(٣٨) Primat, ch. XXXIV, p. 51. والملاحظ ان نانجى اغفل ذكر هذه الحادثة .

من فرسان المسلمين هجوما على كتيبة صليبية بقيادة أوليفية دى ترم Olivier de Termes • فاندلع القتال بين الطرفين ، وراح ضحيته أربعة عشر من المسلمين ، واستولى الصليبيون على ثمانية من خيولهم ، ولاذ بالفرار البقية الباقية من الفرسان المسلمين • وسرعان ما تجددت المعارك فى يومى الثلاثاء والأربعاء ، اذ اعتاد المسلمون الهجوم على المعسكر الصليبى — على حد قول بريما — وراح ضحية هذه المعركة ما يزيد على مائتين من المسلمين[٣٩] • أما يوم الخميس السابع من أغسطس/السابع عشر من ذى الحجة ، عاود المسلمون هجماتهم المعتادة على الصليبيين ، الا أن هجومهم انتهى لصالح الصليبيين اذ قتلوا منهم ما يناهز الخمسين وأسروا ثلاثين ، كما استولوا على ستة وعشرين من خيول وبغال المسلمين • وفى المساء ، تظاهر المسلمون بالانسحاب ، الا أنهم سرعان ما استداروا ، وأحاطوا الصليبيين احاطة الدائرة بمعصم اليد ، فقتلوا عشرة من الصليبيين واستولوا على عشرين من خيولهم وعادوا ثانية الى معسكرهم عند بزوغ الساعات الأولى من النهار •

— اعتراف بريما بتصاعد المقاومة الاسلامية :

وقد اعترف بريما صراحة بتصاعد المقاومة الاسلامية المنظمة • اذ ذكر أن المسلمين كانوا يأتون كل صباح لشن هجماتهم الضارية على الصليبيين • الا أن هذه الهجمات — من وجهة نظره — لم تكن دائما فى صالحهم • ففى كل يوم يختبىء المسلمون فى كمائن آملين اختطاف أفراد الجيش الصليبى • وبانسدال الليل ، كانوا ينسحبون الى معسكرهم الذى كان على مسافة عدة فراسخ من المعسكر الصليبى[٤٠] • وحدث فى يوم الخميس الموافق الرابع عشر من أغسطس سنة • ١٢ م/ الرابع

---

(٣٩) Primat, ch. XXXIV, p. 51. وقد اغفل نانجى نقل احداث هذه المعركة •

(40) Primat, ch. XXXV, p. 52.

والعشرين من ذى الحجة سنة ٦٦٨ هـ ، أن انطلق أربعة من الفرسان القشتاليين وما يناهز المائة من البحارة فى جولة استكشافية أوصلتهم الى احدى المروج حيث كان رعاة المسلمين يقومون برعاية مواشيهم . كان ذلك على مسافة تزيد على أربعة فراسخ من المعسكر الصليبى . فاغتال الصليبيون رعاة الماشية ، ولم ينجح من هذه المذبحة الا أحد الرعاة اقتادوه معهم أسيرا . ثم استولوا على ما يقرب من مائة من الماعز وثمانين من الثيران والابقار والعجول . وهكذا نجح هؤلاء الصليبيون المغامرون فى تعويض المعسكر الصليبى النقص الشديد فى اللحوم الطازجة . علما بأن اضطرار الصليبيين الى أكل اللحوم الفاسدة جعلت الأمراض تفتك بهم . وكان الملك الفرنسى قد سبق أن أرسل سفنا الى سردينيا وصقلية لاحضار لحوم طازجة ، وأتت احدى سفنه من صقلية محملة بكميات هائلة من الدجاج ولحوم أخرى طازجة[٤١] .

ازاء هذه الهجمات المتلاحقة التى لم يكل المسلمون من شنها على الغزاة الصليبيين ، ساد التذمر صفوف الجيش الصليبى نتيجة اصرار العاهل الفرنسى على عدم خوض غمار هجوم شامل على المسلمين الا بعد مجىء شقيقه شارل ؛ بينما صمم المسلمون على اجلاء العدو عن أراضيهم . ففى يوم الأحد الموافق السابع عشر من أغسطس سنة ١٢٧٠ م/السابع والعشرين من ذى الحجة سنة ٦٦٨ هـ ؛ بينما كان حراس الملك يتناولون طعام العشاء ، انقض عليهم المسلمون كعادتهم . فأخطر الملك بذلك ، وأخبر أيضا بالملل السائد فى صفوف الجيش الصليبى بسبب تشديد تنفيذ الأوامر الصادرة اليهم والقاضية بحرمانهم من مباغتة المسلمين . على أية حال ، اثر هذا الهجوم الاسلامى ؛ نادى لويس التاسع بالاستعداد العام ، وأصدر أوامره الى فيالق الجيش الصليبى للخروج الى القتال ، فقام الجميع بمطاردة المسلمين حتى وصلوا فى مطاردتهم على مقربة من

(41) Primat, ch. XXXV, pp. 52 - 53.

معسكرهم الذى كان على بعد فرسخ من المعسكر الصليبى • وتمكنوا من قتل ما يزيد على الأربعين من مشاة وفرسان المسلمين • الا أن رياحا رملية عاصفة هبت فجأة أثناء القتال ، فحجبت الرؤية ، وكان من العسير على الصليبيين مواصلة المطاردة لفلول الجيش الاسلامى نتيجة شدة هذه الرياح الرملية • حينئذ ، نصح العقلاء من الصليبيين وعلى رأسهم ارار دى فاليرى Erart de Valeri الجيش الصليبى بالعودة الى قرطاجنة •
وكان فى مؤخرة الجيش الصليبى المنسحب القائد أوليفييه دى تـرم Olivier de Termes على رأس قواته • أمام هذا الانسحاب الصليبى المفاجىء ، استدار المسلمون وعاودوا خطاهم ، وأحاطوا بجيش أوليفيه دى ترم — أى مؤخرة الجيش الصليبى — وأمطروه بوابل من سهامهم • الا أن قائد المؤخرة أوليفيه نجح فى الفرار بعد أن تبادل مع المسلمين ضربات السهام ؛ وفقد فى هذه المعركة فرسين فقط على حد زعـم روبير دى بريما[٤٢] •

وفى اليوم التالى ، أى يوم الاثنين الثامن عشر من أغسطس سنة ١٢٧٠م/الثامن والعشرين من ذى الحجة سنة ٦٦٨ هـ ، التف حول قائد رماة السهام ما يناهز الثلاثين من الصليبيين المسلحين بأسلحة خفيفة ، فزحف على رأسهم الى معسكر المســلمين • الا أنه بمجرد أن لمحـه المسلمون ، أسرعوا لقتاله • فلاذ الصليبيون بالفرار ، وراح ضحية هذه المعركة خمسة من الصليبيين • ويعلق بريما على هذا الحادث قائلا أن قائد الرماة ارتكب خطأ جسيما لأنه اصطحب المقاتلين الصليبيين دون أن يسلحهم أحسن تسليح[٤٣] •

أما فى يوم الأربعاء الموافق العشرين من أغسطس/غرة محرم سنة ٦٦٩هـ ، فقد تسلل المسلمون الى الميناء ، وقتلوا سبعة من البحارة الذين

---

(42) Primat, ch. XXXVI, pp. 53 - 54.

(43) Primat, ch. XXXVI, p. 54.

لم يخطر على بالهم مثل هذا الهجوم المباغت • كذلك جرح القائد اولنيفييه دى ترم • الا أن رفاق هؤلاء البحارة تمكنوا من قتل ثلاثة من فرسان المسلمين • وكان القائد أوليفييه دى ترم مكلفا بحراسة الميناء ، حيث أقام معسكره هناك ، فاغتاظ لما أصابه من عار الهزيمة على يد المسلمين، وأراد أن يمحو هذا العار بالثأر من المسلمين(٤٤) • ففى اليوم التالى ، أى يوم الخميس الحادى والعشرين من أغسطس/الثانى من محـرم ، انتقم لما لحق به من هزيمة فى الميناء ، اذ قتل اثنى عشر من فرسان المسلمين واستولى على أعداد هائلة من خيولهم •

وفى نفس هذا اليوم ، كان المسلمون قد احتشدوا فى جمـوع غفيرة حسنة التنظيم ، وكان جميعهم من الفرسان ولم يكن بين صفوفهم أى مقاتل من المشاة • أمام هذا الحشد الهائل الذى كان يزيـد على العشرين ألف مقاتل من الفرسان ، اعتقد الصليبيون أن هدف المسلمين هو استعادة الميناء ، أما البعض الآخر ، فقد اعتقد أن هدفهم هـو استعادة قلعة قرطاجنة • وتواجد فى المعسكر الصليبى آنذاك رجلا مقداما يدعى بنبوك Bonnebouque ، أخذ على عاتقه اثارة حمية الصليبيين الدينية وحثهم على القتال • فصاح بصوت مدو : « اخرجوا بجسارة ! اخرجوا ! ملعون من يلوذ بالفرار ! ملعون من لا يسرع لقتال المسلمين ! فلندافع ببسالة وشجاعة عن عقيدة السيد المسيح له المجد ، ولنمت من أجله كما مات من أجلنا » • وكان بنبوك يمر بنفسه كل يوم على خنادق الصليبيين ، ممسكا برمحه فى قبضة يده ، وخوذته الحديدية على رأسه ، وكان يقاتل المسلمين بشجاعة لا نظير لها ، ولم يتخاذل مرة على حد قول بريما • وعندئذ كان أحد مشاة المسلمين أو فرسانهم يهجم عليه ، كان ينتظره دون حركة الى أن يقترب منه ، حينئذ يطعنه بنبوك برمحه فى سرعة البرق • ويقال انه قتل العديد من المسلمين بنفس هذه الطريقة •

---

(44) Primat, ch. XXXVII, pp. 54 - 55.

على أية حال ، بعد هذا النداء الذى أطلقه بنبوك ، وبعد أن علم الصليبيون أن المسلمين زاحفون للقائهم ، تسلح الصليبيون أحسن تسليح ، وخرجوا من خنادقهم ، وتوقفوا ليسمحوا لرماة السهام والمشاة أن يصبحوا فى المقدمة . أما المسلمون ، فقد كانوا فى مواجهتهم يعدون من هنا وهناك فى حركة لا تهدأ . فتذمر فرسان الصليبيين معلنين أنه حان وقت الانقضاض على المسلمين وخوض غمار المعركة الفاصلة . الا أن أمورى دى لاروش صاح بصوت مدو : « لماذا تريدون الهجوم ؟ لماذا تريدون الهجوم ؟ لقد انتظرتم طويلا مجىء ملك صقلية ، وسيصل بعد يومين أو ثلاثة ، ومع ذلك تريدون أن تحاربوا المسلمين فى الحال ! هذا أمر يتنافى مع المنطق والعقل . لقد أقمنا الخنادق حتى تتمكن من البقاء فى خيامنا آمنين فى مواجهة هجمات المسلمين » . فتأثر الصليبيون بأقوال أمورى ، وتخاذل المتهورون وعادوا ثانية الى ثكناتهم ، وانقضى هذا اليوم دون مواجهة بين المعسكرين الاسلامى والصليبى(٤٥) .

وفى يوم الجمعة الثانى والعشرين من أغسطس/الثالث من محرم : عاد ما يقرب من خمسمائة من المسلمين لمباغتة المعسكر الصليبى كعادتهم ، وحاولوا الوصول الى الميناء . وكان قد سبق لهم الوصول اليه مرتين ، وذلك بالعبور بين خنادق المعسكر الصليبى(٤٦) وبحيرة آتية من البحر تمتد حتى قرب تونس . وكان الماء الذى يملأ ــ بشحة وبتقطير ــ الخنادق ، ينساب من هذه البحيرة وهو ملىء بالطمى والوحل . ونجح المسلمون فى ايجاد مخاضة يمكن بعد اجتيازها الوصول الى الميناء .

---

(45) Primat, ch. XXXVII. pp. 55 - 56.

(٤٦) عن هذه البحيرة قال ابن الشماع : « ... بين تونس ومرساها بحيرة ، يقال انها كثيرة الجنات والمياه والزرع ، طيبة الفواكه » . (انظر : الأدلة البينة النورانية ، ص ٣٦) . وفى موضع آخر يقول ابن الشماع : « ... ودور بحيرة تونس أكثر من اربعة وعشرين ميلا . وفى وسطها جزيرة تسمى شكلة فى مقدار ميلين ، تنبت الكلخ وفيها اثر قصر خرب » . انظر : الأدلة البينة النورانية ، ص ٣٨ .

فأرادوا عبورها فجأة حتى ينقضوا على الصليبيين ويباغتونهم • الا أن قائــد الجيــش الصــليبى المدعــو لانســــولو دى ســــان مآرت Lancelot de Saint Maart والذى كان خبيرا محنكا فى فنون القتال، ومن سلالة عريقة جدا ، انطلق لقتال المسلمين ، فخــاض مخاضة الى منتصفها ، وتمكن من قتل أربعة ، فطافت جثتهم فوق المــاء • الا أن المسلمين أحاطوا به وأصابوه بجرح خطير بالقرب من احدى عينيه بعد أن تمكن أحد الفرسان المسلمين من ضربه فى فتحة التهوية الموجودة فى خوذته • وكاد يلقى حتفه لولا امبير دى بيوجيه Ymbert de Biaugeu وهو من كبار الفرســـان الذى كان يمر عن طريق الصــدفة بصــحبته بعض فرسانه فأسرع لنجدته ، وانقض على المسلمين بشراسة منقطعة النظير حتى كاد فرسه يطير من شـــدة سرعته ــ حسب قول بريما ــ ونجح فى ضرب أول من صادفه من فرسان المسلمين بالرمح • فكانت الضربة قوية حتى أنها قذفت بالفرس والفــارس فى المجرى المــائى الموحل • حينئذ ، أسرع الفارس الصليبى لقتاله فى أعماق الماء شاهرا سيفه ، فقتله شر قتلة • ومن ناحية أخرى ، تمكن فرسانه من مجــابهة المسلمين وأجبروهم على الانسحاب تاركين وراءهم ما يناهز الثلاثين من أتباعهم فى المخاضة • فتمكن مشاة الجيش الصليبى فيما بعد من قتلهم والقاء جثثهم فى أعماق البحيرة(٤٧) •

ــ تقييم المرحلة الأولى من حرب الاستنزاف الاسلامية :

هذا عن المرحلة الأولى من تفاصيل أحداث المقاومة الاســـلامية ضد الوجود الصليبى على الأراضى التونسية • وقد انتهت هذه المرحلة بوفاة زعيم الحملة لويس التاسع فى الخامس والعشرين من أغســطس سنة ١٢٧٠ م/السادس من محرم سنة ٦٦٩ هـ • لتبدأ بعدها أحــداث المرحلة الثانية التى تبدأ بمجىء شارل دانجو فى نفس يوم وفاة شــقيقه

---

(47) Primat, ch. XXXVIII, pp. 56 - 57.

لويس[٤٨] • وقبل الغوص فى أحداث المرحلة الثانية ، يلاحظ أن حولية بريما غطت تفاصيل أحداث المرحلة الأولى تغطية كاملة ، اذ فاقت فى سردها المفصل كل المصادر من لاتينية واسلامية ، فكانت بمثابة صحيفة يومية تتلقى تقارير مراسلها الحربى المتواجد على ساحة الصراع الصليبى الاسلامى • واتصف هذا المراسل — ألا وهو روبير دى بريما — بالصدق والأمانة والانصاف الى حد كبير ، ونجح نجاحا باهرا فى تغطية أحداث المقاومة الاسلامية فى مواجهة الغزو الصليبى للاراضى التونسية • واذا عقدنا دراسة تحليلية نقدية مقارنة بين حولية بريما وحولية جيوم دى نانجى ، نلاحظ أن نانجى نقل أحداث المقاومة الاسلامية للوجود الصليبى على الأراضى التونسية عن بريما • الا أنه يؤخذ عليه اغفال تفاصيل أحداث هذه المقاومة وعدم ذكرها تماما طوال الفترة من الثانى من أغسطس الى وفاة الملك لويس فى الخامس والعشرين من نفس هذا الشهر • وهكذا أصبح بريما المصدر الأوحد الذى غطى أحداث هذه الفترة ، حيث اشتعلت فيها نيران حرب الاستنزاف الاسلامية الى أقصاها •

هذا عن تفاصيل أحداث المقاومة الاسلامية فى المصادر اللاتينية • الا أنه يؤخذ على المصادر الاسلامية قصورها الواضح فى تزويدنا

---

(٤٨) أجمعت المصادر اللاتينية على وصول شارل دانجو فى نفس يوم وفاة شقيقه . انظر :

Primat, ch. XXXIX, p. 27; Nangis, Listoire du Roy Phelippe, dans R. H. G. F., t. XX, p. 467.

وقد اكد بيير د ىكونديه Pierre de Condet — اقرب المقربين الى لويس التاسع ومستشاره الشخصى — فى خطابه الذى ارسله من تونس الى امين خزينة سان فرانشور دى سنلس أن الملك الفرنسى توفى يوم الاثنين حوالى الساعة التاسعة صباحا ، وان ملك صقلية مثل امام جثمان شقيقه بعد وفاته بلحظات . انظر :

Pierre de Condet, Lettre au Trésoéier de Saint - Franchour de Senlis, dans lévis, Saint louis, p. 226.

بتفاصيل هذه المقاومة حتى يتمكن الباحث من عقد دراسة تحليلية نقدية مقارنة للمصدرين • وقد سبق أن استعرضنا ما أوردته المصادر الإسلامية فى هذا الصدد •

وهكذا زودتنا المصادر الاسلامية بمعلومات تافهة عن المعارك الضارية التى خاضها المسلمون فى مواجهة الغزو الصليبى للاراضى التونسية • هذا على النقيض تماما ؛ اذ رسمت حولية بريما لوحة رائعة لهذه المقاومة التى لم تهدأ ، فقد أكد بريما أن حرب الاستنزاف كادت تكون يومية وبثت الرعب والقلق فى صفوف الجيش الصليبى • والأعجب من ذلك أن بريما أثبت بما لا يدع مجالا للشك ؛ أن السلطان أن يلى أمور المسلمين »[٥٠] • ويرجع سبب تحامل المصادر الاسلامية تعمدت انكار هذه الشجاعة والشهامة التى اتصف بها المستنصر[٤٩] ، بل ووصفته بالتخاذل والتقاعس والتفكير فى نقل العاصمة لحماية نفسه من سيوف الصليبيين • ووصل الأمر بالمقريزى الى القول بأنه « لا يصلح أن يلى أمور المسلمين »[٥٠] • ويرجع سبب تحامل المصادر الاسلامية على العاهل التونسى الى ابرامه اتفاقية سلام مخزية ؛ فرضت عليه فرضا ؛ نتيجة خوضه معارك خاسرة كما سبق أن ذكرنا •

ـــ بريما والمرحلة الثانية من حرب الاستنزاف الاسلامية :

على أية حال ، بوفاة لويس التاسع فى الخامس والعشرين من أغسطس/السادس من محرم ، طويت صفحات المرحلة الأولى من حرب الاستنزاف الاسلامية لتبدأ المرحلة الثانية فور قدوم شارل دانجو شقيق الملك الفرنسى • أما عن أحوال المعسكر الاسلامى آنذاك ، فقد ارتفعت معنوياته نتيجة وفاة زعيم الحملة الصليبية ، واستعد لخوض

---

(٤٩) يسميه ابن الشماع « المنتصر » بدلا من « المستنصر » . انظر : الأدلة البينة النورانية ، ص ٦١ وما بعدها .

(٥٠) السلوك ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٦٠١ .

غمار المعارك التالية . واذا انتقلنا الى المعسكر الصليبى ، فقد انخفضت معنويات الجيش الصليبى الى أدناها عقب وفاة كبار الأمراء والقـادة والمندوب البابوى نتيجة فتك الأوبئة والأمراض ، وازدادت الأمـور سوءا بوفاة قديس الحملة[٥١] . الا أن المعنويات انقلبت رأسـا على عقب فور وصول شارل دانجـو بعد طول انتظـار ، فارتفعت الروح المعنوية للجيش الصليبى الى أقصاها ، اذ جاء شارل بدم قيادى جديد ، فتضخم وتقوى الجيش الصليبى بعد انضمام الجيش الصـقلى الى صفوفه بمؤنه وعتاده وذخائره . فكان وصول شقيق الملك بمثابة بريق الأمل الذى سينتشل الجيش الصليبى من بين فكى المسلمين من ناحية ، وفتك الأوبئة والأمراض بأجسادهم من ناحية أخرى فبمجرد اشاعة نبأ وصول شارل ، هرع الجيش الصليبى الى الشاطىء التونسى ، وأطلق الجميع صيحة مدوية قائلين : « يحيا الملك ! يحيا الملك ! أهلا وسـهلا يا ملكنا . فأنت قائدنا ومرشدنا وأملنا وفرحتنا وقوتنا ونصيرنا على أعدائنا »[٥٢] . نستخلص من هذا الهتاف ارتفاع معنـويات الجيش الصليبى مما سيغير تغييرا جذريا ميزان القوى بين الفريقين المتصارعين لصالح الصليبيين ، كذلك يعد بمثابة مبايعة لشارل بالقيـادة ، وكانت الظروف مواتية له آنذاك ، اذ كان الملك الجديد فيليب الثالث قد سقط مريضا ولا يقوى على القيادة ومتطلباتها . أما الملك الصقلى فقد ثارت ثائرته عندما وجد فى صفوف المسلمين ألد أعدائه ، وهما فريدريك القشتالى Fréderic de Castille وفريدريك لانـزا Fréderic Lanza فعقب انتصار شارل على كونرادان Conradin ، انضم القائدان

---

(٥١) أوضح ذلك جيوم دى نانجى فى مصنفه عن « تاريخ الملك فيليب ابن القديس لويس » ، اذ اورد :

«La nouvelle ala parmi lost que le roy estait mort : si en fu moult troublé le peuple» Nangis, listoire du Roy Phelippe, filz de Monseigneur Saint loys, dans R. H. G. F., t. XX, p. 467.

(52) Primat, ch. XXXIX, p. 27.

بجيوشهما الضخمة الى صفوف السلطان التونسى فى حربه ضـــد الصليبيين ، بل وساعداه فى الزود عن الأراضى التونسية ضد هجمات لويس التاسع[٥٣] •

أمام هذه المستجدات والمتغيرات ، رغب شارل فى الاسراع فى خوض غمار حرب فاصلة ضد المسلمين • الا أنه قد حـال بينه وبين تحقيق نواياه ، الحاج الملك الجديد فيليب الثالث — الذى كان لا يزال ضعيفا لا يقو على حمل السلاح — على المشاركة بنفسه فى المعارك[٥٤] ، تماما كما طلب شارل من شقيقه لويس من قبل • وقد أدرك ملك صقلية بثاقب بصره وبصيرته ، أن هذا التأخير سيكون فى غير صـالح الجيش الصليبى ، اذ سيجعل المسلمين أكثر جرأة وجسارة ، ويمكنهم من اثارة القلاقل والاضطرابات فى صفوف الجيش الصليبى • وقد جدث ما تنبأ به هذا المحارب المحنك بفنون الحرب ، اذ لم يكف المسلمون عن مواصلة شن هجماتهم الضارية اليومية على المعسكر الصليبى[٥٥] •

— بريما وحديثه عن فنون القتال لدى الطرفين المتصارعين :

ومما يكسب حولية بريما أهمية بالغة أن صاحبها تحدث عن فنـون القتال لدى الطرفين المتصارعين ، وهذا ما لا نجده فى كافة المصادر • فقد لاحظ بريما بعين الفاحص المدقق خفة حركة الفارس المسلم الراجع

---

(٥٣) لمزيد من التفاصيل انظر : Primat, pp. 36 sqq.

Léonard, le Angevins de Naples, Paris, 1954, pp. 106 — 107; Brunschvig, La Berbérie Orientale sous Le Hafsides, Paris, 1932, t. I, pp. 52—55; Wallon, saint louis, Tours 1870, p. 494.

(54) Primat, ch. XLIX, p. 74.

(55) Primat, ch. XLIX, p. 73.

الى خفة أسلحته وملابسه الحربية ، بينما سجل على الفارس الصليبى ثقل حركته لثقل ملابسه وأسلحته . وزودنا بلوحة رائعة عن أسلحة الفارسين المتصارعين وطريقة المسلمين فى القتال والقائمة على الكر والفر وامطار الصليبيين عن بعد بوابل من الأقواس والسهام والرماح ، كل هذا فى سرعة البرق على حد قوله . وكان المسلمون يتصيدون أيضا الصليبيين المبتعدين عن معسكرهم ليأتوا عليهم فيزهقوا أرواحهم . الا أنهم عندما يقابلهم ما يناهز المائة أو المائتين ، كانوا يلوذون بالفرار . اذ كانت طريقتهم الحربية ــ على حد قول بريما ــ تحاشى الاقتتال مع الصليبيين وجها لوجه[٥٦] . وكان الفارس المسلم ــ ويسميه بريما « فاريس »[٥٧] «Farices» نقلا عن العربية ــ مزودا بأسلحة خفيفة لا تثقله ، وتتكون من ترس وأقواس وسهام ورماح . وبهذه الأسلحة الخفيفة كان بامكانه الكر والفر فى خفة بالغة جذبت اعجاب المؤرخ اللاتينى . وبعد حديثه عن الفارس المسلم وأسلحته ، قدم لنا بريما مقارنة دقيقة بينه وبين الفارس الصليبى ، اذ أثبت أن هذا الأخير كان يحمل أسلحة ثقيلة ، تثقل كاهله وتشل تحركاته . وكانت أسلحة الفارس الصليبى تتكون من ترس وزردية (درع من حلق) ، وطقم للساق يشل من تحركه وأسلحة أخرى ثقيلة تجعله كالمكبل بالأغلال . ولاحظ بريما ــ بعين الفاحص المدقق ــ ثقل حركة فرس الفارس الصليبى وأرجع ذلك الى أن الفرس كان يئن من ثقل ممتطيه وثقل أسلحته بينما وصف فرس الفارس المسلم وصفا بليغا دقيقا وحيويا اذ شبه خفته بأنها تفوق خفة الأرنب الجبلى ، وذكر أنه يذهب يمينا ويسارا بسرعة حسب مشيئة فارسه ، ويعود الى خيمته فى سرعة البرق . وأرجع هذه الخفة الى خفة الفارس وأسلحته . ولاحظ بريما بعينه الثاقبة أن الفارس المسلم فى لحظة فراره كان يمطر الجيش الصليبى بوابل منهمر من سهامه

---

(56) Primat, ch. XLIX, pp. 73—74.

(57) Primat, ch. XLIX, p. 74.

ورماحه وأقواسه . الا أنه أخذ عليه ابتعاده عن الاقتتال بالسيف وجها لوجه ربما لمهارة الفارس الصليبي فى هذا المضمار من الحرب[٥٨] .

ــ شارل دانجو ومعاركه ضد المسلمين :

وهكذا كان روبير دى بريما شديد الذكاء والملاحظة عندما زودنا فى حوليته بمقارنة دقيقة بين الفارس المسلم والفارس الصليبى . فكانت مقارنة منصفة ، ووصل فى انصافه الى الاعجاب بخفة حركة عدوه وحسن نظامه ، ونقده اللاذع لثقل الفارس الصليبى وعجز فرسه عن حمله . ويعد وصفه هذا اضافة جديدة لفنــون الحرب والقتال لــدى كل من المسلمين والصليبيين انفرد دون غيره من المصادر بذكرها ، مما أكسبها أهمية بالغة . هذه اللوحة الناطقة رسمها بريما قبل الغوص فى تفاصيل المرحلة الثانية من حرب الاستنزاف الاسلامية حتى يمهد السبيل لحديثه. فبوصول شارل دانجو الى تونس ، بذل قصارى جهده لبعث الثقة فى الجيش الصليبى ، وابعاد اليأس عنه ، ورفع معنوياته حتى يقدم على المعارك الفاصلة بحماس بالغ ويحرز فيها انتصارات تجبر المسلمين على الاستسلام . وفى هذا الصدد يؤخذ على روبير دى بريما انحيازه الى جانب شارل ويتضح ذلك حين شبهه تارة بشارل مارتل الذى التصــق اسمه بالنصر الحاسم الذى حققه على المسلمين فى معركة بلاط الشهداء سنة ٧٣٢ م/ ١١٥ هـ[٥٩] . وتارة أخرى مجد شجاعته وصلابة قلبه عقب وفاة شقيقه لويس ، هادفا من ذلك رفع معنويات الصليبيين[٦٠] .

---

(58) Primat, p. 74; Nangis, p. 741.

(٥٩) فى هذا المعنى أورد بريما فى حوليته :

«O ! se Kalles Martel c'est - à - dire kalles roi de secile»

انظــر : Primat, p. 43.

(٦٠) فى هذا المعنى يقول بريما :

«. . Mais par le grant courage et la fermeté de son cuer, il réfraint sa douleur dedenz soi, et n'en fit nul semblant Par dehors».

انظــر : Primat, ch. XXXIX, p. 57.

وتارة ثالثة شبهه بأسد[٦١] يزأر لحظة انقضاضه على فريسته ؛ وأرجع سبب زئير أسد صقلية الى كثرة هجمات المسلمين الخاطفة التى اتسمت بالمباغتة ، اذ لم يألف أبدا أن يقترب أعداؤه من معسكره دون أن ينقض عليهم ويفترسهم • ومما زاد من ثورته أن المسلمين أطلقوا صيحاتهم المدوية هاتفين « أقدموا ! أقدموا ! يا أقذر الخنازير • أقدموا للقتال والا سوف ننقض عليكم ونهاجمكم داخل خيامكم »[٦٢] حينئذ ، نسى شارل وعده الى الملك الجديد بعدم خوض غمار المعارك الا بعد شفائه واشتراكه جنبا الى جنب معه • وأصدر أوامره الى البارونات وأفراد الجيش الصليبى بالخروج من المعسكر وتنظيم الصفوف تأهبا لقتال المسلمين • وانخرط بشخصه فى صفوف الجيش الاحتياطى • ويذكر بريما أن الصليبيين وقفوا كسور منيع بين خنادقهم والبحيرة التى تمتد حتى قرب تونس حيث تجمعت جموع غفيرة من المسلمين بحيث كان باستطاعتهم اللجوء الى سفنهم الراسية بالقرب من هذه البحيرة • أمام هذه المواجهة ، أمر شارل الجيش الصليبى بالانقضاض على المسلمين قائلا لهم : « فلنهجم عليهم كلنا معا ، والله العلى القدير سيساعدنا وينصرنا على أعداء عقيدته » • وكانت الضربة الأولى قوية حتى لاذ بالفرار من تمكن من الافلات من الموت • فقام شارل بمطاردتهم وهاجمهم الصليبيون من كل جهة ، وتمكنوا من قتل أعداد لا تحصى لدرجة أن الأرض — كما يذكر بريما — افترشت بجثث القتلى على مساحة تقترب من نصف فرسخ ، وتناثرت جثث موتى المسلمين كنثر الذرور ، فكانت متراصة ومتلاصقة بسبب كثرتها • كذلك لقيت جموع غفيرة من المسلمين

---

(61) Primat, pp. 74 et 57.

(62) Primat, ch. L, p. 74.

حتفها غرقا[٦٣] • ولم ينقذ المسلمون من الهزيمة الساحقة الا هبوب رياح عاصفة دمرت كل ما يقابلها ، كذلك أعمت العواصف المحملة بالغبار الصليبيين عن مطـاردة المسلمين وأجبرتهم على الانسـحاب الى معسكرهم[٦٤] •

والجدير بالملاحظة أن جيوم دى نانجى الذى ينقل عادة عن بريمـا زودنا بالجديد عن هذه المعركة • اذ أوضح أن سبب النصر راجع الى أن شارل دانجو عندما اقترب من المسلمين ، تظاهر بالفرار ، فقـام المسلمون بمطاردته • الا أن الماكر الصقلى أصـدر أمره الى جيشـه بالاستدارة فجأة لمواجهة المسلمين ، ففوجىء المسلمون بهذه الحيـلة الماكرة ، فانطلقت صيحاتهم فى مواجهة طعنات الصليبيين • وراح ضحية هذه المعركة ثلاثة آلاف من المسلمين دون حساب الذين لقـوا حتفهم غرقا • وينفرد جيوم دى نانجى بذكر أن المسلمين استخدموا فى حربهم هذه مجانيق ضخمة كانت تقذف سحبا من الغبار الحارق بفعل حرارة الشمس ، فغطى هذا الغبار بفعل غزارته معسكر الجيش الصليبى ، فشل من قدرة الصليبيين على مواصلة القتال بسبب انعدام الرؤية وصعوبة فتح الأعين خوفا من نفاذ الغبار اليها[٦٥] •

ـ تشبه المستنصر بسلطان مصر فى تفننه فى مضايقة الصليبيين :

وعلى الرغم من وصف المصـادر الاسلامية السـلطان الحفصى بالتخاذل فى مواجهة الصليبيين ، نلاحظ أن بريما يذكر الدور البطولى

---

(63) Primat, ch. L, pp. 74 — 75.

والجدير بالملاحظة ان رواية بريما تشابهت كثيرا مع رواية بيير دى كونديه التى اوردها فى رسالته الى امين خزينة سان فرانشور دى سنلس. انظـر :

Pierre de Condet, Au Trésorier de Saint-Franchour de Senlis, p. 237.

(64) Primat, ch, LI, p. 76.

(65) Nangis, Philippe, p. 471.

الذى قام . ، ثم ينفرد بالقول أن العاهل الحفصى وزع على جنوده الأموال الطائلة ليحثهم على اختطاف الملك الفرنسى والملك الصقلى ورءوس كبار الأمراء والبارونات ، إلا أن المسلمين فشلوا فى تحقيق حلم سلطانهم مما دفع بريما الى وصف هذا الو... أنه صادر عن حاكم مخبول لا يقدر الأمور حق قدرها • وأرجع ذلك الى استحالة المساس برءوس الملوك وكبار الأمراء للحراسة المشددة المفروضة عليهم[٦٦] •

والجدير بالملاحظة أن هناك بعض أوجه الشبه بين حملتى لويس ففى العدوان الصليبى على مصر (٦٤٧ — ٦٤٨هـ/ ١٢٤٩ — ١٢٥٠م) ، أخذ سلطان مصر يتفنن فى مضايقة الصليبيين ، فراح يمنح مبلغا من المال عن كل رأس من رؤوس الأعداء يأتيه بها أحد جنوده[٦٧] • فكان رجالة المسلمين يدخلون المعسكر الصليبى ليلا ويجهزون على كل ما تصل يدهم اليه ، ثم يعودون أدراجهم من حيث أتوا • وقد بلغ بهم الأمر أنهم كانوا فى بعض الأحيان ينبشون الأرض لاخراج جثث الموتى من الفرنج طمعا فى الحصول على هذه المكافأة التى وعدهم بها السلطان[٦٨] • ويبدو أن المستنصر سلك مسلك سلطان مصر وقلده ، الا أن التوفيق لم يكن حليفه بينما ألحق المماليك أضرارا بالغة بالمعسكر الصليبى فى دمياط حتى اضطر الملك لويس الى اصدار أوامره بأن يقوم الجند

---

(66) Primat, ch. LI, pp. 75 — 76.

(67) Joinville, Histoire de Saint Louis, éd. wailly, Paris, 1874, pp. 98; Rothelin, Continuation de guillaume de Tyr, dans R. H. C., H. occ., t. II, Paris, 1859, p. 592.

انظر ايضا جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبى على مصر ، ص ١٢٦ •

(٦٨) Rothelin, p. 592 • انظر ايضا جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ، ص ١٢٦ •

بحراسة المعسكر الصليبى وهم مترجلون ، ليتسنى لهم مراقبته مراقبة دقيقة ليحولوا دون وصول المصريين اليه[٦٩] .

ـ هبوب العواصف الترابية :

على أية حال ، يشير بريما بعد ذلك الى هبوب العواصف الترابية والرياح العاصفة فى آن واحد . فشرع مسلمو تونس فى الانسحاب ، وأسرع الصليبيون فى مطاردتهم . الا أن الرياح كانت عكس اتجاه المسلمين ، فدب الاضطراب فى صفوفهم ، وتخلوا عن غنائمهم . وكانت العاصفة الترابية شديدة حتى استحال على المقاتل أن يرى رفيقه فى السلاح . فاضطر الصليبيون الى العودة الى خيامهم[٧٠] .

ـ مواجهة بحرية بين الاسطول الاسلامى والاسطول الصليبى :

وعقب هذا الاقتتال ، وبعد عودة الجيش الصليبى الى معسكره ، عقد الملك شارل وكبار قادة الجيش الصليبى مجلسا استشاريا لمناقشة كيفية حماية المعسكر الصليبى من سفن الأعداء المسلمين الآتية من خليج تونس . فاتفق الجميع على بناء قلعة خشبية عائمة ، تحشد برماة الرماح والمحاربين للدفاع عنها أثناء ابحارها وحتى تقف عائقا أمام ابحار سفن وشوانى المسلمين الآتية من مدينة تونس والتى كانت عادة تقترب من المعسكر الصليبى وتهدده . ثم شيد الصليبيون قوارب قوية خفيفة الحركة مزودة هى أيضا برماة السهام حتى يكون بامكان هذه القوارب حماية القلعة الخشبية من سفن المسلمين والتى كان من الطبيعى أن تعمل على اغراقها أو احراقها . وفعلا نجحت القوارب

---

(٦٩) Joinville, pp. 96, 98 انظر ايضا جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ، ص ١٢٧ .

(70) Primat, ch. LI, p. 76.

الصليبية فى مطاردة سفن المسلمين ، وأجبرتها على الفـــرار خوفا من المواجهة الخاسرة على حد قول بريما[٧١] •

ـ الصليبيون يفرضون حصارا اقتصاديا على المعسكر الاسلامى :

ولقد أوضح جيوم دى نانجى أسباب انعقاد المجلس الاستشارى السابق الذكر ، وأسباب هذه الحرب البحرية التى شنها الصليبيون ضد المسلمين ، اذ قال أن المسلمين كانوا يتزودون بسهولة باللحوم والمـــواد الغذائية الأخرى ، ولم يعانوا اطلاقا من نقص هذه المواد ، عكس الحال بالنسبة للمعسكر الصليبى • لذا ، فكر الصليبيون فى فرض حصـــار اقتصادى على المعسكر الاسلامى ، وكان لابد من اعداد هذه الحمـــلة البحرية تنفيذا لهذا المخطط الحربى الخبيث •• وتفوق الأســـــطول الصليبى على الأسطول الاسلامى بعد أن استولى على كل الســـفن الاسلامية المحملة باللحوم • ويذكر جيوم دى نانجى أن القلعة الخشبية شيدها مهندس الملك فيليب الثالث بناء على أوامر الملك الفرنسى ، وأنه شيدها فى فترة زمنية قياسية[٧٢] •

ـ الوحدة الاسلامية فى مواجهة العدوان الصليبي على تونس :

كذلك يذكر جيوم دى نانجى أن السلطان الحفصى كان فى موقف قتالى لا يحسد عليه نتيجة خوضه معارك لم تكن فى صالحه • لذا طلب نجدات من جيرانه المسلمين • فأسرع لنجدته الملوك والأمراء • وبمجرد التفاف الجميع حوله ، عقد مجلسا استشـــاريا لمناقشة كيفية الحـــاق الهزيمة بالمعتدين الصليبيين وطردهم واخلائهم عن أراضه[٧٣] •

---

(71) Primat, ch. LII, p. 77.

(72) Nangis, Philippe, p. 473.

(73) Nangis, Philippe, p. 473.

والجدير بالذكر أن رواية جيوم دى نانجى تتفق مع ما ورد فى بعض المصادر الاسلامية • فابن خلدون أشار الى وصول الإمدادات الاسلامية من كل ناحية لمساندة المستنصر فى حربه المرتقبة ضد العدو الصليبى • ففى هذا الصدد يقول : « وبعث السلطان فى ممالكه جاشدا فوافته الامداد من كل ناحية ، ووصل أبو هلال (عياد) صاحب بجاية وجاءت جموع العرب وسدويكش وولهاصة وهوارة حتى أمده ملوك المغرب من زناتة وسرح اليه محمد بن عبد القوى عسكر بن توجين لنظر أبيه زيان ... وأخرج السلطان ابنيته ، وعقد لسبعة من الموحدين على سائر الجند من المرتزقة والمطوعة وهم : اسمعيل بن أبى كلداسن وعيسى ابن داود ويحيى بن أبى بكر ويحيى بن صالح وأبو هلال عياد صاحب بجاية ومحمد بن عبو ، وأمرهم كلهم راجع ليحيى بن صالح ويحيى بن أبى بكر منهم • واجتمع من المسلمين عدد لا يحصى »(٧٤) •

وفى موضع آخر أشار ابن خلدون الى تشاور السلطان فى أمر مجابهة العدوان الصليبى اذ يقول : « ثم توالت الأساطيل بمرسى قرطاجنة ، وتفاوض السلطان مع أهل الشورى من الأندلس والموحدين وفى تخليتهم وشأنهم من النزول بالساحل أو صدهم عنه ، فأشار بعضهم بصدهم حتى تنفذ ذخيرتهم من الزاد والماء ، فيضطرون الى الاقلاع • وقال آخرون اذا أقلعوا من مرسى الحضرة ذات الحامية والعدد وصحبوا بعض الثغور سواها فملكوه واستباحوه ، واستصعبت مغالبتهم عليه فوافق السلطان على هذا وخلوا وشأنهم من النزول فنزلوا بساحل قرطاجنة بعد أن ملئت سواحل رودس بالمرابطة بجند الأندلس والمطوعة زهاء أربعة آلاف فارس ، لنظر محمد بن الحسين رئيس الدولة »(٧٥) • هذا عن رواية ابن خلدون• أما محيى الدين بن عبدالظاهر ،

---

(٧٤) ابن خلدون : ج ٦ ، ق ٣ ، ص ٦٦٩ •

(٧٥) ابن خلدون : ج ٦ ، ق ٣ ، ص ٦٦٧ — ٦٦٨ •

فقد ذكر أن سلطان مصر الظاهر بيبرس (٦٥٨ — ٦٧٦ هـ/١٢٦٠ — ١٢٧٧ م) كاتب المستنصر يخبره بأن المدد فى الطريق اليه وأنه عقد العزم على مساعدته بالعساكر وأصدر أوامره الى عربان الغرب وبلاد برقة بالتقدم لنجدته • غير أن شيئا من هذا لم يحدث ، لأن بشرى رحيل الجيش الصليبى وصلت الى بيبرس • ففى هذا المعنى يقول : « فكتب السلطان الى صاحب تونس يثبته بوصول العساكر لنجدته ، وكتب الى عربان الغرب ، وبلاد برقة بالتقدم لانجادهم وحفر الآبار فى طرقات العساكر ، واهتم بتجريد العساكر الى جهة الغرب ، فوصلت الأخبار بموت فرنسيس ، وموت ولده وجماعة من عسكره ، واستشهاد جماعة من المسلمين • وبلغهم حفر الآبار ، وعمل الفرنج عليهم خنادق ، وتوجهت نجدات العرب الى تونس »[٧٦] • وقد نقل المقريزى رواية محيى الدين ابن عبد الظاهر مع شىء من الايجاز[٧٧] • وأخيرا ، كانت اشارة ابن الشماع أشد ايجازا ، اذ اكتفى بالقول : « فبعث السلطان — رحمه الله — لأهل الاقطار يستفزهم »[٧٨] •

وهكذا تحققت الوحدة الاسلامية فى مواجهة الغزو الصليبى لأراض اسلامية • الا أن انسحاب الجيوش الاسلامية وعودتها الى بلادها[٧٩] نتيجة ادراكها أنها تخوض حربا خاسرة بعد أن اتضح لها رجاحة كفة الصليبيين على المسلمين كان من أهم أسباب قبول السلطان الحفصى

---

(٧٦) الروض الزاهر ، ص ٣٧٣ — ٣٧٤ .

(٧٧) السلوك ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٥٩٠ . وقارنه بمحيى الدين بن عبد الظاهر ، ص ٣٧٣ — ٣٧٤ .

(٧٨) الأدلة البينة النورانية ، ص ٧٠ . والجدير بالذكر ان ابن القنفذ القسنطينى اكتفى بالقول أن المستنصر أرسل رسولا الى السلطان الظاهر . انظر : الفارسية فى مبادىء الدولة الحفصية ، ص ١٣٢ .

(٧٩) أشار ابن خلدون الى ذلك الانسحاب اذ قال : « ... فأسعفها السلطان لما كان العرب اعتزموا على الانصراف الى مشاتيهم » . انظر : العبر ، جـ ٦ ، ص ٣ ، ص ٦٧١ .

اتفاقية فى غير صالحه ، خاصة أنه أدرك استحالة الصمود فى وجه الغزاة بمفرده . لذا اشترى السلام بالمال ، حقنا لدماء شعبه وجيشه .

كذلك زودنا جيوم دى نانجى بما دار فى المجلس الاستشارى الذى عقده السلطان الحفصى مع كبار قادة الجيوش الاسلامية الآتية لنجدته وذلك قبل شروعها فى الانسحاب . وأظهر اتفاق الجميع على الانقضاض على الصليبيين لافنائهم وطردهم من الأراضى التونسية المحتلة(٨٠) . تنفيذا لهذه الخطة ، استيقظ المسلمون فى ساعة مبكرة من الصباح ، وتسلحوا أحسن تسليح ، وحشدوا جموعا هائلة من المشاة والفرسان ، ورتبوا صفوفهم أحسن ترتيب . وبمجرد اقترابهم من المعسكر الصليبى ، أطلقوا صيحاتهم المدوية ، ودقت الطبول الحربية والكوسات وبعض الآلات الموسيقية الحربية الأخرى . وتفرقوا فى ساحة الوغى حتى يخدعوا الصليبين ويقنعوهم أن حشودهم الحربية لا تحصى . أمام هذه الأخطار المحدقة بربوع معسكرهم ، استعد الصليبيون أحسن استعداد ، فنظموا صفوفهم خير نظام ، فظهر فى المقدمة رماة السهام ، وجاء بعدهم فرق المشاة وأسندت حراسة خيام الصليبيين ومرضاهم الى بيير كونت النسان Pierre Conte d'Alencon — شقيق الملك الفرنسى — بصحبته جيشه وفرسان الداوية(٨١) . وانطلق الفرسان والمشاة لخوض غمار المعارك . الا أنه بمجرد أن لاحظ المسلمون أن الصليبيين مسلحين أحسن تسليح ، دب الخوف فى قلوبهم ، ولاذوا بالفرار الى خيامهم . فقام الصليبيون بمطاردتهم ونهب ممتلكاتهم . الا أن الملك فيليب — الذى شارك فى هذه المعركة — خشى

---

(٨٠) Nangis, Philippe, p. 473. والملاحظ ان رواية نانجى فى هذا الخصوص تتفق مع رواية ابن خلدون . انظر : العبر ، ج ٦ ، ق ٣ ، ص ٦٦٧ — ٦٦٨ .

(٨١) Jrimat, ch. LII, p. 77. وقد نقل عنه نانجى . انظر : Nangis, Philippe, 473 et 475.

أن يكون الجيش الاسلامى المنسحب كان قد أعد كمينا للصليبيين ، اذ أن المسلمين اعتادوا فى خططهم الحربية التظاهر بالارتداد والعودة فجأة لقتال الصليبيين . لذا ، هدد بالقتل كل صليبى يرتكب أعمال السلب والنهب[٨٢] .

ويواصل بريما ذكر الأحداث التالية قائلا أن الملك الفرنسى وباروناته انقضوا على معسكر المسلمين ، وقاموا بمطاردتهم ، فلاذوا بالفرار الى جبال شاهقة وعرة . لذا تقاعس الصليبيون عن مواصلة أعمال المطاردة لثقل أسلحتهم وخوفهم من الجبال الوعرة . فعادوا ثانية لنهب معسكر المسلمين بعد أن صرح الملك الفرنسى بذلك . فاستولوا على الثيران والخرفان والخبز والقمح وغيرها من الأشياء المفيدة . ووجدوا بداخل المعسكر مرضى من المسلمين لم يتمكنوا من الفرار ، فقتلوهم . ثم كدسوا كل الأخشاب الموجودة فى المعسكر ، وأقاموا فوقها خيام المسلمين ، وأشعلوا فيها النار ، وألقوا بداخلها جثث موتى المسلمين حتى يتجنبوا تعفنها وبالتالى انتشار الأمراض بين صفوفهم . عندئذ بكى المسلمون — على حد قول بريما — وتأثروا تأثرا بالغا عندما رأوا ألسنة اللهب تلتهم معسكرهم وموتاهم ومرضاهم . وعاد الصليبيون الى معسكرهم بعد أن أتوا على معسكر المسلمين[٨٣] .

---

(٨٢) Primat, ch. LII, p. 78 . وملخص رواية بريما فى Nangis, Philippe, p. 475.

(٨٣) Primat, ch. LII, pp. 78 — 79. وقد نقل عنه نانجى . انظر : Nangis, Philippe, p. 475.

— اوجه الشبه بين حملتى لويس :

على أية حال ، كان بامكان الجيش الصليبى أن يجنى ثمار النصر الأول عقب سقوط قلعة قرطاجنة • لو لم يركن الى الكسل انتظارا لقدوم شارل • الا أن لويس فضل تكرار نفس الخطأ الذى ارتكبه فى حملتـــه الأولى على مصر • فبعد أن وطد الصليبيون أقدامهم فى مدينة دمياط ، وبعد أن استقرت بهم الأحوال لحد ما ، توقفت الأعمال الحربية فترة من الزمن • وظل الجيش مقيما بدمياط فترة تقترب من خمسة أشـــهر ونصف دون القيام بأى عمل جدى ، أو مواصلة التقدم نحو الجنوب • ويؤكد جوانفيل أن الملك الفرنسى لويس التاسع أثر البقاء الى حين وصول أخيه الفونس كونت بواتييه على رأس النجدة التى أخذ فى جمعها من فرنســـا[٨٤] • أما فى حملته على تونس ، فقد حرم الجيش الصـــليبى من مواصـــلة انتصـــاراته على المسلمين الى حين وصـــول شـــقيقه شارل دانجو • ونتج عن ذلك أن أصبح الفرنج فى موقف لا يحســـدون عليه • فلم يقتصر الأمر على الضربات التى أخذ المسلمون فى كيلها لهم ، والهجمات التى كانوا يشنونها على معسكراتهم دون هوادة ، وحرب الكر والفر التى سببت لهم مضايقات كثيرة ، بل فتكت بهم الأوبئـــة والأمراض ، فهلك الجيش الصليبى وقادته نتيجة هذا الانتظار الذى لم يكن له داع • ونتج عن ذلك أن تأخر سقوط معسكر المسلمين الى مجىء شارل دانجـــو •

---

(٨٤) Joinville, p. 98. انظر ايضا : جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبى على مصر ، ص ١٢٢ •

الخاتمة

وبسقوط معسكر المسلمين فى قبضة الصليبيين ، أسدل الستار على حرب الاستنزاف الضارية التى شنها المسلمون على الاحتلال الصليبى للاراضى التونسية • ونستخلص من العرض السابق أن بريما أتقن تصوير تفاصيل المعارك كأنه مراسل حربى يكتب يومياته فى صحيفة يومية ، ووصل الى قمة دقته حين تطرق الى عقد مقارنة طريفة ودقيقة عن فنون الحرب لدى الطرفين المتصارعين ، ولم يفته التطرق الى مقارنة أسلحتهما • ولم يتورع عن مدح المسلمين فى هذا الصدد ، وتوجيه النقد اللاذع للفارس الصليبى الثقيل وأسلحته الأثقل منه •

ويمكن القول انه لولا حولية بريما لأصبحت حركة المقاومة الاسلامية للعدوان الصليبى على تونس مجهولة تماما ، لاغفال كافة المصادر الاسلامية واللاتينية ذكر تفاصيلها • وهكذا أضافت الجديد الى تفاصيل حملة لويس التاسع على تونس • ومما أكسب حولية بريما أهميتها أن كاتبها كان معاصرا للاحداث ، وعرف بالدقة والصدق فيما يكتب ، ونجح الى أبعد مدى فى أن يسجل الحقيقة البحتة التى لا يتطرق اليها أدنى شك • وقد انقض جيوم دى نانجى على مصنفه انقضاضا ، فنقل عنه الكثير والكثير ، وجنح الى ايجاز روايته المفصلة أحيانا • على أية حال ، لولا حولية بريما ، لأصبح تاريخ دى نانجى عن « فضائل القديس لويس وأعماله » المصدر الأول لدراسة العدوان الصليبى على تونس سنة ٦٦٨ — ٦٦٩ هـ/١٢٧٠ م •

الموضوع السابع
رسائل بيير دوكونديه عن العدوان الصليبى علي تونس
«دراسة تحليلية نقدية مقارنة للمصادر»

بقلم الدكتور فايز نجيب اسكندر
الأستاذ في قسم التاريـــــــخ

تحتل رسائل بيير دوكونديـه(١) Pierre De Condet مكانة بالغة الأهميـة لتتبـع أحداث حملة لويس التاسع Louis 1X الصليبية على تونس منذ لحظة إبحارها من ميناء ايج مورت Aigues - Mortes جنوب فرنسا في الأول من يوليـو سـنة ١٢٧٠م/٦٦٨هـ ، الى لحظة اخفاقها في تحقيـق أهدافهـا بعـد أن أبـرم الصليبيـون معـاهدة سـلام مـع السـلطان الحفصى (٢) المستنصر بالله (٦٤٧-٦٧٥هـ/ ١٢٤٩-١٢٧٧م) في الخـامس مـن نوفمـبر سنة ١٢٧٠م/٦٦٩هـ ورحيل الجيوش الصليبية الغازية عن تونس .

وترجع أهمية هذه الرسائل (٣) الى احتوائها على معلومات دقيقة ساعدت على تصحيح العديد من الأخطاء الواردة في بعض مصادر المؤرخين الغربيين ، خاصة الأخطاء التـى انزلـق اليها جيوم دو نانجى (٤) Guillaume De Nangis نتيجة نقله عن غيره مـن المصـادر دون تمحيص أو تدقيق .

كذلك انفردت هذه الرسائل بذكر أحداث مر عليها المؤرخون المعاصرون مرّ الكـرام . ويرجع سبب انفراد الاسقف الفرنسى بيير دوكونديه بذلك الى كونه مرافقـا لقـائد الحملـة منذ لحظة انطلاق السفن الصليبية من ميناء ايج مورت ، الى لحظة عودة الصليبيين ثانيـة الى فرنسـا عقب فشلهم في تحقيق أهدافهم . اضافة الى ما تقـدم ، كـان بيير دوكونديه أقـرب

---

* بحث أعد للندوة العربية عن "العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسـطى" ، والتي أقامتها كلية الآداب - جامعة الأسكندرية وذلك في أكتوبر ١٩٩٢م.

المقربين الى قلب الملك الفرنسى ومستشاره الشخصى ، خاصة وأن لويس التاسع كان يعترف على يديه . وتدل مشاركته في كافة المجالس الاستشارية التى ضمت كبار زعماء الحملة ، والتى كانت بمثابة المحرك الأساسى لمجريات الأحداث ، الى مكانة ناسخ هذه الرسائل ، وكونه من الشخصيات البالغة الأهمية في تسييرها (٥) .

والجدير بالذكر أن الأسقف بيير دوكونديه نجح في سد بعض الثغرات في المادة العلمية التى خلفها لنا بعض كتاب سيرة القديس لويس من أمثال جوانفيل (٦) Joinville ، وجيوم دو نانجى ، وجيوفروا دو بوليو (٧) Geoffroi De Beaulieu ، وحولية بريما Chronique De Primat التى تعد أهم مصادر هذه الحملة على الاطلاق ، والتى أعددنا عنها بحثاً نشر سنة ١٩٨٦ (٨) .

على أية حال ، اتخذت الرسائل الخمس (٩) لبيير دو كونديه شكل صحيفة تكاد تكون يومية ، تطلعنا على أحداث وأخبار الحملة أولا بأول ؛ رئيس تحريرها صحفى بارع يصف بعين شاهد العيان كل جديد يطرأ . والأدهى من هذا أنه يعالج مجريات الأحداث بعين يقظة، ولم يفته – بعينه الفاحصة المدققة – التعليق الدقيق عليها فى كثير من الأحيان ؛ وفى أحيان أخرى ، لايتأخر عن ابداء رأيه الشخصى فى مجريات الأمور . ويعد هذا تطورا هائلا فى الكتابة التاريخية فى الغرب الأوربي آنذاك ، اذ ان المؤرخ الغربي عادة كان يكتفى بذكر الأحداث دون التعليق عليها ؛ وكثيرا ما كان يؤولها تأويلا دينيا ، مرجعا الهزيمة الى غضب الهى والنصر الى رضاء من الله .

كذلك وصل بيير دوكونديه الى قمة تحرى الدقة وتمحيص الأحداث حين أشار فى رسالته الثانية الى انحطاط معنويات الجيش الصليبي عقب وفاة لويس التاسع (١٠) فى الخامس والعشرين من أغسطس سنة ١٢٧٠م/السادس من محرم سنة ٦٩٩هـ ، مرجعا أسباب ذلك الى تفشى الوباء الفتاك فى صفوف الجيش الصليبي ، مما جعل كل شخص يمسك بقلبه فى يده منتظرا انتهاء أجله بين لحظة وضحاها . (١١)

ولا يفوتنا أن نذكر أن كونديه أورد ملخص اتفاقية السلام المبرمة بين السلطان الحفصى المستنصر بالله والصليبين ، وذلك فى رسالته الثالثة المؤرخة فى الحادى عشر من نوفمبر سنة ١٢٧٠م/٦٦٩هـ ، التى أرسلها الى الأسقف متيو Matthieu أحد الوصيين على

عرش فرنسا أثناء الحملة ، ورئيس دير سان دينيه Saint - Dennis . وترجع أهمية ملخص الاتفاقية السالفة الذكر الى تطابق نصها مع النص المنسوخ باللغة العربية (١٢) . وقد أورد المستشرق الفرنسي جاريجو جراشان Garrigou - Grandchamp في دورية الحولية التونسية ، صورة فوتوغرافية واضحة لنفس النسخة العربية ، ثم قام بتحقيق نص الاتفاقية ونشره باللغة العربية . ولم يكتف بذلك ، بل قام بترجمته الى الفرنسية . والجدير بالتسجيل في هذا الصدد أن نص الاتفاقية الذى أورده جيوم دو نانجى افتقر الى الدقة واتسم بالاختصار وكثرة الأخطاء ، بينما كان النص الوارد في حولية بريما أكثر دقة واسهابها (١٣) .

ولكون كونديه شاهد عيان للأحداث التي سجلها في رسائله ، فقد نقل عنه كل من بريما (١٤) ، وجيوم دو نانجى (١٥) بعض الأحداث ؛ مما يؤكد ثقتهما فيما أورد من معلومات . كذلك صحح كونديه ما ورد في حولية بريما عن أن الصليبيين عقدوا مجلسا استشاريا قبيل مغادرة تونس ؛ الا أن كونديه أكد أن المجلس الاستشارى عقد بعد هدوء العاصفة ، ووصول السفن الى ميناء ترابانى (١٦) (درابانو) Trapani (Drapano) ، ويؤكد صحة روايته أنه كان شاهد عيان للأحداث التي يكتب عنها من ناحية ، وحاضر لكافة المجالس الاستشارية التي عقدها الصليبيون من ناحية ثانية .

وكان من الطبيعي أن يؤخذ على الأسقف بيير دوكونديه جنوحه الى الاختصار أحيانا ، وتجاهله ذكر بعض الأحداث أحيانا أخرى ، وهذا ما سنوضحه في الدراسة التحليلية . الا أننا نلتمس له العذر ، لأن كاتب الرسائل يستحيل عليه تحويل حجم رسائله لتصل الى حجم المصنف في الكبر ، فبالتالى فهو مكره على اختصار الأحداث ، وذكر الهام منها فقط ، وتجاهل البعض الآخر لقلة أهميته في مجرى الأحداث .

هذا عن مدى أهمية الرسائل الخمس لبيير دوكونديه لدراسة أحداث العدوان الصليبي على تونس . أما عن سيرة ناسخ هذه الرسائل ، فقد ولد في شارتر Chartres بين عامى ١٢٢٥ و١٢٣٦م ؛ وكان كاهنا في دير شاج Chage الواقع في أقليم مو Meaux ، ثم أصبح فيما بعد أحد الكهنة الأربعة لكنيسة القديس لويس والخاصة بأسرته ؛ فكان زعيم الحملة يعترف على يديه ، والتصق به وبأحداث حملته - كما سبق أن ذكرنا - مما

أكسب رسائله مكانة بالغة الأهمية بين المصادر اللاتينية والاسلامية على السواء . وبعد فشل الحملة ، عاد ثانية الى فرنسا ، فعين عميدا لكلية سان مرسيل Saint Marcel الواقعة بالقرب من باريس . ثم شغل منصب راعى كنيسة بيرون Peronne فيما بين عامى ١٢٨٠ و ١٢٨٤م . وفى عام ١٢٩٥م أبدى استعداده للانخراط وللمرة الثانية فى صفوف حملة صليبية مرتقبة . الاان البابا بونيفاس الثامن (١٢٩٤- ١٣٠٣م) Boniface VIII أعفاه من الوفاء بنذره نظرا لشيخوخته ، وأوصاه - عوضا عن ذلك - أن يدفع مبلغا من المال يخصص لنجدة الأراضى المقدسة واستعادتها من المسلمين . وكان بيير دوكونديه آنذاك رئيسا لشمامسة سواسون Soissons .

هذا عن المراتب الدينية التى ارتقاها ناسخ الرسائل الخمس ، إلا أننا لانعلم بدقة سنة وفاته ؛ ومع ذلك . فإننا نلاحظ أن اسمه لم يدرج فى عداد أسماء الأحياء فى السجلات الكنسية الخاصة بتاريخ حياة رجال الدين ، والمحفوظة فى كنيسة سان ماجلوار Saint - Magloire . ويرجع تاريخ هذه السجلات الى التاسع عشر من يناير سنة١٣١٥م (١٧) .

هذه لمحة سريعة موجزة عن حياة ناسخ الرسائل الخمس التى غطت أحداث حملة لويس التاسع الصليبية على تونس . واذا انتقلنا الى محتوى رسالته الأولى (١٨) ، الموجهة الى رئيس دير أرجنتوى(١٩) Argenteuil ، نلاحظ أنها أطول الرسائل الخمس . وقد استهلها الأسقف الفرنسى بالقول انه أرسلها رغبة منه فى ذكر تفاصيل تلك الحملة (٢٠) التى شارك فيها . وأشار الى أن الملك الفرنسى عانى الأمرين بعد رحلة بحرية شاقة (٢١) محفوفة بالمخاطر (٢٢) ؛ وانتهى به المطاف برسو السفن الصليبية فى ميناء كاجليارى (٢٣) Cagliari فى جزيرة سردينيا وذلك يوم الثلاثاء (٢٤) . عقب هذا الانزال ، أوفد العاهل الفرنسى قائد الأسطول الصليبى الى حاكم القلعة وكبار أشرافها . فاستقبل المبعوث الصليبى من الجميع استقبالا بالغ الخشونة والصلابة والجفاء ،لارتياب القائمين على القلعة من قدوم الجيوش الصليبية (٢٥) ؛ فانتابهم الخوف والهلع (٢٦) لدرجة أنهم لم يسمحوا لقائد الأسطول بدخول القلعة ، واكتفوا بتزويده بقليل من الماء العذب وبعض الخضروات والخبز (٢٧) .

وفى ساعة مبكرة من صباح يوم الاربعاء (٢٨) ، أوفد اليهم الملك الفرنسى قائد أسطوله (٢٩) وبصحبته أحد مستشاريه (٣٠) وبعض كبار الأمراء الاقطاعيين ، ليبعث الطمأنينة في قلوب حامية القلعة (٣١) . وبالفعل ، نجح السفراء فى أداء المهمة الموكلة اليهم على أكمل وجه ، وطلبوا من رجال الحامية السماح لهم بانزال العدد الهائل من المرضى لعلاجهم ، حتى يتمكن الصليبيون من اعادة تنظيم صفوفهم . فحبذ رجال الحامية أن يدخل الملك الفرنسى القلعة وبصحبته بعض أتباعه ، شريطة أن يضمن حمايتهم من شراسة وبطش الجنوية ، علما بأن القلعة كانت تابعة للبيازنة ، وكان الكره والحقد والاقتتال بين البيازنة والجنوية على أشده آنذاك (٣٢) . بعد ذلك قام العاهل الفرنسى بانزال المرضى من القلعة ، وتوفى منهم ما لاحصر له (٣٣) ، ومكث ثمانية أيام فى ميناء كاجليارى (٣٤) دون أن يبارح سفينته . وكان البارونات وكبار رجال الاقطاع يتوافدون يوميا على الميناء ليلتقوا به (٣٥) . وفى يوم السبت (٣٦) والاحد (٣٧) ، عقد الملك الفرنسى مؤتمرا استشاريا موسعا (٣٨) حضره كبار أقطاب الحملة بما فيهم بيير دوكونديه(٣٩) .

وفى يوم الثلاثاء التالى(٤٠) ، غادر الجميع ميناء كاجليارى (٤١) ، وتمكن الأسطول الصليبى (٤٢) من التسلل الى خليج تونس (٤٣) وذلك يوم الخميس (٤٤) حوالى الساعة التاسعة صباحا (٤٥) . حينئذ ، انتاب أهل تونس الهلع والدهشة ، ولاذوا بالفرار بمجرد رؤية الجيوش الصليبية (٤٦) . ومما لاشك فيه أنهم كانوا يجهلون تماما أخبار تلك الحملة(٤٧) – على حد ادعاء بيير دوكونديه – وأن باستطاعة الجيوش الصليبية الوصول الى أراضيهم . وفى نفس اليوم ، أصدر الملك الفرنسى أوامره الى قائد أسطوله بتفتيش الميناء للتحقق من هوية السفن الراسية . فعثر على بعض السفن التابعة للمسلمين ، فتحفظ عليها ، لكنه أطلقها تجوب عباب البحر عندما وجدها خاوية . اضافة الى ذلك ، عثر على سفن تجارية ، الاأنه لم يتعرض لها (٤٨) . وواصل قائد الأسطول الفرنسى تقدمه الى أن تمكن بلا أي عائق من الانزال براً والاستيلاء على ميناء تونس (٤٩) ، وأخبر الملك بذلك، وطلب منه أن يرسل اليه الامدادات اللازمة . حينئذ انتاب لويس التاسع ارتيابا شديدا عندما علم بهذا النبأ قائلا انه لم يصدر أوامره الى قائد أسطوله بالانزال براً . وأسرع

باستدعاء مستشاره ، وأمر بدعوة مجلس استشارى حضره بيير دوكونديه وضم جميع البارونات للتشاور فى هذه الأحداث المستجدة . وتضاربت آراء المستشارين ، فكان رأى البعض الاسراع بارسال النجدات التى طلبها قائد الأسطول . أما رأى الفريق الآخر ، فكان على النقيض من ذلك ، وكانت حجته أن احتلال الارض بهذه الطريقة يعد بعيدا عن الحكمة والصواب ، ومحفوفا بالمخاطر والأهوال (٥٠) . وقد انفرد أمير برسينى Pressigny برأى غريب ، يستخلص منه أن الحروب الصليبية حركة استعمارية استيطانية فى المقام الأول ، اذ قال للملك الفرنسى : " ياسيدى ، اذا رغبتم فى أن نبذل قصارى جهدنا ، فدع كل منا يستولى على الأرض التى باستطاعته الأستحواذ عليها والاقامة فيها(٥١) " . وبعد جدال طال امده ، تم الاتفاق على أن يذهب فيليب ديفرو (٥٢) Philippe D'Evreux بصحبة قائد رماة المجانيق (٥٣) للقاء قائد الأسطول الصليبى ، وبناء على رأيهما ، اما سيعيدون قائد السطول ثانية ، واما سيرسلون الى الملك يطلبون منه النجدات لاستكمال الانزال براً طوال الليل . وانتهى الأمر بأن اتفق المبعوثان على اعادة قائد الأسطول ، علما بأن هذا الرأى لقى معارضة الغالبية العظمى (٥٤) . ويرى بيير دوكونديه أنهم كانوا على حق فى ذلك ؛ اذ حدث فى صباح يوم الجمعة (٥٥) أن توافدت على الميناء جموع غفيرة من المسلمين أتت من كل فج وصوب . حينئذ ، أسرع الملك الفرنسى باستدعاء مستشاريه من جديد ، واتفق الجميع على الانزال براً . وبدأ الجيش الصليبى فى تنفيذ العملية ، فتقدمت ثانية (٥٦) لويس التاسع على بقية السفن ، وبفضل الله – على حد قول الأسقف الفرنسى – هبط الصليبيون على الشواطىء التونسية، فى نفس موضع نزول قائد الأسطول ؛ الا أن الفوضى دبت فى صفوفهم ، حتى أنه كان بامكان بضع مئات من المقاتلين المسلمين أن يحولوا بينهم وبين نزولهم على الشاطىء ، والغريب فى الأمر أن الجيش الصليبى لم يصادفه أية مقاومة (٥٧) .

عقب هذا النجاح الذى حققته الحملة الصليبية الثامنة ، أقام الصليبيين معسكرهم فى جزيرة طولها يزيد على الفرسخ ، وعرضها يزيد على ثلاث رميات منجنيق (٥٨) ، تحيطها المياه من كل جانب . وارتأى الصليبيون أنهم سوف لايعثرون بها على نقطة ماء عذب . لذا عانوا الأمرين براً أكثر مما عانوه بحراً (٥٩) . وفى يوم السبت (٦٠) تسلل بعض

الصليبيين الى أن وصلوا الى برج مجاور ، حيث وجدوا فيه بعض الصهاريج المملوءة بالماء العذب . وفجأة اعترض طريقهم حفنة من المقاتلين المسلمين أتوا على العديد منهم ، وانتهى الأمر بأن نجح الصليبيون في الاستيلاء على البرج . " لم يتطرق اليأس الى قلب المقاتلين المسلمين ، بل قاموا بمباغتتهم ، وأحاطوهم احاطة السوار بالمعصم وحاصروهم داخل البرج. فما كان من لويس التاسع الا أن أرسل بعض قادته لفك حصار رفاقهم في السلاح، وانقاذهم من الهلاك . حينئذ ، اندلعت معركة ضارية بين المسلمين والصليبيين كان الاقتتال فيها عن بعد ، لأن المسلمين خشوا الاقتراب من الصليبيين على حد زعم بيير دوكونديه . فكان المسلمون يطلقون الرماح على الصليبيين ويلوذون بالفرار ، وكان هدفهم الأوحد من ذلك قتل الخيول دون الفرسان ، كذلك كانوا يقتلون المشاة وكل من ضل طريقه ، وراح ضحية هذا الاقتتال أعداد قليلة من كلا المعسكرين . وانتهت هذه المعركة باطلاق سراح المحاصرين في البرج ، واعادتهم ثانية الى المعسكر الصليبي (٦١) .

على أية حال ، أمضى الصليبيون يوم الأحد (٦٢) في تلك الجزيرة ، لكن مشكلة انعدام الماء العذب بها أجبرتهم على الجلاء عنها (٦٣) . وفي يوم الاثنين (٦٤) ، زحف الجيش الصليبي نحو قصر قرطاجة (٦٥) Carthage الذي يبعد عن هذه الجزيرة بما يناهز الفرسخ ؛ وتمكن الصليبيون من الاستيلاء على البرج ، ولاذ المدافعون عنه بالفرار خوفا من القتل . وأقام الجيش الصليبي معسكره في واد يحتوى على آبار عديدة تستخدم لري أراضيه (٦٦) . ومن هذا الموضع الاستراتيجي كان باستطاعة الجيش الصليبي أن يصل بسهولة الى الميناء ، أو الى سفنه الراسية ، أو الى قصر قرطاجنة (٦٧) .

وفي يوم الثلاثاء (٦٨) ، أقام بعض البحارة الجنوية (٦٩) معسكرهم بالقرب من الملك ، وأخبروه بأنهم تكفلوا بالاستيلاء على قصر قرطاجة ، شريطة أن يزودوهم ببعض الكتائب الصليبية (٧٠) لمساعدتهم على تحقيق هدفهم . ودارت المشاورات بصدد هذا الاقتراح(٧١) ، وانتهى الأمر بأن يظلوا على أهبة الاستعداد لخوض المعركة المرتقبة والاعداد والاستعداد لها عسكريا (٧٢) وفي يوم الخميس (٧٣) ، استعرض الملك البحارة الجنوية ، وأمر بامدادهم بأربع كتائب ؛ هذا بينما شكل مع بقية باروناته سبع عشرة كتيبة حربية (٧٤) . واصدر أوامره الى الجميع بالزحف لقتال المسلمين ، وحماية الكتائب الأربع

المكلفة بحصار قصر قرطاجة ، والوقوف حائلا أمام الأعداء الكثيرى العدد من الانقضاض عليها أو الاقتراب من القصر المحاصر (٧٥) .

وهكذا ، تمكن البحارة الجنوية (٧٦) ، بفضل مساعدة الكتائب الأربع ، من تسلق أسوار القصر أمام أعين المسلمين الذين انتابهم الذهول والشلل التام ، وظلوا ساكنين في أماكنهم (٧٧) . وقتل الصليبيون معظم رجال الحامية المكلفة بالدفاع عن القصر ولاذ الباقون بالفرار . أما السكان ، فقد اختبأ العديد منهم هربا من القتل (٧٨) . ويدعى بيير دوكونديه أن أحد البحارة الجنوية قتل ، بينما لم يجرح أحد (٧٩) .

وبعد سقوط قصر قرطاجة في قبضة الصليبيين (٨٠) ، لاذ بعض المسلمين بالفرار عن طريق سراديب سرية ، مصطحبين معهم الأبقار وبعض الحيوانات الأخرى (٨١) . ورغم رؤية الصليبيين لهم ، فلم يقدموا على مطاردتهم ، لعدم صدور الأوامر اليهم بذلك (٨٢). على أية حال ، اختبأ العديد من المسلمين داخل القصر ، اما فى الملاجىء أو فى مغارات وكهوف تحت الأرض . وكان الصليبيون يقتلون يوميا ما يقع منهم فى قبضة أيديهم . أما البعض الآخر ، فقد لقى حتفه نتيجة اندلاع النيران فى بعض هذه ألكهوف (٨٣) ؛ والذين ظلوا على قيد الحياة ، فقد لاقوا حتفهم بطرق أخرى (٨٤) .

وعقب سقوط قصر قرطاجة (٨٥) ، تمنى زعيم الحملة لويس التاسع الاقامة فيه ، الا أن الروائح الكريهة المنبعثة من جثث الموتى حالت دون تحقيق أمنيته ؛ لذا أصدر الأوامر بازالة الجثث التى ملئت القصر (٨٦) .

ويذكر بيير دوكونديه قولا مأثورا مفاده أن الذى يصبح سيدا على قرطاجة سيصبح بالتالى سيدا على كل الأراضى التونسية (٨٧) . الا أنه سرعان ما يعارض هذا القول ، وحجته فى ذلك أن الصليبيين لم ينعموا بالأمن والأمان ابان سقوط قصر قرطاجة فى أيديهم؛ اذ اندلعت الحرب الشعبية الضارية لطردهم من الأراضى التى احتلوها (٨٨) . ويعترف بيير دوكونديه فى رسالته الأولى هذه بمدى فاعلية المقاومة الشعبية من جانب سكان تونس حين ذكر أنهم كانوا ينطلقون من كل فج وصوب وبأعداد لاحصر لها ، لدرجة أنهم كانوا يقلقون الصليبيين ويجبرونهم على اعلان الاستنفار العام والاستعداد للقتال أكثر من مرة فى اليوم الواحد (٨٩) .

هكذا كانت حرب الاستنزاف التى شنها المسلمون على الصليبيين شديدة الفاعلية لدرجة أنها بثت الرعب والهلع فى صفوفهم . وقد زودتنا حولية بريما بلوحة ناطقة ومفصلة عن حرب الاستنزاف الاسلامية فى مواجهة الوجود الصليبى على الأراضى التونسية ، هذا بينما أهملتها كافة المصادر الاسلامية اهمالا يكاد يكون تاماً بسبب ابرام المستنصر الحفصى اتفاقية سلام مخزية – من وجهة نظرهم – مع الأعداء الصليبيين .

على أية حال ، عقب هذا النصر الذى حققه الصليبيون ، خشى المسلمون من مواجهة فيالق الجيش الصليبي ، واكتفوا بقتل الجنود الشاردين عن معسكرهم ، أو الذين ينقضون عليهم محاولين قتلهم . ومع ذلك ، فمن المعتقد أن عدد القتلى فى صفوف المسلمين فاق مثيله فى صفوف الجيش الصليبى . ولاحظ الأسقف الفرنسى بعين الفاحص المدقق أنه عندما كان الصليبيون يطاردون المسلمين ، كان هؤلاء يلوذون بالفرار ، لكن بمجرد انسحاب الصليبيين ، كان المسلمون يسرعون بمطاردتهم وقذفهم بوابل منهمر من رماحهم(٩٠) .

ويختتم بييردو كونديه رسالته الأولى بذكر انتظار الجيش الصليبى قدوم ملك صقلية على أحرّ من الجمر (٩١) ؛ علما بأن الملك الفرنسى كان قد أرسل اليه من سردينيا يستعجله ويحثه على سرعة الانضمام الى صفوف الجيش الصليبي . ووصل المبعوث الملكى ليخبر لويس التاسع أنه قادم فى القريب العاجل . ازاء هذا التأخير ، أرسل اليه الملك مبعوثين جدد لاستعجال قدومه ، وانضمامه بقواته الى صفوف الحملة فى زحفها المرتقب . ويعلق بييردو كونديه على هذا التأخير بقوله : " نتعشم وصوله فى خلال الستة أيام القادمة"(٩٢) .

وأخيرا ، أنهى الأسقف الفرنسى رسالته بذكر أن الجميع بخير وبصحة جيدة ، بما فيهم ناسخ الخطاب والملك وأولاده والأمراء ؛ وأنه نسخ خطابه هذا من داخل المعسكر الصليبى المقام فى قرطاجة وذلك يوم الأحد ، يوم عيد القديس جاك (٩٣) **Saint Jacques** .

هذا عن محتوى رسالة بييردو كونديه الأولى ، والتى غطت أحداث الفترة الممتدة من لحظة ابحار السفن الصليبية من فرنسا فى أول يوليو سنة ١٢٧٠م/٦٦٨هـ ، الى تاريخ تحريره لخطابه فى السابع والعشرين من نفس هذا الشهر .

وبعقد دراسة تحليلية نقدية مقارنة مع بقية المصادر من لاتينية واسلامية ، نلاحظ أن الأسقف الفرنسي – لكونه محرر الرسالة وليس كاتبا لمصنف – اضطر الى اختصار بعض الأحداث ، واهمال ذكر البعض الآخر ، والاتيان بأحداث لم ترد في غيره من المصادر الأخرى ؛ وسبب ذلك أنه كان شاهد عيان لها ، ومشارك في تخطيط أحداثها نتيجة حضوره كافة المجالس الاستشارية التي عقدها زعيم الحملة لويس التاسع .

فالأسبوع الأول من أحداث الحملة ، أى الفترة الممتدة من يوم الثلاثاء الأول من شهر يوليو سنة ١٢٧٠م/٦٦٨هـ حتى يوم الاثنين السابع من نفس هذا الشهر ، اكتفى بييردو كونديه بالقول أن الصليبيين تعرضوا لمخاطر بحرية جسيمة .وربما كان على حق في جنوحه لاختصار هذه الأحداث ، لأن تفاصيلها ليست بذى قيمة على مجريات الأحداث التالية . وقد سدت حولية بريما هذا القصور حين أظهرت معاناة الصليبيين نتيجة نقص المياه العذبة الصالحة للشرب ؛ فالمياه التي كانت في حوزة الصليبيين أصيبت بالعفن ، وبالتالي استحال عليهم شربها (٩٤) . والأهم من هذا ، أظهرت الحولية انعدام ثقة الصليبيين في البحارة الجنويين ، حين ذكرت أنه تولدت الشكوك لدى قادة الحملة الصليبية في تصرفاتهم ، اذ قيل ان الرحلة من ميناء ايج مورت الى ميناء كاجليارى بسردينيا لاينبغى أن تتعدى أربعة أيام ، لكنها تجاوزت ذلك بكثير ، وبالتالي اعتقد الصليبيون ان الجنويين تعمدوا الابحار ببطء شديد (٩٥) .

وتذكر الحولية أيضا أن أحد أديرة جزيرة سردينيا أرسل الى الصليبيين – وهم على مسافة تسعة أميال من ميناء كاجليارى – قاربا محملا بالماء العذب والخضروات الطازجة ، وبذلك استعاد بعض المرضى صحتهم (٩٦) . وبنزول الجيش الصليبي في كاجليارى ، صورت حولية بريما الهلع الذى أصاب أهلها حين انفردت بالقول أن السكان حملوا ممتلكاتهم الثمينة وأثاثهم وأمتعتهم ليحفظوها في أمان خارج المدينة (٩٧) . من هذا يتضح أن أهل سردينيا أدرجوا الصليبيين في عداد الغزاة الأفاقين . كذلك زودتنا الحولية بإحصاء رقمى يوضح مدى الاستغلال الذى تعرض له الصليبيون على يد سكان كاجليارى ، اذ ركزت على التفاوت الصارخ في أسعار الدواجن حين عقدت مقارنة بين أسعارها قبل وبعد وصول الصليبيين . فالسكان كانوا يبيعون الدجاجة بأربعة دنييه جنوى

سبع Deniers De Genes ، فى حين أنه عقب وصول الصليبيين رفعوا سعرها الى اثنين سبع تورنوا Sous Tournois بل أكثر من ذلك . كذلك تبدل سعر صرف العملة لصالح سكان سردينيا ، فبعد أن كان اثنا عشر دنيه تورنوا تساوى ثمانية عشر دنيه جنوى ، أصبح اثنى عشر لاتساوى سوى دنيه جنوى واحد فقط . أى زادت الأسعار ثمانية عشر ضعفا عما كانت عليه قبيل وصول الصليبيين الى جزيرة سردينيا نتيجة تغير سعر صرف العملة الصليبية الى الأسوأ (٩٨) . حقيقة الأمر أن تفسير ذلك اقتصاديا راجع الى " قانون العرض والطلب " .

وأشارت حولية بريما أيضا الى أن الصليبيين – نتيجة ابتزاز سكان كاجليارى لهم – كانوا على أهبة الاستعداد لابادتهم وقلب المدينة رأساً على عقب بمجرد أن يأذن لهم زعيم الحملة بذلك . اذ لم يصادفهم من قبل شعبا يتصف بالجشع والاستغلال أكثر من هؤلاء . الاأن لويس التاسع تغاضى عن هذه السيئات ، حتى لايشهر السلاح فى وجه مسيحيين مثله ؛ اذ قال لاتباعه انه لم يأت لابادتهم رغم أنهم يستحقون بحق السحق عن آخرهم (٩٩) .

والحقيقة أن الصليبيين وجدوا بكاجليارى القليل من المؤن التى تكفى حاجيات سكانها فقط . وبالتالى – بقدوم هؤلاء الغزاة – زاد الطلب على العرض نتيجة عدم زيادة المعروض السلعى والانتاج ، فالتهبت الأسعار ؛ أضف الى ذلك جنوح أهل البلاد الى استغلال وابتزاز هؤلاء القادمين الجدد . وقد أنذر وحذر العاهل الفرنسى سكان المدينة من المغالاة فى أسعار السلع الغذائية ، فأذعنوا لمطلبه خوفا منه ومن بطشه وليس حبا فيه .

هكذا ، رسمت لنا حولية بريما صورة أوضح للعلاقة بين الصليبيين وسكان كاجليارى ؛ اذ سلطت الأضواء على انعدام التفاهم بين الطرفين ، مما نتج عنه رغبة الصليبيين فى ابادة سكان كاجليارى عن آخرهم عقابا لجشعهم واستغلالهم للظروف .

وفى موضع ثان ، أظهرت حولية بريما العداء الصارخ بين البيازنة والجنوية ، وخوف سكان كاجليارى من الجنوية ألد أعداء أسيادهم البيازنة . فمن هذا المنطلق ، طلب سكان المدينة أن يأتى الملك الفرنسى بشخصه الى القلعة ، واذا تعذر عليه ذلك ، فعليه أن يرسل بعض رجاله لحمايتهم من البحارة الجنوية أعداء البيازنة أسياد قلعتهم . فأخبرهم سفراء الملك أنه لايطمع فى الاستيلاء على قلعتهم ، بل كل ما يريده ويتمناه هو حماية المرضى

الصليبيين وحسن معاملتهم ، وأن يكفوا عن رفع أسعار السلع الغذائية . فاستجاب سكان القلعة لرغبة زعيم الحملة ، وتعهدوا بتنفيذ مطالبه . الا أن كل الذى فعلوه هو تبديل سعر الصرف بحيث يصبح اثنا عشر دنييه تورنوا مقابل أربعة عشر دنييه جنوى (١٠٠) .

وتحدثت حولية بريما من موضع آخر عن مدى الرعب الذى سيطر على قلوب سكان كاجليارى نتيجة كثرة أعداد البحارة الجنويه المنخرطة فى صفوف الجيش الصليبي . وقد تم تعيين اثنين من القناصل لحكمهم وفض المنازعات فيما بينهم . وظن سكان كاجليارى أن الجنوية سيحرقون قلعتهم ومدينتهم بمجرد أن يضع لويس التاسع قدمه فى سفينته للابحار الى تونس . لكن خاب ظنهم حين وجدوا أنه لم يلحق بهم أى أذى ، ولم يقتل منهم أحد ، لا على يد الجنوية ولا على يد الصليبيين . أمام هذه المعاملة الحسنة ، مثل أشرافهم أمام الملك الفرنسى ، وقدموا له عشرين برميلا من النبيذ الاغريقى الممتاز بلا مقابل . الا أن لويس التاسع رفض هديتهم ، واكتفى بتوصيتهم بحسن معاملة مرضاه ، وأخبرهم أن هذه المعاملة الحسنة تعد أحسن هدية مهداة اليه . حدث ذلك قبيل اقلاع السفن الصليبية من ميناء كاجليارى (١٠١) .

والجدير بالملاحظة أيضا أن بييردو كونديه اكتفى بالقول انه فى يوم السبت والأحد ، عقد الملك الفرنسى مؤتمرا استشارياً موسعا . ولم يزودنا بما دار فى هذا الاجتماع البالغ الأهمية والسابق مباشرة لعملية رحيل الجيوش الصليبية عن ميناء كاجليارى ، وذلك على الرغم من حضوره شخصيا هذا المجلس . الا أن بريما فصل الحديث فى هذا الصدد ، اذ أورد أنه فى يوم السبت التف كل البارونات حول الملك فى مجلس استشارى لاختيار وجهة الحملة . لكن المجتمعين لم يتخذوا قرارا لغياب كل من المندوب البابوى وكونت برتيانى Bretagne . وفى صباح يوم الأحد ، وصل الغائبان فاجتمع الجميع لاتخاذ القرار المناسب . ورأى العاهل الفرنسى توجيه الحملة ضد تونس ، وقد وافقه على ذلك المندوب البابوى ، بينما اختلف البارونات فى الرأى ، وانقسموا فيما بينهم ، وانتهى المجلس الاستشارى بموافقة الجميع على الهجوم على تونس (١٠٢) .

ويفسر لنا جيوفروا دو بوليو Geoffroi De Beaulieu فى مصنفه عن سيرة القديس لويس سبب اختيار زعيم الحملة تونس دون غيرها فيقول ان سيده اعتقد أن

سلطان تونس أراد اعتناق المسيحية على المذهب الكاثوليكي ، وأن الجيوش الصليبية ستشجعه على تحقيق هدفه المنشود دون خوف ، وستقدم له الحماية من ثورة شعبه عليه ، وأن هذه العملية سيتلوها اعتناق الشعب التونسي للمسيحية هو أيضا . وفي هذا الصدد أخذ على لويس قوله " آه لو كنت صهراً لهذا العاهل ! " . ويذكر بوليو أن كبار رجال حاشية زعيم الحملة أبلغوه واقنعوه أن تونس لايمكنها الصمود في مواجهة جيوشه الضخمة والقوية؛وأن سلطان مصر الظاهر بيبرس البندقداري(٦٥٨-٦٧٦هـ/١٢٦٠ -١٢٧٧م) يستمد منها أحسن خيوله ، وأن الانتصارات العديدة التي حققها السلطان المملوكي على الصليبيين في بلاد الشام سببها الامدادات الهائلة من مؤن وعتاد وخيول الآتية اليه من تونس . اضافة الى ذلك ، صوروا له أن بتونس كنوزاً هائلة ستكون عونا كبيرا للصليبيين لاستعادة بيت المقدس من قبضة المسلمين (١٠٣) . وهناك رواية أخرى مفادها أن شقيقه شارل دانجو ملك صقلية ، حرضه على غزو تونس عدوته اللدودة ؛ وذلك بعد أن حاول توجيه الحملة ضد القسطنطينية ، عاصمة الامبراطورية البيزنطية ، والتي كان يطمع في أن يصبح امبراطورا عليها (١٠٤) .

هذا عن ما دار في المجلس الاستشاري السابق على الرحيل من ميناء كاجلياري . أعقب ذلك وصول الجيش الصليبي الى خليج تونس بعد رحلة بحرية شاقة . ولم يزودنا بييردو كونديه بأعداد السفن الصليبية ، وأغفل أيضا ذكر تعداد الجيش الصليبي . الا أن المصادر الاسلامية سدت قصور المصادر اللاتينية . فابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ /١٤٠٥م) الذى نقل أحداث الحملة عن جده ، والذى يعد مصنفه أهم وأغزر المصادر الاسلامية على الاطلاق قال : " ولما نزل النصارى بالساحل وكانوا زهاء ستة آلاف فارس وثلاثين ألفا من الرجالة فيما حدثني أبى عن أبيه رحمهما الله ، قال : وكانت أساطيلهم ثلثمائة بين كبار وصغار ... " (١٠٥) . أما ابن الشماع ، والذى عادة ينقل روايته عن ابن خلدون – تماما كما يفعل جيوم دو نانجي حين ينقل عن بريما تارة وعن بييردو كونديه تارة ثانية – قال : " كان نزوله عن تونس ... بجموع وافرة ، فرسانا ورجالا ورماة ومددهم متصل كل يوم بالرجال والاقوات والعدة " (١٠٦) . هكذا ، كان ابن الشماع شديد الذكاء ، اذ تجنب الانزلاق الى المبالغة العددية . وقد سار على منواله ابن القنفذ القسنطيني اذ قال : " نزل

النصارى بتونس بسبعة من الملوك وبكثرة من العدد والعدد والخيل والأخبية ... " (١٠٧).
واذا انتقلنا الى رواية محيى الدين بن عبدالظاهر ، فقد قال : " وكانت عدة خيالة الفرنج خمسة آلاف فارس وتركبلية وجرخية مثل ذلك، خارجا عن رجال الشوانى ... " (١٠٨).
وفى المقريزى (ت ٨٤٥هـ /١٤٤١م) : " نزل [أى الملك الفرنسى لويس التاسع] بساحل قرطاجنة فى ستة آلاف فارس وثلاثين ألف راجل ... (١٠٩)" أما ابن أبى الزرع (ت ٧٢٦هـ /١٣٢٦م) فقد أورد : " وهم من أمم لا ـ لم لها عدد ، ومددهم فى البحر متصل ، فكانت الروم فى أربعين ألف فارس ، ورماتها فى ألف رام ، ورجالها مئة ألف راجل " (١١٠) .هكذا بالغت المصادر الاسلامية فى تقدير عدد المنخرطين فى الجيش الصليبى فى عدوانه الاستعمارى على تونس ؛ الا أنها فى نفس الوقت سدت النقص الموجود فى المصادر اللاتينية .

كذلك يؤخذ على بييردو كونديه تأكيده على أن المسلمين كانوا يجهلون تماما العدوان الصليبى على تونس والترتيبات المعدة لانجاح حملتهم . هذا بينما تؤكد المصادر الاسلامية خلاف ذلك ، بل أن جيوفروا دو بوليو أشار فى مصنفه الى السفارات المتبادلة بين لويس والمستنصر واستعدادات العاهل الحفصى لمواجهة الجيوش الصليبية ، اذ حشد الجيوش ، وعمل على اعدادها أحسن اعداد ، وتجهيزها احسن تجهيز ، وحصن الثغور ، وقام بإصلاح الأسوار واختزان الحبوب (١١١) . وفى نفس الوقت ذكر ابن خلدون ان السلطان الحفصى أوفد سفارة الى الملك الفرنسى تحمل اليه فدية قدرها ثمانين الف قطعة ذهبية ، نظير ابعاد الجيوش الصليبية عن أراضيه . الا أن لويس التاسع استولى على هذا المبلغ الهائل ، وواصل حملته العدوانية . ففى هذا الصدد يقول ابن خلدون " ... وأهم المسلمون بكل ثغر شأنهم وأمر السلطان فى سائر عمالاته بالاستكثار من العدة ، وأرسل فى الثغور لذلك باصلاح الأسوار واختزان الحبوب ، وانقبض تجار النصارى عن تعاهد بلاد المسلمين . وأوفد السلطان رسله الى الفرنسيين لاختبار رجاله ومشارطته على ما يمكن عزمه ، وحملوا ثمانين ألفا من الذهب لاستتمام شروطهم فيما عزموا ، فأخذ المال من أيديهم وأخبرهم أن غزوه الى أراضيهم . فلما طلبوا المال اعتل عليهم بأنه لم يباشر قبضته ... " (١١٢) . أما ابن الشماع ، فقد ذكر أن السلطان المستنصر طلب المهادنة من لويس التاسع ، فرفض

طلبه ، بل وأساء معاملة الرسل وأخبرهم " أنه متوجه اليه " (١١٣) . والجدير بالتسجيل أن ابن أبى دينار نقل نفس رواية ابن الشماع ، وقد اعتاد النقل عنه (١١٤) . وأخيرا ، تأتى رواية المقريزى ، ويبدو أنه نقلها عن ابن خلدون ، الذى زودنا بهذه الأحداث نقلا عن جده – كما سبق القول . ذكر المقريزى أن المستنصر : " بعث اليه رسله فى طلب الصلح ، ومعهم ثمانون ألف دينار ، فأخذها [الملك الفرنسى] ولم يصالحهم ، وسار الى تونس ... " (١١٥) .

هكذا ، أظهرت المصادر الاسلامية مساعى السلطان الحفصى السلمية لابعاد الحملة الصليبية الثامنة عن بلاده ، ثم استعداداته الحربية لمواجهة الغزو المرتقب لأراضيه . وبذلك لايمكن تقبل قول بييردو كونديه أن المسلمين كانوا يجهلون أخبار العدوان الصليبى قبل وقوعه . وربما يرجع أسباب هذا الخطأ الى أمرين : أولهما جهل بييردو كونديه بأخبار الحملة قبل ابحارها من ميناء ايج مورت ؛ والثانى أن الانتصارات الباهرة التى أحرزها الصليبيون على المسلمين بمجرد نزولهم على الشواطىء التونسية ، وفرار المسلمين وضعف مقاومتهم ، كل هذا جعله يعتقد أن عنصر المفاجأة كان سببا فى النصر الذى حققه الصليبيون .

هذا عن محتوى رسالة بييردو كونديه ، ودراستها دراسة تحليلية نقدية مقارنة حتى نتمكن من استكمال بعض النقص الوارد فيها .

والجدير بالتسجيل هنا أن الرسالة الأولى أرخت للأسابيع الأربعة الأولى من تاريخ العدوان الصليبى على تونس . وقد توقفنا عندها لنلتزم بالصفحات الثلاثين المحددة لكل بحث . وسنقوم بنشر وتحليل الرسائل الأربع المتبقية فى ابحاث تالية باذن الله .

الحواشي والتعليقات

(١) كان في نيتي نشر ودراسة الرسائل الخمس التي حررها بيردو كونديه وفي هذه الحالة ، سيتجاوز البحث التسعين صفحة . الا أن مجلة كلية آداب صنعاء - التي يشرفني نشر بحثي فيها - الزمتني ببحث لايتجاوز الثلاثين صفحة ، وبالتالي أجبرت على دراسة وتحليل الرسالة الأولى فقط ، التزاما بالمطلوب ، ومنعا لتشويه البحث بسبب الاختصار الى الثلث .

(٢) " الحفصيون " أسرة من البربر في شمال افريقية ، حكمت " افريقية " نيفا وثلاثة قرون (٦٢٦- ٩٨١هـ /١٢٢٨-١٥٧٤م) . وقد نسبت هذه الأسرة الى الشيخ أبي حفص عمر . وكان أبو عبدالله محمد المستنصر بالله (٦٤٧-٦٧٥هـ/١٢٤٩-١٢٧٧م) بحق أقوى حاكم في " افريقية المسلمة " . ونتيجة لهذا لم يقنع بلقب الأمير الذى قنع به والده " أبو زكريا " (ت ٦٤٧هـ/١٢٤٩م) فلقب نفسه " بالخليفة " و " أمير المؤمنين " . ونجح في الحصول على وثيقة من شريف أشراف مكة تجعله وريثا للخلفاء العباسيين . للتفاصيل أنظر : الذهبي : تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والأعلام - مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٤٥٢ تاريخ ، ورقة٤٣ . وعن الذهبي نقل الصفدي في : الوافي بالوفيات - مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٢١٩ تاريخ " تصوير شمسي " - ج٥ ، ورقات ٢٠٢-٢٠٤ ؛ القيرواني : المؤنس في أخبار افريقية وتونس - تونس ١٣٥٠هـ - ص ١٢٠ ؛ الزركشي : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية - تحقيق محمد ما ضور - تونس ١٩٦٦ ، ص ٣٢-٤٠ ؛ ابن القنفذ القسنطيني : الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية - تحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبدالمجيد التركي - تونس ١٩٦٨، ص ١١٧-١٣٤؛ ابن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر - دار الكتاب اللبناني ١٩٦٨- المجلد السادس، القسم الثالث ، ص ٦٢٦ وما بعدها ؛ أحمد بن أبي الضياف: اتحاف اهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان - تونس ١٩٧٦- ج١ ، ص ٢٠٣-٢٠٨؛ ابن الشماع: الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية - تحقيق الطاهر بن محمد المعموري - تونس ١٩٨٤، ص ٦٢- ٦٩ .

(٣) الجدير بالذكر أن الكثير من تفاصيل أحداث حملة لويس التاسع الصليبية على تونس عرفت من خلال رسائل عديدة نسخت بيد من شاركوا فى نسج خيوط أحداثها'. ولقد عثر على هذه الرسائل فى المكتبة الوطنية بباريس تحت رقم Fonds Latin No . 9376. وضمت رسائل نسخها الملك الفرنسى القديس لويس ، ورسائل أخرى كتبها ابنه فيليب الثالث ، وثالثة كتبها بيردو كونديه . وهناك أيضا العديد من الرسائل الأخرى كتبها بعض أفراد الحاشية الملكية الى شخصيات مرموقة مقيمة فى فرنسا . وقد نشرت هذه الرسائل فى مواضع متفرقة . ففى سنة ١٧٢٣م ، نشر أرشيرى Archery معظم هذه الرسائل فى مصنفه

Spiceligium Sive Collectio Veterum Aliquot Scriptorum ..., Nouv. Ed. ,Paris ,1723, 3Vol . in -Fol ., t 3, P663-670.

وكان دى شزن Du Chesne قد سبق له من قبل أن نشر خطابا لفيليب الثالث موجها الى المندوبين البابويين للكنيسة الفرنسية . والخطاب مؤرخ فى الثانى عشر من سبتمبر سنة ١٢٧٠م . نشر هذا الخطاب الملكى فى

Historiae Francorum Scriptores Costanei, P . 440-441

كذلك نشر لترون Letronne خطابا أرسله ثيبو دو نافار Thibaud De Navarre الى أسقف تسكلوم Tusculum فى الرابع والعشرين من سبتمبر سنة ١٢٧٠م نشره فى Bibliotheque De L'Ecole De Chartres, t. 5, 110-113. ثم قام ليوبولد ديلسل Leopold Delisle بنشر الخطابين السابقين فى

Instructions Adressees Par Le Comite Des Travaux Historiques Et Scientifiques... Litterature Latine Et Histoire Du Moyen Age, Paris, 1890, P. 72-77.

ومما يذكر أن هذه الرسائل جذبت أنظار العالم الألمانى سترنفلد Sternfeld فقام بترجمتها الى اللغة الألمانية ، ووضعها كملاحق لأطروحته التى نال بها درجة الدكتوراه . وكان عنوان الأطروحة " حملة لويس التاسع الصليبية على تونس سنة ١٢٧٠م وسياسة شارل الأول ملك صقلية " . وقد نشر أطروحته فى كتاب باللغة الألمانية بعنوان

Ludwigs Des Heiligen Kreuzzug Nach Tunis, 1270, Und Die Politik Karls I , von Sizilien , Berlin , 1896 , in 8 , P.359-363.

ويعد مصنف ستزنفلد أهم وأدق ما كتب عن حملة لويس التاسع الصليبية على تونس ، اذ قام بدراسة تحليلية نقدية مقارنة لكافة المصادر من لاتينية واسلامية .

(٤) ألف جيوم دو نانجي مصنفا عن فضائل القديس لويس وأعماله بعنوان Gesta Sanctae Memoriae Ludovici Regis Franciae نشر في مجموعة مؤرخي بلاد الغال وفرنسا (أنظر R.H.G.F.,t . xx , P . 313- 465.) . وقد أهدى نانجي مصنفه الى الملك الفرنسي فيليب الجميل (١٢٨٥- ١٣١٤م) . (أنظر R.H.G.F., t .xx , P. XLVIII . أنظر أيضا : جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبي على مصر - الاسكندرية ١٩٦٩- ص ٧ -٨ وحاشية رقم ٤). والملاحظ أن نانجى نقل عن حولية بريما نقلا يكاد يكون حرفيا حينا ، وجنح الى الاختصار أحيانا أخرى. كذلك اعتمد في مصنفه على جيلون دو ريمز Gilon De Reims وجيوفرا دو بوليو ، وعلى غيرهما من المؤرخين . والجدير بالذكر أن المؤرخين المعاصرين له لم يذكروا عنه شيئا (R.H.G.F., t.xx , P. XLVIII, t. xxiii ,P.2.) . ولقد زودنا جيوم دو نانجي أيضا بسيرة لفيليب الثالث (١٢٧٠-١٢٨٥م) (R.H.G.F. , t. xx ,P. 467-539.) اضافة الى ذلك ، كتب حوليتين وصلتا فى سردهما التاريخى الى نهاية القرن الثالث عشر . شملت الأولى النصف الأول من عهد فيليب الجميل ، وذيل عليها مؤرخ مجهول الى عام ١٣١٣م ، ووصل بها مؤرخ ثان مجهول الى سنة ١٣٢٨م . ثم كان تذييلا ثالثا توقف بالحولية عند عام ١٣٦٨م . انظر R.H.G.F. ,t. xx, P. XIV. ولمزيد من التفاصيل أنظر : R.H.G.F., t. xx, P.xiv-XLVIII.

(٥) Mirepoix , Saint Louis Roi De France, Paris , 1970, P.220.

(٦) عن جوانفيل ومصدره أنظر الترجمة العربية التى أعدها حسن حبشى تحت عنوان : القديس لويس ، حياته وحملاته على مصر والشام - دار المعارف بمصر ١٩٦٨ .

(٧) كان القديس لويس يعترف على يدى جيوفروا دو بوليو . كذلك كان بوليو مستشار الملك الفرنسى طوال عقدين من الزمان وأقدم من أرخ للعاهل الفرنسى . رافق بوليو لويس التاسع فى حملته على مصر ، فأسر معه وأطلق سراحه معه أيضا . ثم سار فى ركابه الى عكا، وعاد معه الى فرنسا ، ثم انخرط فى حملته على تونس ، وكان بجواره لحظة وفاته .

وفور فوز جريجوار العاشر Gregoire x بكرسي البابوية ، كلف بوليو بكتابة " سيرة القديس لويس " Vita Ludovici Noni (وردت الحولية في R.H.G.F., t. xx, P.1-26.) . ويؤخذ على مصنف بوليو اهماله ذكر تفاصيل الأحداث السياسية والحربية في عصر سيده ، واهتمامه بذكر تفاصيل حركات الهراطقة وسياسة لويس الدينية وتقواه . للتفاصيل أنظر :

R.H.G.F., t. xx , P. x , xxviii-xxx.

(٨) فايز نجيب اسكندر : المقاومة الاسلامية في مواجهة العدوان الصليبي على تونس سنة ١٢٧٠م/٦٦٨-٦٦٩هـ - الاسكندرية ١٩٨٦ .

(٩) نشر هذه الرسائل ليفي ميروبوا . أنظر :

Mirepoix, Saint Louis, p. 221-234.

(١٠) أكد بييردو كونديه في رسالته الثانية التي أرسلها من تونس الى أمين خزينة سانفرانشوار دو سنلس أن الملك الفرنسي توفي يوم الاثنين ٢٥ أغسطس سنة ١٢٧٠م حوالي الساعة التاسعة صباحا ، وأن شقيقه شارل دانجو ملك صقلية الذى طال انتظاره مثل أمام جثمان شقيقه لويس بعد وفاته بلحظات . أنظر

Pierre De Condet, Lettre Au Tresorier De Saint - Franchour De Senlis, p. 226.

وقد أجمعت كافة المصادر اللاتينية على وصول شارل دانجو في نفس يوم وفاة شقيقه . انظر:

Primat, Ch. xxxix, P.27., Nangis ,Listoire Du Roy Phelippe, Dans, R.H.G.F., t.xx, P.467.

(11) Condet, Lettre Au Tresorier De Saint-Franchour De Senlis , p. 227.

(12) Condet , Au Pere Abbe De Saint-Dennis , P.230-231.

(13) Documents Divers Relatifs A La Croisade De Saint Louis Contre Tunis, Revue Tunisienne, An. 1912, P. 384-394 ,447-470. Et An.1913, P. 480-481 .

(١٤) قارن رسالة بييردو كونديه الى أمين خزينة سان فرانشوار دو سنلس

Condet , Chronique

مع

Au Tresorier De Saint-Franchour De Senlis , P. 227. De Primat , Traduite Par Vignay , Ch. L, P. 74-75.

(١٥) قارن

Condet, Au Tresorier De Saint-Franchour, P.227.

مع

Nangis , Listoire Du Roy Phelippe, Dàns R.H.G.F. , t.xx , P. 475.
(16) Condet , Au Pere Abbe De Saint-Dennis, P. 230-231.
(17) Mirepoix , Saint Louis , P. 220.
(18) Condet , Au Prieur De L Abbe D Argenteuil, P.221-225.

(١٩) كتب بييردو كونديه هذه الرسالة من داخل المعسكر الصليبي بقرطاجنة وذلك يوم الأحد ٢٧ يوليو ١٢٧٠م، وهو يوافق يوم عيد القديس جاك Saint Jacques. أنظر :

Un Recueil De Lettres Sur La Huitieme Croisade, p.184; Mirepoix, p.255.

(٢٠) أبحرت الحملة من ميناء إيج مورت يوم الثلاثاء الأول من شهر يوليو ١٢٧٠م، بعد عيد القديسين بطرس وبولس (أنظر: Primat, p.41; Nanguis, p.443)وأنظر أيضا:

Wallon, Saint Louis, Tours, 1870, p.481; De La Marche,Saint Louis, Paris, 1935, p.355; Garrigou -Grandchamp, Document Divers, p.387.)

وقد أخطأ كل من روبير برنشفيك وبولانجيه حين حددا موعد ابحار الحملة بالثاني من شهر يوليو. أنظر :

Brunschvig, La Berberie Orientale sous Les Hafsides, Paris, 1932, t.I, p. 55; Boulenger, La vie De Saint Louis, Paris, 1929, p. 243.

(٢١) أستمرت هذه الرحلة البحرية الشاقة خمسة أيام . أنظر :

Wallon, p. 483; Brunschvig, t.I, p.55.

(٢٢) أشار بريما الى تفاصيل المخاطر التي أحدقت بسفن الصليبية ، اذ قال انه بعد ابحار الحملة من ميناء إيج مورت ، هبت عاصفة عاتية كان من نتيجتها تفريق الأسطول الصليبي. حينئذ لجأ القديس لويس الى أقامة الصلوات المتتالية . ويذكر بريما أنه كان من الأستحالة على المرء أن يقف بثبات على متن أي سفينة، بعد أن أزدادت العاصفة عنفا. وقد حدد بريما موعد بداية العاصفة بليلة الجمعة الرابع من يوليو، وقال إنه في اليوم التالي هدأت كثيرا، الا أنه في يوم الأحد السادس من يوليو عادت العاصفة أقوى مما كانت عليه. أنظر :

Primat, p. 41; Nangis , p. 443. Cf. Wallon, P. 483; Boulenger, p.243.

(٢٣) أخطأ دلامارش حين ذكر ان الحملة انطلقت من ميناء إيج مورت الى تونس مباشرة دون ذكر الإنزال الصليبي في ميناء كاجليارى بجزيرة سردينيا . أنظر:

De La Marche, p.335.

(٢٤) كان ذلك يوم الثلاثاء الموافق الثامن من يوليو سنة ١٢٧٠م . أنظر :

Primat, p. 43. Cf. Wallon, p. 483., Documents Divers, p. 387.

(٢٥) Primat, p. 43. Cf. Wallon, p. 483., Brunschvig,t.I, p.55.

(٢٦) بلغ الرعب أقصاه ، حين قام سكان كاجلياري بإخفاء ممتلكاتهم الثمينة في أماكن بعيدة عن متناول أيدي هؤلاء الغزاة الأجانب؛ بل وصل الخوف مداه حين حملوا اثاث منازلهم ووضعوه خارج المدينة . أنظر :

Primat, p. 43. Cf. Boulenger, p. 245;Wallon , p. 483

(27) Primat, p. 43. Cf. Boulenger , p. 245-246.

(٢٨) أي التاسع من يوليو سنة ١٢٧٠م.أنظر: Primat,p.43. Cf. Wallon , p.483

(٢٩) لم يزودنا بيير دوكونديه باسم قائد الأسطول الصليبي ، الا ان بريما انفرد دون غيره من المصادر بذكر ان هذه المهمة أسندت الى إرنول دو كورتفران Eenol De Courtferrant أنظر: Primat, p.43 .

(٣٠) مستشاره هذا يدعى بير Pierre . أنظر:

Primat, p. 43; Nangis, p. 447. Cf. Boulenger, p. 245.

(٣١) كانت القلعة خاضعة للبيازنة . وقد أبلغ رجال الحامية الوفد الفرنسي أن البيازنة حذروهم من فتح ابواب القلعة لأي شخص أجنبي . أنظر :

Primat, p. 43; Nangis, p. 447.

(٣٢) تقاربت رواية بيير دوكونديه مع رواية بريما تقاربا يكاد يكون تاما. قارن :

Condet, p.221 مع Primat, p.43.

(٣٣) ذكر بريما ان الملك الفرنسي أمر بأنزال بعض المرضى في قلعة كاجليارى ، والبعض الآخر في أحد الأديرة بضواحي المدينة، بعيدا عن القلعة. وقال أن القديس لويس أضطر الى ذلك بسبب صغر وتواضع منازل المدينة بحيث يستحيل على الفرنسيين الأقامة بها. أنظر :

Primat, p. 43.; Nangis , p. 447. Cf. Wallon, p. 483., Boulenger, p.245.

(٣٤) تحدث بريما بأسهاب عن معاناة الصليبين من الجشع والأستغلال على يد سكان كاجلياري. أنظر:

Primat, p. 43.; Nangis , p. 447. Cf. Wallon, p. 484., Boulenger, p.246.

(٣٥) في يوم الجمعة الحادي عشر من يوليو وصلت الى ميناء كاجلياري سفينة أخرى كانت قد أبحرت من مرسليا وإيحج مورت . وهكذا أنضم الى الجيش الصليبي ثيبو ملك نافار Thibaut, Roy De Navarre صهر الملك لويس ؛ وكونت بواتيه شقيقه ، وجان كونت فلاندر الأبن الأكبر لكونت بريتاني، وجموع غفيرة أخرى من البارونات (أنظر Primat, p.44) . وفي يوم الأحد صباحا الثالث عشر من يوليو وصل الى ميناء كاجلياري المندوب البابوي وكونت بريتاني. أنظر :

Primat, p. 44; Nangis , p. 447. Cf. Wallon, p. 484., Brunschvig, p.55; Boulenger, p.246.

(٣٦) يوافق ذلك الثاني عشر من يوليو ١٢٧٠م. أنظر: Primat, p.44.

(٣٧) يوافق ذلك الثالث عشر من يوليو ١٢٧٠م. أنظر: Primat, p.44.

(٣٨) روى بريما ان هذا المجلس الأستشاري عقد على متن سفينة الملك الفرنسي الراسية في خليج كاجلياري. وفي هذا المجلس عارض العديد من رجال الاقطاع فكرة الهجوم على تونس وأرجعوا سبب موقفهم هذا الى أن السلطان الحفصي عامل المسيحيين بالحسنى، ولم يلحق بهم أي أذى . وأقترحوا توجه الحملة الى بيت المقدس لأستعادة الأراضي المقدسة والتي كانت آنذاك في أمس الحاجة لنجداتهم . أنظر:

Primat, p.44 ; Nangis, p. 447.

(٣٩) ذكر بريما انه في هذا المجلس الأستشاري كان رأي القديس لويس توجيه الحملة ضد تونس . وقد وافقه على ذلك المندوب البابوي . الا أن البارونات أختلفوا في الرأي وأنقسموا فيما بينهم ؛ وأنتهى الأمر بموافقة الجميع على الهجوم على تونس . أنظر:

Primat, p. 44; Nangis , p. 447. Cf. Wallon, p. 484; Boulenger, p.246; Michelet, Histoire De France, Paris, 1877, t.I, p. 381; Garrigou- Grandchamp, p. 388.

(٤٠) يوافق ذلك الخانس عشر من يوليو ١٧٢٠م . أنظر:

Primat, p. 45 Cf. Wallon, p. 484.

(٤١) أظهر بريما بوضوح بالغ دور البحارة الجنوية في حملة لويس الصليبية على تونس . أنظر: Primat, p. 45 .

(٤٢) تكون الأسطول الصليبي من ثلثمائة سفينة من كافة الأحجام . أنظر :

Garrigou- Grandchamp, p. 388.

(٤٣) يذكر بريما ان الصليبين عانوا الأمرين بعد إبحارهم من ميناء كاجلياري في اتجاههم الى تونس . أنظر : Primat, p. 45 .

(٤٤) يوافق ذلك السابع عشر من يوليو ١٢٧٠م . أنظر : Primat, p. 45 .

(٤٥) أشار ابن القنفذ القسنطيني الى وصول الأسطول الصليبي أمام قرطاجة أثناء صلاة الظهر وليس في التاسعة صباحا كما ذكر بيير دوكونديه. اذ جاء في ابن القنفذ:" نزول النصارى بتونس بسبعة من الملوك وبكرة من العدد والعدد والخيل والأخبية وذلك في صلاة الظهر في يوم الخميس السادس والعشرين من ذي الحجة [سنة ٦٦٨هـ] ". أنظر الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية- تحقيق محمد الشاذلي، ص ١٣٤. والملاحظ أن ابن القنفذ أجمل أخبار الحملة الصليبية على تونس محيلا في تفاصيلها الى كتاب المتوكلي. أنظر : الفارسية ، ص ١٣٢.

(٤٦) يتعارض هذا القول مع مازودتنا به المصادر الأسلامية . فقد أشار المقريزي الى شدة المواجهة الاسلامية للزحف الصليبي على الأراضي التونسية بقوله :" فقاتله المسلمون – للنصف من محرم سنة تسع وستين – قتالا شديدا ، قتل فيه من الفرقين عالم عظيم . وكاد المسلمون أن يغلبوا .." (أنظر السلوك ، ج١، ص٣٦٥) . كذلك زودنا ابن خلدون بملحمة بطولية رائعة سطرها المجاهدون المسلمون . وأشار في موضع آخر من مصنفه الى خروج العلماء والفقهاء والمرابطين لمباشرة الجهاد بأنفسهم ، وأنخراط أعداد لاحصر لها في مواجهة الزحف الصليبي. أنظر ; ابن خلدون : العبر ، ج٦، ص ٦٦٨-٦٦٩؛ أنظر أيضا: ابن الشماع : الأدلة البينة النورانية، ص٧٣؛ ابن ابي دينار: المؤنس، ص ١٢٢. وعن أهمية مصنف ابن خلدون لدراسة حملة لويس التاسع الصليبية على تونس ، والأخطاء التي

أنزلق اليها ، أنظر : فايز نجيب اسكندر: المقاومة الأسلامية في مواجهة العدوان الصليبي على تونس ، ص ١٢، حاشية رقم ٢٠.

(٤٧) رغم هذا التاكيد القاطع من قبل بيير دوكونديه، إلا أن ابن خلدون أكد في روايته ان السلطان الحفصي كان على علم تام بحملة لويس التاسع على بلاده ، وأعد العدة لمواجهة الغزاة، فنادى بأستعداد أهل تونس لمواجهة الأخطار المحدقة بربوع بلادهم ، وتفاوض مع أهل الشورى لاستطلاع رأيهم في كيفية مواجهة العدو المتربص بحدوده . أنظر: ابن خلدون ، ج٦، ص٦٦٦-٦٦٨.

(٤٨) تطابقت رواية بيير دوكونديه في هذا الصدد مع رواية روبيردو بريما . أنظر :

Condet, p.222

وقارنه مع

Primat, p.45.

(٤٩) ذكر بريما ان ميناء تونس يعد أشهر الموانىء الأفريقية. فقد أورد في هذا المعنى في مصنفه المكتوب باللغة الفرنسية القديمة :

".... Et Preissent Le Port Et Le Pourseissent; Car Ce Estoit Le Plus Renomme Port De Toute La Region D'Aufrique".

أنظر : **Primat, p.45** .

(٥٠) نقل روبيير دو بريما كعادته عن بيير دوكونديه شاهد العيان لأحداث الحملة . أنظر : **Condet, p.222** وقارنه مع **Primat, p.45** ويؤكد هذا النقل ثقة بريما في رواية كونديه .

(٥١) الملاحظ ان كافة المصادر اللاتينية لم تذكر قول بريسينيي .

(٥٢) في بريما فيليب دجليس **Phelippe De Eglis**. أنظر: **Primat, p.45**.

(٥٣) في بريما يدعى " حنا" **Jehan L'Arbalestier**. أنظر **Primat, p.45**.

(٥٤) نقل بريما هذه الأحداث عن كونديه . أنظر:

Condet, p.222 -223 وقارنه مع **Primat, p.45**

(٥٥) يوافق ذلك الثامن عشر من يوليو ١٢٧٠م. انظر : **Primat, p.45** .

(٥٦) جمعها شواني، وهي عبارة عن سفن حربية كبيرة لها أبراج وقلاع ، وتستعمل للدفاع والهجوم . للتفاصيل أنظر : فايز نجيب اسكندر: فن الحرب لدى الصليبين والمسلمين – رسالة ماجستير لم تطبع بعد– الأسكندرية ١٩٧٦، ص ١٨٩ ومابعدها.

(٥٧) يذكر بريما ان المسلمين انسحبوا الى زاوية جزيرة صغيرة ، اذ جاء في هذا المصدر الهام :

"Les Sarrazins Se Retraistrent En Un Angle D'une Petite isleite"

أنظر : Primat, p. 45-46 ومن المعتقد أنها جزيرة "شكلة" فقد جاء في ابن الشماع في حديثه عن بحيرة تونس "... وفي وسطها [أي وسط بحيرة تونس] جزيرة تسمى شكلة في مقدار ميلين ، تنبت الكلخ وفيها أثر قصر خرب" أنظر : الأدلة البينة النورانية، ص ٣٨.

(58) Condet, p. 223.

(٥٩) تشابهت رواية بريما مع رواية كونديه . أنظر :

Condet, p. 223 وقارنه مع Primat, p. 46.

(٦٠) يوافق ذلك التاسع عشر من يوليو ١٢٧٠م. أنظر Primat, p. 46.

(61) Condet, p. 223 ; Primat, p. 46.

(٦٢) كان ذلك في العشرين من يوليو ١٢٧٠م . أنظر Primat, p. 46

(٦٣) تم ذلك بعد أن عقد لويس مجلسا استشاريا ضم جميع باروناته. أنظر:

Primat, p. 46.

(٦٤) كان ذلك في الحادي والعشرون من يوليو ١٢٧٠م .أنظر: Primat, p. 46.

(٦٥) تكونت حامية قصر قرطاجة من مئتي جندي ، وبالتالي استحال على رجال الحامية الصمود في مواجهة جحافل الصليبين . أنظر :

Primat, p. 46 . Cf. Garrigou, p. 389.

(٦٦) يذكر بريما ان هذه الآبار كانت معدة لمواجهة شحة المطر او الحباسه ، اذ كثيرا ما كان المطر نادرا، لذا كان الفلاح التونسي يواجه هذه المشكلة بتخزين الماء في الآبار علاجا لسنوات الجفاف وشحة الماء. أنظر : Primat, p. 46. Cf. Boulenger, p. 249.

(67) Condet, p. 223; Primat, p. 46. Cf. Wallon, p. 485.

(٦٨) كان ذلك في العشرين من يوليو ١٢٧٠م . أنظر : Primat, p. 46.

(٦٩) أرتكب البحارة الجنوية بعض التصرفات الشائنة . فقد بدأوا أعمالهم الحربية بالأستيلاء على بعض السفن التي وجدوها أمام قرطاجة دون أنتظار تعليمات صادرة اليهم من قائد الحملة القديس لويس . أنظر :

Michelet, t.I, p. 381; Garrigou, p. 389.

(٧٠) في بريما، لم يطلب البحارة الجنوية من الملك الا العون من رماة السهام الصليبين . أنظر : **Primat, p. 47.**

(٧١) في بريما ، عقد الملك مجلسا استشاريا لمناقشة مطالب الجنوية. أنظر:

Primat, p. 47.

(72) Condet, p. 224; Primat, p. 47. Cf. Wallon, p. 485; Boulenger, p.249.

(٧٣) كان ذلك في العشرين من يوليو ١٢٧٠م . أنظر **Primat, p. 47.**

(٧٤) في حولية بريما ، زود الملك الفرنسي البحارة الجنوية بخمسمائة من رماة السهام من المشاة والفرسان ، اضافة الى أربع كتائب من الفرسان الأجانب ، ثم شكل لويس من البقية الباقية من جيش باروناته كتائب مهمتها الوقوف حائلا أمام النجدات الاسلامية التي ربما تصل لنجدة المحاصرين في قصر قرطاجة. أنظر : **Primat, p. 47.**

(75) Condet, p. 224; Primat, p. 47.

(٧٦) أعترف بريما ببسالة البحارة الجنوية ، وأظهر دورهم الفعال والبطولي في اسقاط قصر قرطاجة في قبضة الصليبين . فذكر ان الجنوية أقاموا السلالم على جدران القصر ، واسرعوا يتسلق أسواره ، ونجحوا في رفع العلم الصليبي عليه . هذا بينما ذكر ان مئتين من رماة السهام القشتاليين لاذوا بالفرار من ساحة القتال قبل ان يواجهوا المسلمين أنظر:

Primat, p. 47.

(77) Condet, p. 224; Primat, p. 47. Cf. Wallon, p. 485

(٧٨) ذكر بريما ان السكان لاذوا بالفرار الى الشوارع ، وأخذ الصليبيون بمطاردهم ، فراحت أعناق الرجال والنساء والأطفال ضحية سيوفهم ، فكان مصيرهم شبيها بالماعز المذبوح **Primat, p. 47** وبذلك أعترف روبير دو وبريما بوحشية الصليبين البالغة ، وحبهم لسفك دماء الأبرياء من السكان .

(79) Condet, p. 224; Primat, p. 47.

(٨٠) كان ذلـك في يـوم الخميس الرابع والعشرين مـن يوليـو ١٢٧٠م. أنظر:
Condet, p. 224; Primat, p. 47. ; Wallon, p.485; Boulenger, p.249; Le Nain De Tillemont, Vie De Saint Louis, Paris, 1848, t.V, p. 150.

(٨١) جمع المسلمون ثيرانهم وأبقارهم وخيولهم وخرفانهم وبعض الحيوانات الأخرى ولاذوا بالفرار على مرأى من الصليبين. أنظر : Primat, p. 47.

(٨٢) نقل بريما عن كونديه . أنظر : Condet, p. 224وقارنه مع Primat, p. 47.

(٨٣) أشار بريمـا الى ان البحارة الجنوية أشعلوا النيران في الكهوف ، فأنتشرت ألسنة اللهب والدخان في كافة الأرجاء،وأختنق وأحترق ماينـاهز ثلاثمائـة من المسلمين.أنظر:
Primat, p.47.

(84) Condet, p. 225 .

(٨٥) عبأ لويس خمسمائة من رماة السهام والمشاة لحراسة قصر قرطاجة. أنظر:
Primat, p.47.

(٨٦) أوضح بريمـا ان لويس رغب في التخلص من جثث الموتى حتى يتمكن النساء والمرضى وجرحى المعارك من الأقامة في القصر ؛ وأن الصليبين عثروا بداخله على مخازن بها كميات هائلة من الشعير والغلال ، ولكنهم لم يعثروا على أي شيء آخر يليق بأسم قرطاجة وثرائها العالق في الخيال وأحلام الصليبين . أنظر :Primat, p.47.

(٨٧) Condet, p.225 . وقد أورد بريما قولا مشابها. أنظر :Primat, p.48 . بينما جاء في جيوم دو نانجى أن " مدينة قرطاجة كانت عاصمة السلطنة[الحفصية] وسيدة أفريقية بأكملها" إذ أورد :

" Cartage ......Estoit La Royal cyte Et La Maitresse De Toute Aufrique "

أنظر : Nangis, p.453.

(٨٨) لم يركن المسلمون الى السكينة والأستسلام ، رغم مأأحرزه الصليبيون من أنتصار . فقد طلب السلطان الحفصي مساعدة جيرانه. إزاء عدم تلبية دعوته للنجدة، أعلن الجهاد العام والحرب المقدسة ضد عدو بلاده . أمام ذلك ، لبى المسلمون الدعوة الى الجهاد وخوض غمار حرب مقدسة ، وتحمل رجال الدين والفقهاء والمرابطون العبء الأكبر في تعبئة المقاتلين المسلمين. وبذلك نجح السلطان الحفصي في اثارة الحمية الدينية وتوحيد

المسلمين لمجابهة عدو يجتاح بلاده (للتفاصيل أنظر : ابن خلـدون : ج٦، ص٦٦٩-٦٧٠ ؛ ابن الشـماع : ص ٧٣؛ المقريزي : ج١، ص ٣٦٥؛ أبـن ابـي دنيـار:ص ١٢١) أمـا ابـن القنفذ القسنطيني ، فلم يشر الى المقاومة الشعبية بسطر . كذلك كان حال الزركشي الذي لم يشر الى الحملة الصليبية على تونس برمتها لامن قريب ولامن بعيـد . هكـذا يؤخـذ على المصادر الاسلامية اغفال ذكر التفاصيل الدقيقة المطولة للمقاومة الأسلامية. وعلـى النقيـض من ذلك ، فقد أنفرد روبير دو بريما – ونقل عنه جيوم دو نانجى – بتزويدنا بتفاصيل دقيقـة مطولة تبعث على الأعجاب . اذ أستخدم المسلمون الحيل الماكرة للأنقضاض على الصليبين الجاثمين علـى أراضيهـم . أنظـر : Nangis, p.453-457; Primat, p.48-57.أنظر أيضا: فايز نجيب اسكندر : المقاومة الاسلامية في مواجهـة العـدوان الصليبي على تونـس ، ص ١١-٤٠.

(89) Condet, p.225

(90) Condet, p.225; Cf. Garrigou, p. 389.

(٩١) كرر الصليبيون في تونس نفس الخطأ الذي أرتكبوه في مصـر اثنـاء الحملـة الصليبيـة السابعة على دمياط . فقد انتظروا وصول كونت أرتوا شقيق الملك لويس ، فجنوا من هـذا الأنتظار العواقب الوخيمة التي اتت عليهم وأفشلت حملتهم على مصـر. كذلـك نجدهـم في تونس بعد احتلالهم قرطاجة ينتظرون وصـول شـارل دانجـو ملـك صقلية وشـقيق الملـك . وكان من نتيجة ذلك التلكـأ ازديـاد المقاومـة الشـعبية ، وازهـاق أرواح جمـوع غفيـرة مـن الصليبين . والحقيقة ان شارل دانجو تذرع بحجـج واهيـة تؤخـره عـن الأنخـراط في صفـوف الحملة . وفي نفس الوقت طلب من الصليبين تأخير هجومهم الحاسم لحين انضمامه اليهـم . هذا بينما كان يتفاوض مع المستنصر بصدد الجزية المتأخرة عليه. أنظر

Garrigou, p. 389.

(92) Condet, p.225

(٩٣) كان ذلك يوم السابع والعشرين من يوليو ١٢٧٠م .أنظر : Primat, p.48

Condet, p.225

(94) Primat, p.42

(95) Primat, p.42-43

(96) Primat, p.42

(97) Primat, p.43
(98) Primat, p.43 ; Namgis, p. 447
(99) Primat, p.44
(100) Primat, p.43
(101) Primat, p.44-45
(102) Primat, p.44
(103) Geoffroi De Beaulieu, Vita Sancti Ludovici, p.21-22; Nangis, p.447-448; Primat, p.44; Beati Ludovici Vita, Partim Ad Lectiones. Partim Ad Sacrum Sermonem Parata, Dans R.H.G.F., t.XXIII, p.175.

(١٠٤) للتفاصيل المطولة عن أسباب حملة لويس التاسع الصليبية على تونس أنظر:

Mercier, Examen Des Causes De La Croisade De Saint Louis Contre Tunis (1270), p. 267-272.

(١٠٥) ابن خلدون : ج٦ ، ص ٦٦٨.

(١٠٦) ابن الشماع : ص ٧٢

(١٠٧) ابن القنفذ القسنطيني : ص ١٣١.

(١٠٨) ابن عبدالظاهر : الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - تحقيق عبدالعزيز الخويطر - الرياض ١٩٧٦- ص ٣٧٣.

(١٠٩) المقريزي : ج١ ، ص ٣٦٥.

(١١٠) ابن ابي الزرع : ص ٤٠٤.

(111) Beaulieu, p. 21.

(١١٢) ابن خلدون : ج٦، ص ٦٦٦. أنظر أيضا: فايز نجيب اسكندر : المقاومة، ص ١٢.

(١١٣) ابن الشماع : ص ٧٠.

(١١٤) قارن ابن الشماع : ص ٧٠ مع ابن أبي دنيار : ص ١٢١.

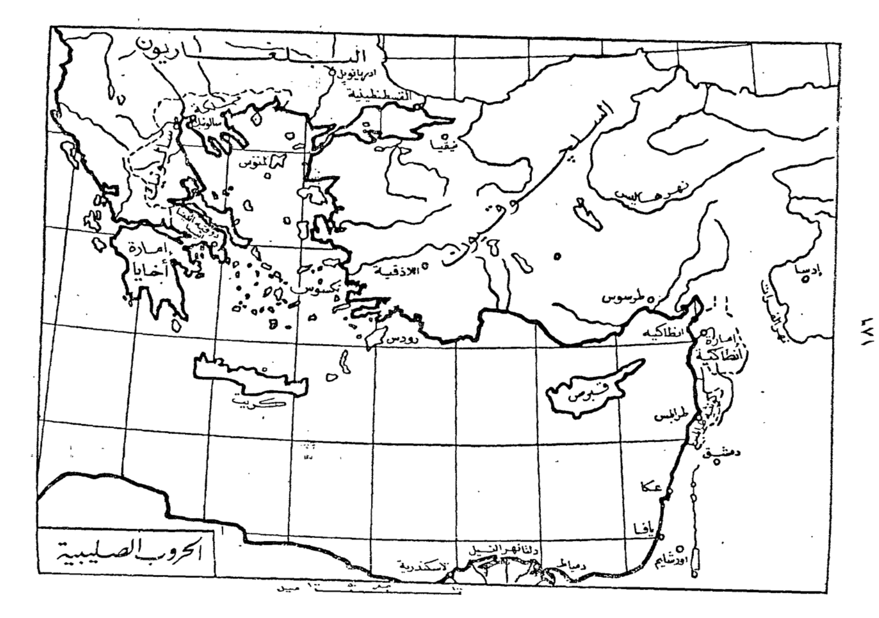
(١١٥) السلوك ، ج١، ص ٣٦٥.

الموضوع الثامن
صفحة من تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى

١- أسباب الحروب الصليبية :

يطلق اسم الحروب الصليبية على الحملات الحربية التى قام بها الأوربيون فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر (بين سنتى ١٠٩٦-١٢٧٠م) إلى المشرق بهدف استعماره استعماراً عسكرياً. وقد شاركت فى الحملات الصليبية طبقات وفئات أوربية مختلفة ، ولذا فطبيعى أن تكون الأسباب والعوامل التى دفعت هذه الطبقات والفئات للتوجه إلى المشرق متنوعة ومتعددة.

فالفرسان من صغار الإقطاعيين كانوا يحلمون بالحصول على الأراضى الزراعية مع فلاحيها فى المشرق، حيث تجمعت معظم الأراضى فى أوروبا لدى كبار الإقطاعيين، كما أن السيطرة على الغابات والمروج ثم استصلاحها هى عملية صعبة طويلة الأمد، وأفضل منها السيطرة على الأراضى الصالحة للزراعة الجاهزة للاستغلال فى المناطق التى سيحتلونها فى المشرق. ومن ناحية ثانية ساد فى أوروبا (فى القرن الحادي عشر) نظام وراثة خاص تنتقل بموجبه أملاك الإقطاعى إلى ابنه البكر وحده، بينما يُحرم الأبناء الآخرون من تركة والدهم، وقد أدى هذا النظام إلى وجود عدد كبير من الفرسان (أبناء الاقطاعيين) الذين لا ملكية لهم. وعلى هذا فطبيعى أن يبحث هؤلاء الفرسان عن أراض جديدة خارج أوروبا فيستولوا عليها ويستغلوا جهود فلاحيها. وإضافة إلى هذا فقد حلم الفرسان بنهب ثروات المشرق الأسطورية التى كان فى مخيلتهم عنها الشئ الكثير من الأمور المبالغ فيها. هذا وكان قد أغرق الكثيرون من هؤلاء الفرسان بالديون. لذا فإن مشاركتهم فى الحروب الصليبية ستكون وسيلة يتذرعون بها للتملص من هذه الديون وفرصة للتهرب من الدائنين.



الحروب الصليبية
البلغاريون
ادريانوبل
القسطنطينية
سالونيك
نيقيا
لمنوس
دوقية أثينا
إمارة أخايا
نكسوس
الأذقية
السلاجقة
نهر هاليس
إدسا
طرسوس
انطاكيه
إمارة انطاكية
رودس
كريت
قبرص
طرابلس
دمشق
عكا
يافا
اورشليم
دمياط
دلتا نهر النيل
الاسكندرية
ميل

وفيما يخص كبار الاقطاعيين (بما فيهم الملك والدوق والكونت وغيرهم)، فتوسيع أملاكهم وزيادة ثرواتهم وإزدياد نفوذهم السياسى كان هو هدفهم من الاشتراك فى الحروب الصليبية. فلقد كان يحلم هؤلاء بتأسيس إمارات اقطاعية أو ممالك لهم فى المناطق التى يحتلونها فى المشرق، ورغم هذه الأحلام الجذابة لم يشترك فى الحملات الصليبية من كبار هؤلاء الاقطاعيين سوى عدد قليل.

وساهمت المدن الأوربية (وخاصة المدن الإيطالية مثل جنوا وبيزا والبندقية) فى الحروب الصليبية مساهمة فعالة وكبيرة. لقد كانت لهذه المدن مصالح تجارية كبيرة من وراء مشاركتها فى الحملات الحربية إلى المشرق. فالسلاجقة الأتراك والبيزنطيون يسيطرون على غرب آسيا وحوض البحر المتوسط الشرقى، وهم بهذا يعرقلون تجارة المدن الإيطالية مع المشرق، وعلى هذا كانت المدن الإيطالية ترغب بإزاحة هؤلاء المنافسين وتأسيس محطات تجارية لها على شاطئ البحر المتوسط الشرقى، كى تلعب دور الوسيط التجارى بين بلاد المشرق وأوروبا الغربية. ولكن هذه الرغبة لم تتحقق دون استخدام القوة العسكرية ، وهذا مايفسر لنا حماسة المدن الإيطالية للمشاركة فى الحروب الصليبية وتقديمها السلاح والمؤونة والسفن للمحاربين الصليبيين.

وإذا كانت المصالح التجارية هى التى دفعت تجار المدن الإيطالية للمساهمة الفعّالة فى الحروب الصليبية، فما هى العوامل والظروف التى دفعت الجماهير الأوروبية الكادحة من الفلاحين وغيرهم أن يهجروا أوطانهم ليموتوا فى أرض المشرق؟ لقد أصبح أكثر الفلاحين الأوروبيين فى القرن الحادى عشر أقناناً فى أراضى الاقطاعيين وفقدوا أملاكهم وحريتهم. ومادام هؤلاء الفلاحون الفقراء يعيشون حياة ملؤها البؤس والشقاء فى ظل النظام الاقطاعى، فليس من سبب يشجعهم على البقاء فى بلادهم، بل على العكس إنما وجدوا فى الحروب الصليبية فرصة للتخلص من ظلم الاقطاعيين واستغلالهم، كما حلموا بالحصول على الثروة فى أرض المشرق أو على الأقل ينالون حريتهم التى فقدوها على أرضهم الأوروبية.

ماهى العوامل والظروف التى دفعت رجال الدين والكنائس الغربية بزعامة البابوية لإثارة فكرة الحروب الصليبية والدعوة إليها وصبغها بطابع دينى مزيف؟ فهل كان الهدف الحقيقى للبابوية هو تخليص الأماكن المسيحية المقدسة فى فلسطين من سيطرة المسلمين، أم كانت للبابوية مصالح خاصة من وراء دعوتها شعوب أوروبا للمشاركة فى حروب ضد المشرق؟

فى الحقيقة كانت البابوية تريد أن تفرض سيطرتها وسيادتها على الكنائس الشرقية والبيزنطية المنشقة عنها. وعلى هذا استجاب البابا أوربان الثانى (١٠٨٨-١٠٩٩م) إلى طلب الامبراطور البيزنطى ألكسيوس كومنين، الذى أرسل وفداً إلى بابا روما يطلب منه أن ينجده بجيش من الغرب الأوروبى يساعد بيزنطة على دحر السلاجقة الأتراك الذين سيطروا على معظم آسيا الصغرى وعلى أنطاكية والقدس أيضا. أما ثمن هذه المساعدة فهو إزالة الانشقاق بين الكنيسة البيزنطية الشرقية والكنيسة البابوية الغربية، وبالتالى خضوع الأولى للثانية. ولكي يثير الوفد البيزنطى عاطفة البابا ورجال الدين الغربيين (الذين اجتمع معهم فى مؤتمر دينى فى إحدى المدن الفرنسية سنة ١٠٩٥) رسم لهم بمبالغة كبيرة صورة مؤثرة عن الاضطهاد الذى يعانيه المسيحيون الشرقيون الخاضعون لحكم السلاجقة المسلمين وعن سوء المعاملة التى يتعرض لها الحجاج المسيحيون القادمون إلى بيت المقدس. وفضلاً عما سبق فإن إنقاذ بيزنطة من السقوط بأيدى السلاجقة المسلمين يعنى بالنسبة للبابوية الحفاظ على هذا السور الذى يحمى العالم المسيحى من جهة الشرق، وبالتالى إبعاد الخطر السلجوقى عن أوروبا نفسها. ومن ناحية ثانية كانت البابوية فى صراع مع السلطة الزمنية على السيادة العليا، فالبابوية تريد فرض سيادتها على الإمبراطور الألمانى، بينما يسعى الإمبراطور لفرض سلطته على البابوية. وعلى هذا فإذا حققت البابوية عملاً عظيماً بنتيجة تزعمها الحركة الصليبية، فإن ذلك سيساعدها على نجاح مساعيها لفرض

سيادتها على السلطة الزمنية، بالإضافة إلى ترسيخ سلطتها الروحية. هذا وستجنى البابوية من مشاركتها فى الحرب الصليبية أموالاً كبيرة. فلقد انتشر رجال الدين فى جميع أنحاء أوروبا يجمعون التبرعات، لابل الضرائب من كل إنسان بحجة تمويل الحملات الصليبية. ولكن هذه الأموال لم تصرف كلها على المشروع الذى جمعت من أجله، بل ذهب القسم الأكبر منها إلى جيوب رجال الدين والخزينة البابوية. إضافة إلى هذا فقد ظلت هذه التبرعات تجمع حتى بعد توقف الحروب الصليبية.

٢- العلاقات السلمية بين أوروبا والمشرق قبل الحروب الصليبية (الحجاج الأوروبيون إلى القدس) :

كان الطرق الذى يؤدى إلى المشرق معروف لدى الأوروبيين منذ القديم، وقد سارت فى هذا الطرق سنوياً جموع الحجاج الذين قدموا إلى فلسطين لزيارة قبر المسيح وبعض الأماكن المقدسة الأخرى. ولكن أهداف الحجاج الدينية اختلطت بالأهداف التجارية، أو بالأحرى اكتسبت القوافل التجارية المنطلقة من أوروبا إلى المشرق طابعاً دينياً، وهذه الحالة تشبه توافد الحجاج إلى مكة قبل الإسلام لأهداف تجارية ودينية معاً. كان الحجاج الأوروبيون يتجمعون كل عام فى مدن أوروبية معينة، ثم ينطلقون فى قوافل بأعداد غفيرة ويسلكون طريقاً معيناً إلى القسطنطينية ومنها إلى بلاد الشام وفلسطين. وكان ينضم إلى هؤلاء التجار الحجاج بعض الفرسان وبعض الإقطاعيين الكبار بقصد زيادة الأماكن المقدسة. وفى الطرق نفسها التى كان يسلكها الحجاج قبلاً تحركت الحملات الصليبية فيما بعد إلى المشرق. وكان الحجاج الأوروبيون- وخاصة أمراؤهم- يعجبون بمدن المشرق ومظاهر الترف والعظمة التى يعيشها الأمراء البيزنطيون وغيرهم من أمراء المشرق. كما أعجب الأوروبيون بأدوات الزينة والعطور والمصنوعات الشرقية الفنية، فتشكل عندهم تصور خيالى عن عظمة الحياة السحرية فى المشرق، فى حين لم تكن مثل هذه الحياة مألوفة عندهم فى أوروبا رغم امتلاكهم

الثروات الكبيرة والأراضى الشاسعة، وهذا هو أحد العوامل التى أثارت رغبة الأمراء الأوروبيين بالاشتراك فى الحملات الصليبية.

٣- أوضاع المشرق الإسلامى عشية الحروب الصليبية :

وجدت فى المشرق الإسلامى فى منتصف القرن الحادى عشر خلافتان: الأولى هى الخلافة العباسية فى بغداد، والثانية هى الخلافة الفاطمية فى مصر. وقد سقطت خلافة بغداد سنة ١٠٥٥م بأيدى السلاجقة الأتراك الذين انتزعوا بعد ذلك بقليل بلاد الشام وفلسطين من أيدى الفاطميين. وفى سنة ١٠٧١م انتصر السلاجقة الاتراك بقيادة ألب أرسلان على الجيش البيزنطى بقيادة الامبراطور رومانوس ديوجينس فى موقعة ملاذكرد وأسر فى هذه المعركة الامبراطور البيزنطى، ثم أطلق سراحه مقابل فدية معينة وإعادة بعض المدن للسلاجقة مثل أنطاكية والرها ومنبج وملاذكرد، إضافة إلى الأفراج عن الأسرى الأتراك. وبعد معركة ملاذكرد سيطر السلاجقة الأتراك على معظم مناطق آسيا الصغرى التى كانت تابعة لبيزنطة. ولكن الدولة السلجوقية تفتتت وانقسمت إلى عدد من الإمارات هى : إمارة الموصل، إمارة دمشق، إمارة أنطاكية، إمارة حلب، وغيرها من الإمارات الأخرى. أما فى آسيا الصغرى فقد تشكلت سلطنة قونية السلجوقية. وفى الجنوب الشرقى من آسيا الصغرى قامت إمارة أرمينية مستقلة هى إمارة أرمينية الصغرى. وكانت الإمارات السلجوقية ضعيفة بسبب انقسامها وصراعها مع بعضها، بالإضافة إلى تمرد الفلاحين داخل كل إمارة ضد سياسة الضرائب والابتزاز. هذا وقد قام الفاطميون أيضا بعدة حملات من مصر على بلاد الشام وفلسطين بهدف إعادتهما تحت سلطتهم، فاصطدموا مع السلاجقة ودارت بينهم معارك عديدة.

٤- أوضاع بيزنطة عشية الحروب الصليبية :

كانت الأوضاع الداخلية فى بيزنطة مضطربة، خاصة بعد أن تلقت الدولة البيزنطية

ضربة قاسمة من السلاجقة الأتراك فى معركة ملاذكرد. ففى القرن الحادى عشر انقلبت بيزنطة دولة اقطاعية بعد أن تلاشت (تقريبا) طبقة الفلاحين الأحرار، الذين كانوا فيما مضى يشكلون عماد الجيش البيزنطى ويقومون بالدفاع عن مناطقهم، دون أخذ مرتبات شهرية من الخزينة (وذلك حسب نظام الثغور العسكرية الذى أحدث فى القرن السابع). وقد صارت الدولة البيزنطية تعتمد بصورة رئيسية على الجيوش المرتزقة من الغرباء، الذين يتلقون مرتبات كبيرة مقابل خدماتهم العسكرية. ولكن السياسة العسكرية هذه أفقرت الخزينة البيزنطية، فاضطرت السلطات أن تزيد الضرائب على الشعب، فساءت أحوال الجماهير الكادحة وتذمرت من السياسة المالية الظالمة. وكذا كانت الأوضاع الخارجية فى بيزنطة خطيرة جداً قبيل الحروب الصليبية. ففى الغرب حاول النورمانديون الذين استقروا فى جنوب إيطاليا السيطرة على المدن والمناطق الإيطالية التابعة لبيزنطة. ولكن بيزنطة استطاعت أن تضع حداً لأطماع النورمانديين بمساعدة تجار مدينة البندقية الإيطاليين، الذين حصلوا مقابل ذلك على تسهيلات تجارية فى جميع أنحاء الامبراطورية البيزنطية وعلى سوق تجارى لهم فى القسطنطينية نفسها. أما فى الشرق فقد كان السلاجقة الأتراك يعدون هجوما جديداً على بيزنطة فى آسيا الصغرى. وفى الشمال تحركت أيضا قبائل البيتشنغ الآسيوية. فاخترقت البلقان واقتربت هى والقبائل السلافية معاً من جدران القسطنطينية سنة ١٠٩١م، ولكن بيزنطة استطاعت أن تتصدي للمهاجمين وتردهم على أعقابهم. هذه الظروف الصعبة التى كانت تمر بها بيزنطة دفعت الأباطرة البيزنطيين مراراً أن يتجهوا إلى بابا روما أو إمبراطور ألمانيا أو إلى غيره من ملوك أوروبا لطلب المساعدات العسكرية منهم. ولكن حكام الغرب اتخذوا من طلبات الأباطرة البيزنطيين ذريعة لتدخلهم فى شؤون بيزنطة الداخلية، كما تشكل لديهم تصور عن ضعف البيزنطيين والسلاجقة معاً وتوقعوا أنهم يستطيعون احتلال المشرق المضطرب بسرعة وسهولة.

٥- الحملة الصليبية الأولى :

عندما انتصر السلاجقة الأتراك على البيزنطيين فى معركة ملاذكرد وسيطروا على معظم مناطق آسيا الصغرى وعلى بلاد الشام وفلسطين طلبت بيزنطة مساعدة عسكرية من البابا جريجورى السابع (مات سنة ١٠٨٨م)، فوجه البابا دعوة إلى ملوك وحكام أوروبا لتشكيل حملة صليبية وارسالها إلى المشرق لدحر السلاجقة المسلمين، كما أعلن أنه سيكون على رأس هذه الحملة. ولكن جريجورى السابع انشغل فى صراع مع الامبراطور الألمانى هنرى الرابع من أجل تسويد سلطة البابا الروحية على سلطة الامبراطور الزمنية ، مما صرفه عن مشروع الحملة الصليبية المزمع تشكيلها. وهكذا لم يستطع البابا جريجورى السابع تحقيق المهمة التى اتخذها على عاتقه، إلا أنه وضع أسس مشروع الحملة الصليبية وترك مهمة تنفيذه لخليفته البابا أوربان الثانى (١٠٨٨-١٠٩٩م). وفى عهد البابا أوربان الثانى طلبت بيزنطة مجدداً (بلسان الامبراطور البيزنطى الكسيوس كومنين ١٠٨١-١١١٨م) مساعدات عسكرية من البابوية. فاستجاب البابا لهذا الطلب وانطلق يدعو شعوب أوروبا وحكامها إلى إعلان الحرب «المقدسة» ضد المسلمين. ففى ختام المجمع الدينى الذى عقد سنة ١٠٩٥ فى مدينة كليرومون بفرنسا ألقى البابا أوربان الثانى خطبة فى الجموع الوافدة إلى هذه المدينة من مختلف أنحاء أوروبا ودعاهم فيها إلى التوجه فى حملة صليبية لتحرير مدينة القدس من سلطة المسلمين. ولم ينس البابا أن يشير إلى الغنائم الثمينة التى تنتظرهم فى أرض المشرق. ولاقت دعوة البابا هذه استجابة كبيرة، فردد الحاضرون بأصوات عالية العبارة التالية : «هكذا يريد الله»، ثم أخذ كل واحد منهم يخيط على ردائه صليباً من قماش أحمر اللون دلالة على موافقته على الاشتراك فى الحملة التى أطلق عليها منذ ذلك الحين اسم «الحملة الصليبية».

ولكي تشجع البابوية الناس على الاشتراك فى الحملة الصليبية منحتهم كثيراً من التسهيلات والامتيازات، إذ أعلنت عن حمايتها لعائلات الذين يشتركون فى الحملة وأملاكهم. كما أعلنت أن من كان عليه دين فإنه يعفى من أداء هذا الدين طيلة غيابه عن وطنه، ومن يشترك من الفلاحين الأقنان فى الحملة الصليبية سيتحرر من التبعية لسيده وتعود له حريته إلى الأبد. إضافة إلى هذا وجهت البابوية الدعاة من رجال الدين إلى مختلف بلاد أوروبا كى يدعوا الناس للاشتراك فى الحملة المزمع ارسالها إلى المشرق، فاستطاع هؤلاء الدعاة إثارة حماسة الأوروبيين، فتجمعت خلال عام واحد جموع غفيرة من الصليبيين، ثم انطلقوا نحو المشرق سنة ١٠٩٦م على دفعتين.

أ-حملة الفقراء أو الحملة الشعبية :

أوائل سنة ١٠٩٦م انطلقت من أوروبا إلى المشرق جموع من الفلاحين الفقراء، كما انضم إليهم بعض المجرمين وقطاع الطرق. وقد سار على رأس هذه الجموع غير المنظمة بطرس الناسك وبعض رجال الدين الآخرين (مثل جوتشالك وجوتيه المعدم) الذين تصفهم بعض المصادر بالغباء والسذاجة، حيث أثاروا حماسة الجماهير الفقيرة وقادوها إلى الهلاك عن دون وعى وتقدير للعواقب. وكان أكثر هؤلاء الصليبيين الفقراء من وسط فرنسا وشمالها ومن غرب ألمانيا. وإنطلق الصليبيون الفقراء عبر هنغاريا وبلغاريا فى الطرق البرية التى يسلكها عادة الحجاج إلى القسطنطينية ومنها إلى فلسطين. ولم يكن لدى هؤلاء الصليبيين المؤونة اللازمة لاطعامهم، فلجأوا إلى النهب والسلب واستخدام القوة من أجل الحصول على طعام لهم فى الأماكن التى يمرون بها. وعلى هذا قاومهم الهنغار والبلغار فقتلوا عدداً منهم، بينما فر بعضهم الآخر منهزمين إلى بلادهم، وأما الباقون فقد وصلوا القسطنطينية فى حالة يرثى لها. لم يكن الامبراطور البيزنطى ينتظر من أوروبا مثل هذه المساعدة التى لا فائدة ترجى منها

خاصة وأن هؤلاء الصليبيين لم يتورعوا عن سرقة الكنائس المسيحية البيزنطية نفسها. وعلى هذا عمل الامبراطور الكسيوس كومنين على التخلص من الصليبيين الفقراء، فسهل لهم العبور إلى آسيا الصغرى، حيث أنقض عليهم السلاجقة المسلمون فقتلوا الكثيرين منهم، بينما عاد الباقون برئاسة بطرس الناسك إلى القسطنطينية لينتظروا قدوم حملة الأمراء الإقطاعيين. وهكذا أفضت الحملة الصليبية الشعبية إلى كارثة وزادت منذ البداية فى الكراهية بين البيزنطيين والأوروبيين، كما وضعت العراقيل والصعوبات أمام حملة الأمراء التى جاءت إلى القسطنطينية بعد فترة وجيزة.

ب- حملة الأمراء الإقطاعيين :

تشكلت حملة الأمراء الاقطاعيين من أربع مجموعات كبيرة :

المجموعة الأولى: ضمت فرسان منطقة اللورين الفرنسية، وترأسها الدوق جودفروا وأخوه بلدوين.

المجموعة الثانية: ضمت فرسان المنطقة الشمالية من فرنسا وفرسان دوقية نورماندیا الفرنسية، وترأسها روبير دوق نورماندیا.

المجموعة الثالثة : ضمت فرسان منطقة البروفانس فى جنوب فرنسا، وترأسها ريموند كونت مدينة تولوز، كما رافقه المندوب البابوى آديمار.

المجموعة الرابعة : ضمت الفرسان النورمانديين من المملكة النورماندية التى نشأت فى جنوب ايطاليا، وترأسها بوهيمند بن روبير جيسكار وابن أخته تانكرد.

وهكذا لم تكن للقوات قيادة واحدة، بل كانت كل مجموعة تشكل وحدة عسكرية مستقلة لها قيادتها الخاصة. وكانت هذه القوات الاقطاعية مجهزة بالسلاح والمال والمؤونة، وهى أفضل بكثير مما كانت عليه القوات الشعبية التى سبقتها إلى

القسطنطينية. غير أنه قد التحق بحملة الأمراء الاقطاعيين عدد كبير من الفلاحين الذين كان سلاحهم سيئاً، على أن البعض لا يحمل سلاحاً إطلاقاً.

إنطلقت قوات الأمراء الاقطاعيين من أوروبا إلى المشرق فى أواخر سنة ١٠٩٦م. وقد سلكت هذه القوات طرق مختلفة، فالقسم الأول منها سار فى الطرق البرية المحاذية لنهرى الراين والدانوب، والقسم الثانى سار فى الطرق البرية المحاذية لشاطئ البحر الإدرياتيكى. والقسم الثالث عبر إيطاليا وركب البحر متوجهاً إلى البلقان. وفى ربيع سنة ١٠٩٧م وصلت قوات الأمراء الاقطاعيين إلى جوار القسطنطينية وكان عددها يتراوح بين ستين ألفا ومائة ألف. وقبل دخول الصليبيين إلى العاصمة البيزنطية نشب خلاف بينهم وبين البيزنطيين. فالامبراطور البيزنطى ألكسيوس كومنين أخذ الحيطة من نوايا الصليبيين وإستاء من تصرفاتهم وأعمال النهب والسلب التى قاموا بها تجاه المسيحيين الشرقيين، لذا لم يفتح أبواب القسطنطينية لهم فى البدء. أما الصليبيون فلم يكن هدفهم من الحملة التى جاؤوا فيها مساعدة بيزنطة فى استعادة المقاطعات التى احتلها السلاجقة منها، بل كان هدفهم الحقيقى إنما هو تأسيس إمارات لهم فى المشرق وتحقيق مكاسب اقتصادية وغيرها. ولما كان الامبراطور البيزنطى يريد من الصليبيين أن يقاتلوا من أجل بيزنطة، فإنه لم يسمح لهم بدخول عاصمته إلا بعد أن أقسم كبار قادتهم يمين الولاء له وتعهدوا بتسليمه الأراضى البيزنطية التى ينتزعونها من السلاجقة، ماعدا الأراضى المقدسة- أى فلسطين. ومن ناحية ثانية تعهد الامبراطور البيزنطى لهؤلاء الصليبيين بتقديم المؤونة لهم وكل الامدادات الممكنة التى تساعدهم على تحقيق النصر. وفى الواقع لم يكن الامبراطور البيزنطى يثق بيمين الولاء الذى قطعه الأمراء الأوروبيون على أنفسهم، كما لم يكن هؤلاء فى نيتهم تنفيذ ما أقسموا عليه وما وعدوا به.

بعد أن تم الاتفاق بين الامبراطور البيزنطى والصليبيين عبرت القوات الصليبية البوسفور وأخذت تتوغل فى آسيا الصغرى. وكان أول عمل قام به الصليبيون ضد السلاجقة هو حصار مدينة نيقية التى كان قد فتحها السلطان السلجوقى سليمان من بيزنطة سنة ١٠٨١م. وبعد حصار دام أكثر من شهر دحر خلاله الصليبيون القوات السلجوقية التى جاءت لنجدة المدينة المحاصرة، لوحظ العلم البيزنطى مرفوعا فوق أسوار نيقية، وهذا يعنى أن الامبراطور البيزنطى أجرى مفاوضات سرية مع سكان المدينة فحصل منهم على قبول الاستسلام لبيزنطة، مقابل الحفاظ على حياتهم وعدم تعرضهم للاضطهاد. وبعد استعادة مدينة نيقية من السلاجقة طلب الامبراطور البيزنطى ألكسيوس كومنين من حلفائه الصليبيين التوغل وحدهم فى آسيا الصغرى متمنيا لهم تحقيق النجاح. وفى أول يوليو سنة ١٠٩٧ أحرزت القوات الصليبية نصراً ساحقاً على القوات السلجوقية فى سهل ضوريليوم، ثم احتلت مدينتى قونية وهرقلة، ومن هناك عبر الصليبيون إلى أرمينية الصغرى فاستقبلهم الأرمن بترحاب.

وبعد تحقيق الانتصارات السالفة الذكر بدأت تظهر الأطماع الخاصة والمصالح الشخصية عند بعض الأمراء الصليبيين. فالأمير بلدوين انفصل عن الصليبيين الآخرين واتجه نحو مدينة الرها (أديسا)، ففتح حاكمها الأرمنى أبوابها لهذا الأمير الصليبى وتنازل له عن حكمها، وبذا نشأت فى الرها (سنة ١٠٩٨م) أولى الإمارات الصليبية فى المشرق. أما الصليبيون الآخرون فقد اتجهوا جنوبا نحو أنطاكية بعد أن تعرضوا للجوع والمرض وفقدوا بعض أفرادهم وخيولهم فى آسيا الصغرى. واستمر حصار الصليبيين لمدينة أنطاكية مدة سبعة أشهر بسبب متانة أسوارها ومناعة حصونها من جهة، وفقدان القيادة الموحدة والتنظيم الجيد لدى الصليبيين من جهة أخرى. وأخيراً تمكن الأمير النورماندى بوهيمند من الاستيلاء على أحد أبراج المدينة بمساعدة بعض الأشخاص من سكانها، ثم فتح الأبواب فدخل الصليبيون إلى أنطاكية سنة ١٠٩٨.

ولكن الصليبيين تحولوا من محاصِرين إلى محاصَرين، إذ هاجمهم فى أنطاكية جيش سلجوقى بقيادة أمير الموصل كربغا. غير أن القوات الصليبية قامت بهجوم معاكس فألحقت الهزيمة بالجيش السلجوقى. بعد ذلك نشب صراع بين الأمراء الصليبيين على حكم أنطاكية، فالأمير النورماندى بوهيمند أراد أن يحكم هذه المدينة وحده، فى حين نافسه على حكمها بعض الأمراء، بينما أراد الآخرون تسليمها للامبراطور البيزنطى حسب الوعود التى قطعوها له على أنفسهم. وأخيراً إنتصر بوهيمند النورماندى على منافسيه، فأسس فى أنطاكية إمارة صليبية مستقلة وحكمها بنفسه.

بعد إحتلال أنطاكية وتأسيس إمارة صليبية فيها للنورمانديين استأنف الصليبيون الآخرون زحفهم نحو القدس بقيادة ريموند وتانكرد وروبير وجودفروا. وبعد حصار دام أكثر من شهر تمكن الصليبيون من اقتحام أسوار المدينة، فسقطت القدس (سنة ١٠٩٩) بأيدى هؤلاء المستعمرين الأوروبيين. وقد عامل الصليبيون سكان القدس من المسلمين والمسيحيين معاً بوحشية لطخت جبينهم بالعار إلى الأبد، كما تخالف تعاليم المسيح الذى أدعوا أنهم جاءوا لتخليص قبره من أيدى المسلمين تستراً لأطماعهم الاستعمارية ومصالحهم الاقتصادية. وهكذا نشأت فى مدينة القدس الإمارة الصليبية الثالثة فى المشرق العربى.

لم تنته مهمة الجيوش الصليبية الاستعمارية باحتلال القدس، حيث مازالت بعض المدن الساحلية (مثل قيسارية وعكا وصور وطرابلس) والداخلية (مثل دمشق وحمص وحماه وحلب) فى أيدى المسلمين. وقد أدرك الصليبيون ضرورة الاستيلاء على المدن الساحلية لضمان اتصالهم بأوروبا عن طريق البحر، فطلبوا من المدن الإيطالية (جنوا والبندقية وبيزا) أن تمدهم بأسطول بحرى يساعدهم على احتلال سواحل بلاد الشام، مقابل أن تحصل هذه المدن على ثلث الغنائم التى يستولون عليها وعلى سوق تجارية

حرة فى كل مدينة يحتلونها. وبمساعدة السفن الإيطالية احتل الصليبيون قيسارية سنة ١١٠١م وعكا سنة ١١٠٤م وطرابلس سنة ١١٠٩م وصور سنة ١١٢٤م.

وفى أوائل القرن الثانى عشر انطلقت عدة حملات صغيرة من أوروبا وجاءت إلى آسيا الصغرى لنجدة الصليبيين فى المشرق ومساعدتهم ضد السلاجقة الأتراك. وقد استطاعت إحدى الحملات الصليبية المذكورة تخليص أمير أنطاكية بوهيمند الذى كان قد وقع أسيراً بأيدى السلاجقة الأتراك سنة ١١٠٠م. وعلى كل حال فشلت حملات النجدة الصليبية فى صراعها مع السلاجقة الأتراك فى آسيا الصغرى، كما انسحب هاربا من ظلَّ من هؤلاء الصليبيين على قيد الحياة.

٦- أوضاع الإمارات الصليبية فى المشرق:

هكذا بنتيجة الحملة الصليبية الأولى نشأت فى المشرق ثلاث إمارات صليبية هى: إمارة الرها، إمارة أنطاكية، إمارة طرابلس، إضافة إلى مملكة القدس التى تضم فلسطين وجنوب بلاد الشام. وكانت الإمارات الصليبية الثلاث تتبع مملكة القدس إسمياً، بينما فى الواقع تمتعت كل إمارة باستقلالها الذاتى. وأول ملك حكم مملكة القدس الصليبية هو جودفروا دوق منطقة اللورين الفرنسية قبلاً. لكن السلطة الملكية المركزية فى القدس كانت ضعيفة ويقيدها مجلس البلاط الملكى، الذى تشكل من كبار الاقطاعيين الصليبيين، فالملك لا يستطيع تقرير الأمور الهامة دون موافقة المجلس المذكور.

وأما النظام الاقتصادى والإجتماعى الذى ساد فى المشرق إبان الحكم الصليبى فقد كان نظاماً اقطاعياً يشبه النظام الإقطاعى الذى ساد فى أوروبا الغربية فى ذلك العصر. فلقد قسمت جميع الأراضى المحتلة إلى اقطاعات زراعية ووزعت على الفرسان الصليبيين، مقابل أن يقوموا بواجباتهم العسكرية ويستجيبوا لنداء الملك

عندما يدعوهم للقتال. كذلك نال بعض الفلاحين الأوروبيين الذين اشتركوا فى الحملة الصليبية لقب فارس وحصلوا بعد ذلك على اقطاعات زراعية معينة. أما سكان البلاد الأصليون (الذين كان أكثرهم عربياً من المسلمين والمسيحيين) فقد انقلبوا فلاحين تابعين للإقطاعيين الجدد، فهم يشتغلون فى الأرض ويعطون حصة من انتاجها إلى هؤلاء الاقطاعيين، بالاضافة إلى قيامهم بأعمال السخرة وغيرها من الخدمات. وكان الفلاحون العرب ينظرون بعين الكراهية إلى هؤلاء الاقطاعيين الأوروبيين الذين استعمروا بلادهم، كما يتحينون الفرص للانقضاض عليهم وطردهم خارج الأرض العربية المغتصبة. وقد قام الفلاحون العرب فعلا بعدة تمردات ضد الغزاة الأوروبيين، فكان من أشهرها الثورة التى نشبت فى منطقة بيروت سنة ١١٢٥م واشترك فيها المسلمون والمسيحيون العرب.

لم يقنع الأوروبيون الصليبيون بالسيطرة على الأراضى العربية واستغلال فلاحيها، بل احتكروا أيضا التجارة الخارجية. فلقد حصل تجار المدن الإيطالية (جنوا والبندقية وبيزا) فى موانئ بلاد الشام على امتيازات تجارية خاصة وتسهيلات متعددة، حيث جعلت لهم فى كل مدينة أحياء وأنظمة خاصة مستقلة، كما يدير أمورهم قنصل تعينه سلطات الإيطالية. وقد كانت السفن الايطالية تبحر من الموانئ الأوروبية وهى محملة بالرقيق الأبيض والسلاح والخيول والمنسوجات الصوفية والكتانية وغير ذلك من بضائع الغرب، وتعود من موانئ الشام محملة أيضا بالبضائع الشرقية كالعطور والسكر والفواكه والخمر والقطن والصوف والبهارات والأصبغة والأحجار الكريمة والزجاج والحرير وغير ذلك. وكانت جمهوريات المدن الإيطالية تشرف على تنظيم التجارة بين الغرب والشرق، إلا أن المنافسة بين التجار الايطاليين أنفسهم أفضت إلى وقوع التصادم المسلح بين مدن ايطاليا فى بعض الأحيان. كذلك أخذت بعض المدن الأوروبية الأخرى (كمدينة مرسيليا الفرنسية وبرشلونة الأسبانية) تنافس المدن الايطالية وتتاجر

مع المشرق مباشرة. وهكذا سيطر التجار الأوروبيين على تجارة المبادلة بين أوروبا والمشرق، بعد أن كانت بأيدي التجار البيزنطيين والتجار العرب، وهذا مايفسر لنا تكالب التجار الأوروبيين على استعمار المشرق العربى تحت شعارات حروب دينية مصطنعة وكاذبة.

لم تكن الإمارات الصليبية قوية فى المشرق ، ولم تستطع الصمود والاستمرار لولا تلقى المساعدات المستمرة من أوروبا. فالسلطة الملكية فى القدس ضعيفة وسيطرتها على الإمارات الصليبية سيطرة شكلية فحسب، كما كان المسلمون الذين يسيطرون على المدن الداخلية فى بلاد الشام يغيرون دائما على المناطق التى يحتلها الصليبيون. هذا وأفضت المنافسة بين الأمراء الصليبيين أنفسهم (على السلطة والأملاك والتجارة) إلى وقوع التصادم المسلح فيما بينهم، فلجأ بعضهم إلى طلب المساعدة من المسلمين أو البيزنطيين. كما تناقص عدد الصليبيين فى المشرق تدريجيا، حيث عاد الكثيرون منهم إلى أوروبا، بعد أن حصلوا على الغنائم والأموال التى أشبعت أطماعهم. ومن ناحية ثانية كانت بيزنطة غير راضية عن استئثار الصليبيين بمدينتى الرها وأنطاكية وعدم تسليمها لها، لذا تحالفت مع السلاجقة للعمل ضد الصليبيين. وهكذا كانت الإمارات الصليبية ضعيفة فى النصف الأول من القرن الثانى عشر، ولكن الأمر الذى ساعدها على الصمود هو تفتت القوى الإسلامية وعدم وجود جبهة قوية متحدة تستطيع إجلاء الصليبيين عن الأراضى العربية المحتلة.

لمس الصليبيون ضعفهم فى المشرق، فلجأوا إلى تشكيل منظمات عسكرية دائمة تجمع بين الفروسية والديرية - أى بين الحياة الحربية والدينية. ففى سنة ١١١٩ تشكلت منظمة الديريين العسكرية (ومركزها دير فى مدينة القدس). وفيما بعد تشكلت منظمة الإسبتارية (ومركزها مستشفى القديس يوحنا فى القدس). وفى أواخر القرن الثانى

عشر تشكلت منظمة عسكرية دينية من الفرسان الألمان فى فلسطين. وكان فرسان هذه المنظمات العسكرية يعيشون حياة ديرية فهم لا يتزوجون، كما أنهم يخضعون لسلطة البابا مباشرة وليس للسلطات الصليبية فى المشرق. وكان هؤلاء الفرسان الديريون أعظم قوة عسكرية منظمة لدى الصليبيين فى المشرق، كما كانت حصونهم منتشرة بكثرة على الحدود الشرقية للإمارات الصليبية (ومنها قلعة الحصن ودير مارجرجس فى وادى النصارى ببلاد الشام). وعندما طرد الصليبيون من المشرق حمل هؤلاء الفرسان معهم الثروات التى جمعوها إلى أوروبا، فصاروا من كبار المرابين وأسسوا البنوك المالية هناك.

٧- الحملة الصليبية الثانية :

انتزع السلجوقى زنكى أتابك الموصل إمارة الرها من الصليبيين سنة ١١٤٤، فخشى الأوروبيون خسران بقية الإمارات الصليبية فى المشرق، لذا شكلوا حملة صليبية ثانية انطلقت من أوروبا سنة ١١٤٧م بقيادة كونراد الثالث امبراطور ألمانيا ولويس السابع ملك فرنسا. والهدف الرئيسى من هذه الحملة الصليبية إنما هو استعادة مدينة الرها من السلاجقة، لما لها من أهمية دينية واستراتيجية، ففيها ترعرعت المسيحية الأولى. وهى أولى الإمارات الصليبية فى المشرق، كما أن موقعها بين شمال العراق وبلاد الشام من شأنه أن يعرقل إتحاد القوى الاسلامية فى المنطقتين. إلا أن الحملة الصليبية الثانية فشلت فى الوصول إلى هدفها الرئيسى حيث باء الجيش الألمانى بخسائر فادحة على أيدى السلاجقة فى آسيا الصغرى، كما باء الجيش الفرنسى بالهزيمة والتمزق عندما اصطدم بقوات سلجوقية فى اقليم فيرجيا. ولم يبق من القوات الأوروبية سوى أعداد قليلة لا يستطيعون مهاجمة الرها، لذا اتجهوا نحو دمشق فحاصروها بمساعدة ملك القدس الصليبى بلدوين الثانى. ولم يكن بلدوين

الثانى مطمئنا لقدوم القوات الأوروبية بقيادة الامبراطور الألمانى والملك الفرنسى (خشى منهما على مركزه ومصالحه الخاصة)، لذا أمر قواته بفك الحصار عن مدينة دمشق، مما أثار غضب كونراد الثالث ولويس السابع واضطرهما للإنسحاب إلى القدس أيضاً، حيث استقبلا فيها بفتور. وبعد إمضاء عدة أيام بزيارة الأماكن المقدسة في فلسطين عاد الامبراطور الالمانى والملك الفرنسى مع قواتهما إلى أوروبا يجران ذيول الهزيمة والفشل. وهكذا فشلت الحملة الصليبية الثانية فى تحقيق مهمتها، فأولا باء الصليبيون بالخسائر الفادحة على أيدى السلاجقة الأتراك، وثانيا لم يساعد البيزنطيون الصليبيين، لا بل حرض الامبراطور البيزنطى (مانويل كومنين) مسعود سلطان قونية السلجوقى على وضع العراقيل فى وجه الصليبيين، وثالثاً لم يتعاون الصليبيون السابقون إلى المشرق مع الصليبيين الوافدين، لا بل استقبلوهم بفتور وعدم ارتياح، خشية أن ينافسوهم على المناصب والمكاسب المادية.

٨- اتحاد مصر وبلاد الشام وشمال العراق فى عهد صلاح الدين الأيوبى :

إن أسباب الانتصارات التى حققها الصليبيون فى مطلع القرن الثانى عشر هى تفتت القوى الإسلامية وتصارعها فى المشرق. وعندما اتحدت قوات مصر وبلاد الشام والعراق (فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر) استطاعت أن تلقن هؤلاء المستعمرين الأوروبيين دروسا قاسية وأن تلحق بهم هزائم شنيعة. ففى سنة ١١٤٦م مات زنكى أتابك الموصل بعد أن حرر مدينة الرها من الصليبيين سنة ١١٤٤م وضم حلب إلى إمارة الموصل (فى شمال العراق). وخلف زنكى ابنه نور الدين محمود، فعمل على تحقيق الوحدة بين العراق وبلاد الشام ومصر كى يحشد قوات هذه الأقطار كلها ضد الصليبيين. وفى سنة ١١٥٤م استطاع نور الدين أن يضم مدينة دمشق إلى امارته، كما أخذ يستعد للتوجه إلى مصر. إلا أن الملك الصليبى فى القدس (أمورى

الأول) أخذ ينافس نور الدين فى الاستيلاء على مصر. ولما كانت الخلافة الفاطمية فى مصر منهوكة القوى فقد تمكن أمورى الأول من ارسال أربع حملات عسكرية ضدها، كما ساعده البيزنطيون بارسال اسطول حاصر مدينة دمياط سنة ١١٦٩م. غير أن القوات العسكرية التى أرسلها نور الدين إلى مصر تمكنت من إحباط محاولة الاسطول البيزنطى احتلال مدينة دمياط، كما تصدت للصليبيين القادمين من فلسطين وردتهم على أعقابهم.

مات نور الدين محمود سنة ١١٧٣م تاركاً لصلاح الدين الأيوبى مهمة إتمام رسالته فى توحيد القوى الاسلامية ومحاربة الصليبيين. وفعلا أثبت صلاح الدين جدارته فى تحقيق المهمة الملقاة على عاتقه، فوحد مصر والشام وشمال العراق تحت سلطته، كما جمع قوات الأقطار الثلاثة تحت قيادته. وفى سنة ١١٨٧م خاضت القوات الإسلامية (المكونة من عناصر عربية وتركية وكردية) معركة طاحنة مع القوات الصليبية (المكونة من ألف وثلاثمائة فارس وخمسة عشر ألفا من المشاة) فى سهل حطين قرب بحيرة طبرية بفلسطين. وحسمت معركة حطين الموقف فى المشرق لصالح المسلمين، حيث أبيدت فيها معظم القوات الصليبية. وبعد معركة حطين دخلت قوات صلاح الدين عكا ويافا وصيدا وبيروت وعسقلان، وبذا حررت ساحل الشام من سيطرة الصليبيين، ماعدا مدينة صور التى صمدت بفضل مساعدة السفن الإيطالية لها من جهة البحر. كذلك سقطت مدينة القدس بأيدى المسلمين، فسمحوا لمن فيها من المستعمرين الأوروبيين بمغادرتها دون خيل أو سلاح بإضافة فدية مالية عن كل شخص يخرج منها، فمات أكثر هؤلاء الصليبيين جوعا، ومن لم يستطع منهم افتداء نفسه بالمال نقد بيع عبداً فى سوق النخاسة. وعلى كل حال كان المسلمون أرحم بكثير من الصليبيين الأوروبيين الذين ارتكبوا جرائم فظيعة ونكَّلوا بسكان القدس عندما احتلوا سنة ١٠٩٩م. وتشهد على هذه وثيقة اشترك كاتبها فى الحملة الصليبية الأولى. ويذكر وليم أسقف مدينة

صور (فى كتابه «الحروب المقدسة» الذى وضعه فى أواخر القرن الثانى عشر معتمداً على مصادر موثوقة معاصرة للأحداث) الفظائع الشنيعة التى ارتكبها الصليبيون عند احتلالهم مدينة القدس.

حرر صلاح الدين الأيوبى معظم المناطق التى احتلها الصليبيون، فلم يبق لهم سوى بعض المواقع في القسم الشمالى من ساحل الشام. هذا ولم يعد الصليبيون الباقون فى المشرق باستطاعتهم تجنيد جيش جديد. وإذا ما أرادوا استعادة المناطق التى فقدوها لابد لهم من حملة صليبية جديدة تأتى من أوروبا تساعدهم فى تحقيق ذلك، وهذا ماحدث فعلاً.

٩- الحملة الصليبية الثالثة:

بعد سقوط القدس والموانئ الساحلية بأيدى المسلمين شكل الأوروبيون حملة صليبية ثالثة لارسالها إلى المشرق واستعادة المناطق التى فقدها الصليبيون هناك. وفى سنة ١١٨٩ انطلقت الحملة الصليبية الثالثة من أوروبا بقيادة الامبراطور الألمانى فردريك بربروسا والملك الفرنسى فيليب الثانى والملك الانجليزى ريشارد الأول الملقب بـ«قلب الأسد». وصلت الحملة الصليبية الثالثة إلى المشرق، ولكنها لم تحقق انتصارات باهرة، فالامبراطور الألمانى غرق فى نهر أثناء عبور قواته فى آسيا الصغرى، فرجع قسم من جيشه إلى ألمانيا وانضم القسم الآخر إلى القوات الفرنسية والانجليزية. أما الانجليز والفرنسيون فقد نشب خلاف بينهم وظهرت عندهم النعرة القومية، ورغم هذا فقد استولوا على عكا ويافا وقيسارية. وبعد استيلاء الصليبيين على بعض الموانئ الساحلية عاد الملك الفرنسى فيليب الثانى إلى بلاده، بينما ظل الملك الانجليزى ريشارد «قلب الأسد» فى الشام فترة طويلة، فحقق خلالها بعض الانتصارات على المسلمين. وفى سنة ١١٩٢ عقد صلح بين ريشارد «قلب الأسد» وصلاح الدين الأيوبى واتفق الاثنان على أن يحتفظ الصليبيون بالقسم الساحلى الممتد بين صور ويافا،

اضافة إلى طرابلس وأنطاكية، في حين يحتفظ المسلمون بمدينة القدس وبما بقى من مناطق فى فلسطين، وتعهد المسلمون بالسماح للحجاج المسيحيين بزيارة الأماكن المقدسة فى فلسطين. وقبل أن يعود ريشارد «قلب الأسد» إلى انجلترا احتل أيضا جزيرة قبرص من البيزنطيين، فنشأت فيها مملكة صليبية دامت نحو قرنين ونصف القرن.

١٠- الحملة الصليبية الرابعة:

اتخذ الصليبيون من سقوط القدس بأيدى المسلمين ذريعة لتشكيل حملة صليبية رابعة وارسالها إلى المشرق. لقد أراد البابا أنوسنت الثالث (١١٩٨-١٢١٦م) أن يحقق لنفسه زعامة عالمية داخل أوروبا وخارجها، فطفق يدعو الملوك الأوروبيين لتسوية الخلافات بينهم وتوجيه قواتهم العسكرية فى حملة صليبية إلى المشرق كى تستعيد القدس من المسلمين. ولم يستجب لدعوة البابا هذه المرة ملك انجلترا ولا ملك فرنسا ولا امبراطور ألمانيا، بل لبى دعوته بعض الأمراء الاقطاعيين فى فرنسا وايطاليا وألمانيا. وقد استطاعت مدينة فينيسيا الايطالية (البندقية) بما لديها من قوة بحرية أن تسيطر على زمام الحملة الصليبية الرابعة وتوجهها حسب مصالحها الخاصة. طلب دوق مدينة البندقية من الصليبيين ٨٥٠٠٠ ماركاً فضياً مقابل نقلهم على السفن الفينيسية إلى مصر. ولما كان الصليبيون لا يملكون هذا المبلغ من المال فقد طلب منهم دوق البندقية مهاجمة مدينة زارا (على ساحل دالماسيا) ونهبها لتسديد الأموال المطلوبة. والأغرب من هذا أن البابا وافق على غزو هذه المدينة المسيحية، مما يدل على انحلال الدافع الدينى أمام المصالح الخاصة.

كان الصليبيون المتجمعون من فرنسا وايطاليا وألمانيا بزعامة البابا يريدون أن تتجه الحملة الصليبية الرابعة إلى مصر، لأن مصر غدت مركز القوة الاسلامية فى المشرق، فإذا استولوا عليها أصبح استرجاع القدس أمراً مقضيا. أما تجار البندقية (أصحاب السفن) فلم يرغبوا بمهاجمة مصر، لأنهم كانوا قد عقدوا مع سلطانها (الملك

العادل أخى صلاح الدين الأيوبى) اتفاقية حصلوا بموجبها على امتيازات تجارية فى الأسواق المصرية. وكان التجار البنادقة يريدون أن توجه الحملة الصليبية الرابعة ضد بيزنطة التى كانت تنافسهم على التجارة بين الشرق والغرب، كما كان الامبراطور البيزنطى (الكسيوس الثالث آنجيلوس) قد ضيق على جالية البندقية التجارية فى القسطنطينية. وفى حين أغدق الامتيازات على منافسيهم تجار مدينة بيزا الإيطالية، وعلى هذا يكون ضرب بيزنطة وامبراطورها ضربة فى الوقت نفسه لمدينة بيزا الايطالية. وساعدت الظروف تجار البندقية بتحقق رغبتهم فى غزو القسطنطينية. فالامبراطور الكسيوس الثالث كان قد اغتصب العرش البيزنطى من أخيه اسحق وسجنه وسمل عينيه، بينما فر ابن اسحق (وأسمه الكسيوس أيضا) إلى أوروبا وطلب من البابا وجموع الصليبيين أن يساعدوه على استعادة عرش والده. ووعد الكسيوس ابن اسحق البابا باخضاع الكنيسة البيزنطية للبابوية، كما وعد الصليبيين أيضا بأن يقدم لهم مساعدات مالية وعسكرية لاستعادة القدس، إذا ما أعادوا له أو لوالده العرش البيزنطى. وهكذا تحولت الحملة الصليبية الرابعة عن هدفها الأول (الذى هو غزو مصر واستعادة القدس) واتجهت نحو القسطنطينية.

وفى سنة ١٢٠٤ احتل الصليبيون العاصمة البيزنطية. فأحرقوا بعض أحيائها ونهبوا كنوزها، حتى أنهم حطموا التماثيل البرونزية ليصنعوا منها عملة نقدية. هذا ولم تسلم الكنائس والأديرة البيزنطية من السرقة والنهب على أيدى هؤلاء الصليبيين الأوروبيين. وبعد احتلال القسطنطينية تابع الصليبيون توسعهم فى الأراضى البيزنطية حتى سيطروا على معظمها. ولم يعد الصليبيون العرش البيزنطى إلى الامبراطور المخلوع اسحق أو إلى ابنه الكسيوس، كما أنهم لم يفكروا بالتوجه إلى مصر أو استعادة القدس من المسلمين، بل أسسوا لانفسهم دولة خاصة فى بيزنطة، وقد سميت هذه الدولة الصليبية الجديدة بـ«الامبراطورية اللاتينية».

١١- الامبراطورية اللاتينية فى بيزنطة:

عاشت الامبراطورية اللاتينية التى أسسها الصليبيون فى بيزنطة بين سنتى ١٢٠٤-١٢٦١م. وأول امبراطور صليبى حكم فى القسطنطينية هو الأمير الفرنسى بلدوين أحد قادة الحملة الصليبية الرابعة. هذا وقد أسس بعض الأمراء الصليبيون الآخرين إمارات وممالك ضمن اطار الامبراطورية اللاتينية الجديدة، وهذه الامارات والممالك هى: مملكة تيسالونيكة، إمارة آخائيا، دوقية أثينا. أما مدينة البندقية فقد نالت حصة الأسد من مكاسب الحملة الصليبية الرابعة، فقد كانت حصتها ثلاثة أثمان الامبراطورية البيزنطية وتتألف من : ربع مدينة القسطنطينية. الثغور البحرية والجزر المسيطرة على الطرق التجارية المؤدية إلى شبه جزيرة القرم فى الشمال وإلى مصر والشام فى الجنوب، بعض المناطق فى ألبانيا جزيرة كريت، القسم الجنوبى الغربى من البيلوبونيز المطل على البحر الادرياتيكى. وبنتيجة هذه المكاسب الكبيرة غدت جمهورية البندقية الايطالية أهم دولة تجارية استعمارية فى ذلك العصر.

وكانت الامبراطورية اللاتينية والإمارات الصليبية التابعة لها مزعزعة الأركان مهددة بالسقوط، لأن البلغار كانوا يضغطون عليها بثقلهم من الشمال، كما كان السلاجقة الأتراك يضغطون عليها من آسيا الصغرى. هذا وبعد سقوط القسطنطينية بأيدى الصليبيين تشكلت امبراطوريتان بيزنطيتان (احداهما فى نيقية والثانية فى طرابزون) وظلتا تسعيان لاستعادة القسطنطينية والمناطق التى احتلها الصليبيون. ولما كانت مدينة جنوا تنافس مدينة البندقية على التجارة العالمية فقد أعطى الجنويون امبراطور نيقية البيزنطى الأموال والسفن اللازمة، كى يستخدمها فى القضاء على الامبراطورية اللاتينية والسيطرة على المناطق التى احتلها منافسوهم البنادقة. وهكذا نلاحظ أن المنافسة التجارية بين مدينتى البندقية وجنوا الإيطاليتين هى العامل

الرئيسى فى تحريك الأحداث الدائرة فى فلك مايسمى بالحروب الصليبية. فإذا كان تجار البندقية هم الذين أقاموا الامبراطورية اللاتينية الصليبية فى القسطنطينية من أجل تحقيق مصالحهم التجارية، فإن منافسيهم تجار جنوا هم الذين بذلوا كل غال ونفيس من أجل القضاء على هذه الامبراطورية اللاتينية.

وفى سنة ١٢٦١م تمكن امبراطور نيقية البيزنطى ميخائيل باليولوغ من استعادة القسطنطينية والأراضى البيزنطية التى احتلها الصليبيون، ماعدا بعض المناطق فى جنوب شبه جزيرة اليونان ووسطها. وهكذا بعثت الامبراطورية البيزنطية القديمة من جديد، ولكن هذه الامبراطورية كانت تعانى سكرات الموت، لأن ضربات الصليبيين والسلاجقة والبلغار وغيرهم من الطامعين كانت قد أنهكتها.

١٢- الحملات الصليبية فى القرن الثالث عشر: (*)

خبت الحماسة فى نفوس الأوروبيين وتناقص تدريجيا عدد الذين يرغبون فى الاشتراك فى حملات عسكرية إلى المشرق بعد الحملة الصليبية الرابعة، ولذا لجأت البابوية إلى استخدام أسلوب جديد فى الدعوة إلى الاشتراك فى الحملات الصليبية الأخرى. روجت البابوية دعاية سخيفة مفادها أن الرجال الكبار لم يحققوا انتصارات باهرة فى الحروب الصليبية لأنهم ذوو الخطيئة المغمورون بالذنوب، أما الشباب الصغار فيستطيعون تحقيق المعجزات لأنهم بريئون من الذنوب والخطايا. فلقد أوعزت البابوية إلى الصبى ستيفان (الذى كان راعيا للغنم) أن يروج بين أنداده أن المسيح أمره بالاشتراك فى الحروب الصليبية إلى المشرق، وعلى هذا تجمع فى مدينة مرسيلية نحو ثلاثين ألف يافع صغير من مختلف أنحاء أوروبا. وفى مرسيلية تعهد التجار وأصحاب السفن بنقل هؤلاء الشباب إلى فلسطين، فانطلقوا بهم إلى البحر (سنة ١٢١٢م) إذ غرق بعضهم وبيع الآخرون فى سوق النخاسة فى تونس ومصر.

(*) للتفاصيل أنظر: فايز نجيب إسكندر: فن القتال لدى المسلمين والصليبيين فى النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادى - الإسكندرية ١٩٩٩م.

تشكلت فى أوروبا حملة صليبية خامسة(*) وانطلقت إلى مصر (سنة ١٢١٧) بغية احتلالها أولا، ثم احتلال فلسطين ثانيا. وفى هذه الحقبة التاريخية كان يحكم الملك العادل الأيوبى مصر وفلسطين معا. وصلت الحملة الصليبية الخامسة إلى مصر فاستولت على مدينة دمياط سنة ١٢١٩. ثم انطلقت منها إلى القاهرة. ولكن الخلاف الذى نشب آنئذ بين الصليبيين أنفسهم، اضافة إلى جهل قادتهم فى الأمور الحربية - كل هذا أفضى إلى فشل الحملة فى الوصول إلى القاهرة، كما أجبر الصليبيون أيضا على الجلاء من دمياط سنة ١٢٢١م.

وتشكلت فى ألمانيا حملة صليبية سادسة انطلقت إلى المشرق (سنة ١٢٢٨م) بقيادة الامبراطور الألمانى فردريك الثانى. وكان هذا الامبراطور فى صراع مع البابا جريجورى التاسع ومحروما من الكنيسة البابوية. وهذا يعنى أن البابا لم يدع إلى هذه الحملة ولم يكن راغبا فيها. واعتمد الامبراطور فردريك الثانى على الأساليب الدبلوماسية والمفاوضات السياسية أكثر من اعتماده على السلاح. فحصل على القدس وبيت لحم وشريط ساحلى ضيق فى فلسطين. لقد سمح سلطان مصر (الملك العادل الأيوبى) للصليبيين باسترداد هذه المدن والمناطق، لأنه كان فى صراع مع أمير دمشق ويرغب فى أن تشكل القوات الصليبية حاجزاً بينه وبين أمير دمشق. وإضافة إلى هذا فقد تعهد فردريك الثانى للملك العادل بمنع الصليبيين من مهاجمة مصر فى المستقبل. بعد عودة الامبراطور فردريك إلى ألمانيا نشب الخلاف بين قواته التى تركها فى فلسطين، مما سهل على ملك مصر الصالح أيوب إستعادة القدس وطرد الصليبيين من فلسطين سنة ١٢٤٤م.

وفى سنة ١٢٤٩م انطلقت من فرنسا حملة صليبية سابعة(**) بقيادة الملك الفرنسى لويس التاسع. وصلت الحملة الصليبية السابعة إلى مصر. ولكنها باءت بالفشل الذريع فقد أسر الملك لويس التاسع ولم يُطلق سراحه إلا بعد دفع فدية كبيرة، كما عاد الفرنسيون إلى بلادهم بعد أن فُقد منهم الكثيرون.

(*) عن الحملة الصليبية الخامسة، أنظر : فايز نجيب إسكندر : المرجع السابق

(**) عن الحملة الصليبية السابعة ، أنظر: فايز نجيب إسكندر : المرجع السابق

لم يتعظ الملك الفرنسى لويس التاسع من فشل الحملة الصليبية السابعة فى مصر، بل قاد الحملة الصليبية الثامنة إلى تونس سنة ١٢٧٠م. ولكن الجيش الفرنسى أصيب بمرض الطاعون، فهلك أكثره بما فيهم الملك نفسه وعاد الباقون خائبين إلى بلادهم(*).

بعد فشل الحملة الصليبية الثامنة بدأ باباوات روما يدعون ملوك أوروبا وأمراءها للقيام بحملات صليبية جديدة إلى المشرق، ولكن هذه الدعوات فشلت لأنها لم تجد أذناً صاغية لدى الأوروبيين، فلم تتشكل أية حملة صليبية فيما بعد. هذا ولم يعد يتلقى الصليبيون فى المشرق مساعدات عسكرية من أوروبا. فآلت إماراتهم إلى الضعف والانحلال، ثم زالت نهائياً على أيدى سلاطين المماليك. ففى سنة ١٢٦٨ استولى السلطان الظاهر بيبرس على إمارة أنطاكية الصليبية. وفى سنة ١٢٨٩ استولى السلطان قلاون على إمارة طرابلس. وبسقوط عكا فى يد السلطان الأشرف خليل بن قلاون سنة ١٢٩١ زال الوجود الصليبى من المشرق ولم يبق للصليبيين سوى قبرص.

١٣- أسباب انحسار الحركة الصليبية الاستعمارية :

كانت الحملة الصليبية الرابعة آخر حملة استعمارية كبيرة أرسلت إلى المشرق. فلقد اشترك عدد كبير من الجماهير الأوروبية الفقيرة فى كل من الحملة الصليبية الأولى والثانية والثالثة والرابعة، بينما لم يشترك إلا قليل من الفقراء الأوروبيين فى كل من الحملة الصليبية الخامسة والسادسة والسابعة والثامنة. وهكذا لم يعد الفقراء الأوروبيون يستجيبون لدعاة الحروب الاستعمارية، لأنهم لم يروا فى هذه الحروب سوى الموت المحتم. ومن ناحية ثانية حصل فى أوروبا تطور اقتصادى، حيث تحسنت الأدوات الزراعية واستخدم السماد فى الزراعة على نطاق واسع واستصلحت بعض الغابات والأراضى البوار. هذا وطرأ تحسن على أوضاع الفلاحين، فاشترى بعضهم أرضاً من

(*) للتفاصيل أنظر : فايز نجيب إسكندر :

١- «المقاومة الإسلامية فى مواجهة العدوان الصليبى على تونس»- القاهرة ١٩٨٧م.

٢- «رسائل بيير دوكونديه عن العدوان الصليبى على تونس»- مجلة كلية الآداب جامعة صنعاء- اليمن ١٩٩٤م.

الإقطاعيين وغدوا ملاكين صغاراً، والبعض الآخر تحرروا من التبعية الاقطاعية، فصاروا يستأجرون الأراضى من الاقصاعيين ويستثمرونها، على أن يدفعوا لهم مبلغاً من المال أجرة الأرض سنويا. وعندما تحسنت أوضاع الفلاحين الاقتصادية ضعفت الحماسة القتالية عندهم وتمنعوا عن الاشتراك في حروب صليبية محفوفة بالمخاطر. كذلك تطورت وسائل الانتاج الصناعى فى المدن الأوروبية. مما دفع الكثيرين من الفلاحين الفقراء للهجرة إلى المدن ليشتغلوا فى الصناعة فيحصلوا على قوتهم اليومى.

وتطور فى أوروبا النظام السياسى أيضا. فأوروبا لم تعد تربطها فكرة الامبراطورية الواحدة والكنيسة الواحدة، بل تعرضت وحدة الغرب الأوروبى لتفتت سياسى، فظهرت الدول القومية المتعددة. هذا وقويت السلطة الملكية داخل كل دولة، فضعف نفوذ كبار الاقطاعيين، الذين كانوا فيما مضى يتنافسون للوصول إلى السلطة الملكية، أو يشتركون فى حروب استعمارية بغية تأسيس امارات أو ممالك خاصة بهم خارج حدود بلادهم. وصار الفرسان الصغار جنوداً مأجورين لدى الملوك، فى حين أخذ يوجه الملوك نشاطهم الاستعمارى ضمن الأراضى الأوروبية نفسها. ورأت البابوية أخيراً أن من الأفضل لها أن تستغل مابقى من حماسة دينية عند بعض المسيحيين فى تشكيل حملات صليبية ترسلها ضد الشعوب القاطنة على ضفاف بحر البلطيق التى تختلف عنها فى العقيدة والمذهب. أما التجار الأوروبيون (كتجار البندقية وجنوا وغيرهم) فقد عقدوا مع الحكام المسلمين اتفاقيات تجارية تضمن لهم تحقيق مصالحهم التجارية، لذا لم يحتاجوا بعد هذا إلى ارسال الحملات الصليبية ضد المشرق. وهكذا نلاحظ أن جميع الطبقات والفئات التى اشتركت بحماسة فى الحملات الصليبية الأولى قد ضعفت عندها هذه الحماسة، حيث زالت الدوافع والأسباب التى كانت تدفعها للاشتراك فى مشاريع استعمارية خطيرة إلى ماوراء البحار.

ويرأينا أن السبب الرئيسى لانحسار الحركة الصليبية وتوقف الأمواج الاستعمارية الأوروبية عن التدفق على المشرق العربى هو اتحاد مصر وبلاد الشام والعراق فى جبهة واحدة، بحيث غدت جيوش هذه الجبهة قادرة أن تكيل الضربات الرادعة للمستعمرين الأوروبيين وأن تحمى الأرض العربية من الغزو الاستعمارى.

١٤- نتائج الحروب الصليبية :

كانت نتائج الحروب الصليبية بالنسبة لأوروبا ذات أهمية كبرى. فمن الناحية الاقتصادية وضعت الحروب الصليبية حداً لسيطرة البيزنطيين والعرب التجارية على حوض البحر المتوسط الشرقى، فتحولت هذه السيطرة إلى البندقية وجنوا واستمرت إلى مابعد انسحاب الصليبيين من المشرق. وأسست مدينة جنوا محطات تجارية فى الأراضى البيزنطية الواقعة على شواطئ البحر الأسود، كما أقامت مدينة البندقية علاقات حسنة مع سلاطين مصر، كى تحافظ على نشاطها التجارى فى البحر المتوسط. ومكنت العلاقات التجارية بين أوروبا والمشرق، خلال الحروب الصليبية وبعدها، الأوروبيين من الاطلاع على حضارات شعوب المشرق (كالعرب والبيزنطيين والأتراك وغيرهم) واقتباس الكثير من المظاهر الحضارية عنهم. فلقد أخذ الأوروبيون بعض المزروعات الجديدة (كالقمح الأسود والأرز والسمسم والمشمش والبطيخ الأحمر والليمون والفستق) من المشرق. كما اقتبسوا صناعة السكر واستخدام الطواحين الهوائية عن بلاد الشام واستفاد الأوروبيون من التقدم الصناعى فى المشرق لتطوير المصنوعات النسيجية والمعدنية فى أوروبا، فأصبح الكثير من المنسوجات الأوروبية يحمل اسماً شرقياً عربياً كالداماسكو نسبة إلى دمشق والموصلين نسبة إلى الموصل. هذا وقامت بعض الصناعات فى أوروبا على استيراد المواد الخام من المشرق كالحرير والقطن والأصبغة وغيرها. واقتبس الأوروبيون عن المشرق أيضا بعض الأدوات التى تستخدم

فى تسليح الجيش كالعربة الحربية والبوق والطبل والشعارات والرموز التى تنقش على التروس.

ومن الناحية الفكرية - الثقافية فقد ساهمت الحروب الصليبية فى تعرف الأوروبيين على الكثير من علوم العرب والمعارف اليونانية والشرقية التى ترجمها العرب إلى لغتهم العربية. ولم تكن الحروب الصليبية الوسيلة الوحيدة للاتصال الحضارى بين أوروبا والمشرق، بل اقتبس الأوروبيون أيضا كثيراً من المعارف عن العرب الموجودين فى صقلية وأسبانيا.

أما من الناحية الاجتماعية فقد ساعدت الحروب الصليبية على تطور العلاقات بين الطبقات المختلفة وساهمت فى تسريع التحولات الاجتماعية داخل المجتمع الاقطاعى فى أوروبا. فلقد اضطر بعض الاقطاعيين الأوروبيين الذين اشتركوا فى الحروب الصليبية أن يبيعوا قسما من أراضيهم أو أن يمنحوا الحرية لعدد من فلاحيهم مقابل حصولهم على مبلغ من المال منهم، بغية تغطية نفقاتهم خلال الحملة. وهذا ما أدى إلى ضعف الطبقة الاقطاعية من جهة، وازدياد عدد الملاكين الصغار والفلاحين الأحرار من جهة أخرى. ونتيجة تدفق الثروات من المشرق على أوروبا تطورت الصناعة والتجارة فى المدن الأوروبية، فازداد عدد أفراد الطبقة العمالية. كما تشكلت طبقة بورجوازية أخذت تسيطر تدريجياً على مقاليد الأمور السياسية. ومن ناحية ثانية تطورت الحياة الاجتماعية، فنشأ لدى الطبقات الغنية اهتمام كبير بالترف المقتبس عن المشرق، فلم يعد يقنع الأمراء الأوروبيون بالمنازل المتواضعة والثياب الرديئة والمأكولات والمشروبات البسيطة. بل أخذوا يقلدون الأمراء الشرقيين فى بناء القصور الفخمة وارتداء الملابس الحريرية المزركشة واستعمال العطور وأدوات الزينة وغيرها من مظاهر الرفاهية. ونذكر من العادات التى اقتبسها الأوروبيون عن العرب غسل الأيدى قبل الطعام واستعمال الحمامات الساخنة واطلاق اللحى والشوارب.

ومن الناحية السياسية ساعدت الحروب الصليبية على إزدياد هيبة الملوك وتقوية السلطة الملكية فى أوروبا، حيث ضعفت الطبقة الاقطاعية التى كانت تلعب بالعرش الملكى حسب مصالحها الخاصة نتيجة هذه الحروب. كذلك ازدادت سلطة البابوية، فاتسع نفوذها وطغت زعامتها الروحية على العالم الأوروبى.

لقد ظهر خلال الحروب الصليبية التعصب القومى والصراع بين الشعوب المختلفة (كالفرنسيين والانجليز والألمان)، فأخذت تتلاشى فكرة الامبراطورية الأوروبية الواحدة، بينما تنشأ الدول القومية المستقلة ذات النظام الملكى. ومن ناحية ثانية أفضت الحروب إلى اتساع الشقاق بين الغرب الأوروبى اللاتينى والشرق البيزنطى اليونانى.

إذا كانت نتائج الحروب الصليبية ايجابية ومفيدة لأوروبا، فإن هذه الحروب لم تجلب لبلاد المشرق إلا الخراب والفقر والدمار. فالامبراطورية البيزنطية لم تشف من جراحها التى سببها الصليبيون فى حملتهم الرابعة وخلال قيام امبراطوريتهم اللاتينية فى القسطنطينية وما تبعها من ممتلكات. ولم يترك المستعمرون الصليبيون فى البلاد العربية سوى ذكريات سيئة عن أعمالهم الوحشية الإجرامية، حتى أصبح اسم الفرنجة مكروها ومحتقراً فى جميع أنحاء المشرق العربى.

وأخيراً يجدر بنا أن نقول: لم تكن الحروب الصليبية سوى حلقة واحدة من سلسلة الغزو الأوروبى الاستعمارى للوطن العربى. لقد بدأت هذه السلسلة الاستعمارية بغارات شعوب البحر (فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد)، وتلاها الغزو المكيدونى (فى القرن الرابع قبل الميلاد)، ومن بعده الاحتلال الرومانى (فى القرن الأول قبل الميلاد)، ومن ثم الغزو الصليبى (فى القرن الثانى عشر الميلادى). وأخيراً وليس آخراً الاستعمار الأوروبى الحديث والغزو الصهيونى (فى القرنين التاسع عشر والعشرين). لم تتوقف الأطماع الاستعمارية فى الوطن العربى ولن تنتهى أبداً، بل ستظل تأخذ

أشكالاً جديدة وترتدى أثواباً متعددة. لذا يجب علينا نحن العرب أن نعرف دائما كيف نتصدى للأطماع الاستعمارية مهما كان نوعها ولونها. أفلا يعلمنا التاريخ أن الوحدة العربية هى السبيل الوحيد للصمود فى وجه الأطماع الاستعمارية؟ فهل هزم الأوروبيون الصليبيون وجلوا عن وطننا العربى إلا عندما تضافرت عليهم مصر وبلاد الشام والعراق؟


Bibliotheca Alexandrina
0435927